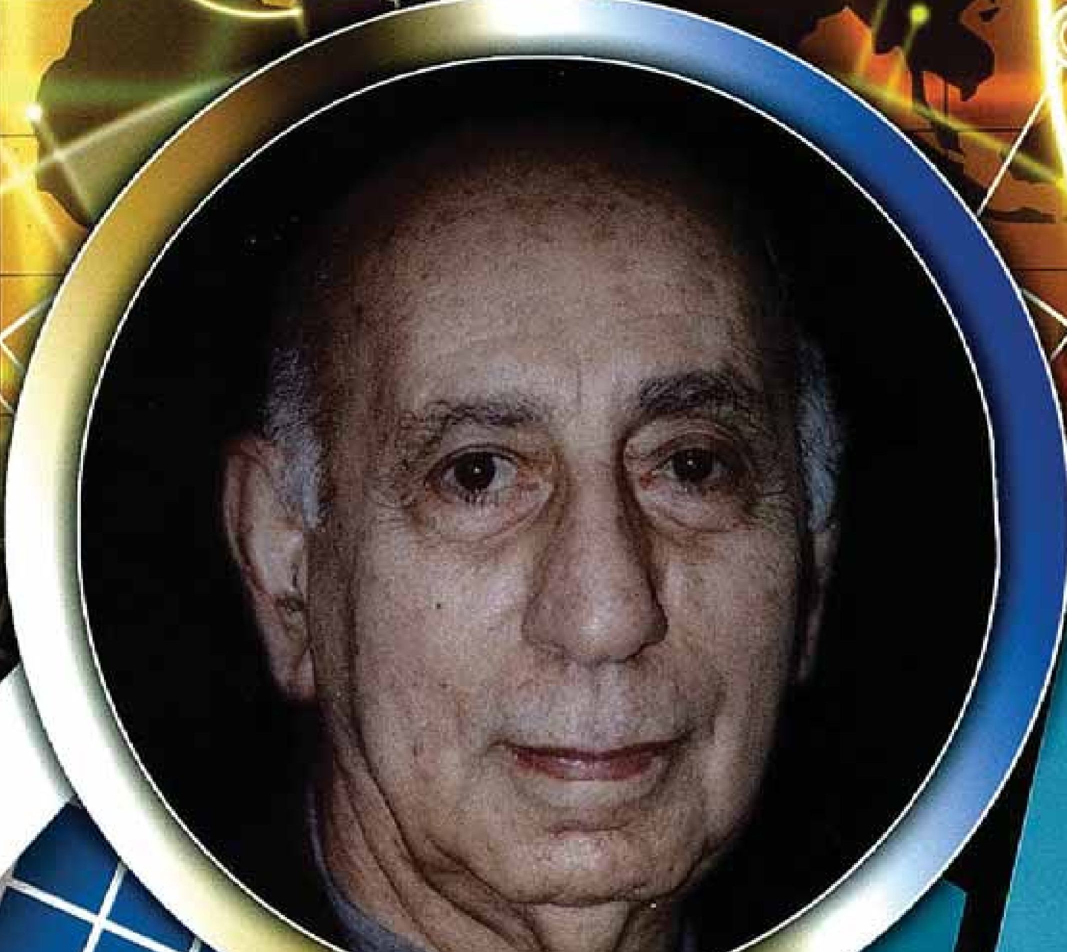
مشاهدات فى عالم الملك والملكوت



تاليف الوزير الانسان

د. حسن عباس زكى

تحقيق وتقديم / خديجة النبراوى

رقـم الإيـداع ٢٤٢٠ / ٩٩

الترقيـم الدولـى .I.S.B.N

٩٧٧/٥٦٧٩/٢٦/٥

مُشَاهَدَات فی عَالَمِ المُلکِ وَالمَلَکُوت

مُشاهَدات فى عَالم المُلكِ وَالملكُوت

تأليف

الوزيرُ الانسَان

د. حسَن عبّاس زكى

تحقيق وتقديم

خَديجة النّبَراوى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾

(الأنعام: ٧٥)

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾

(فاطر: ٢٨)

صدق الله العظيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، السيد الكامل الفاتح، الخاتم الحبيب الشفيق الرؤوف الرحيم، الصادق الأمين، السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره.. وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد.

يسعدنى أن ألتقى بكم فى رحاب عالم الروح، حيث تجمعنا نفحات مباركات، وجولات طيبات إن شاء الله، على صفحات هذا الكتاب "مشاهدات فى عالم الملك والملكوت".. داعياً المولى ﷻ أن يتقبل صالح أعمالنا، وأن يتجاوز عن سيئاتنا، وأن يجعله علماً نافعاً، يكون لنا ذخراً ونوراً فى آخرتنا. كما أدعو الله سبحانه وتعالى، أن ييسر لنا كتابة تلك المشاهدات، فى سلسلة متتابعة الحلقات، تستوعب حصاد السنين، التى قضيتها فى تحصيل العلوم، التى تقربنى من الحقيقة الكبرى.. حيث عشت دوماً أتشوق إلى الملأ الأعلى، وأشعر أن هناك شيئاً بداخلى يجذبنى بقوة نحوه، ويشعل رغبتى نحو معرفة حقائقه. فظللت أسعى بشغف إلى كل ما يقربنى من ذلك الجمال السرمدى، والنور الأزلى، حتى أصبحت أغوص فى بحار الحب الإلهى، والعشق النورانى، وأصبحت أردد مع المحبين:

الله ربى لا أريد سواه   هل فى الوجود حقيقة إلاه

حقا:

فما زادنى السعى فى طلب العلم، إلا يقيناً بعظمة الله وقدرته، وتسليما بوحدانيته، فكل العلوم، وكل الحقائق، تنبع من الحقيقة الكبرى، وهى وجود الله جلَّت قدرته، تلك الترنيمة القدسية، والأنشودة العذبة "لا إله إلا الله". وعلمت علم اليقين كيف أن كل من يردد تلك الكلمات الخالدة، بلسان الحال والمقال، يجد نفسه سابحاً فى الوجود، يشعر بتجاوب الكائنات فى الأرض والسماوات، ويتمتع بأعذب

الأحاسيس وألطف المعانى والمشاعر، لأنه يحقق الانسجام التام مع جميع المخلوقات، فالكل عبارة عن ذرات، ينبعث منها موجات، تتجه جميعها فى نقطة استنادها واستمدادها: إلى رب الأرضين والسماوات وما بينهما، فى جميع الأوقات والحالات.

ولذلك فمهما تكلمت عن مشاهداتى فى عالم الملك والملكوت، فإننى لن أكون إلا كمن اغترف غرفة بيده، يروى بها ظمأه وشوقه، من بحار المعرفة الواسعة، ثم يروى من بعده، كل من يتشوق إلى تلك المعرفة النورانية.. فمعرفتنا مهما اتسعت وتعددت مصادرها، وتعمقت أبعادها، فهى تخضع لقول الحق جلَّ شأنه وتبارك اسمه: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ (الإسراء ٨٥).

فعقولنا البشرية، لا تتحمل من العلوم إلا قطرة من بحار العلم الإلهى، وخزائنه التى لا تنفد من الأسرار، حيث لا ينزل منها إلا بقدر، حسبما تتأهل العقول وتنضج لاستيعاب المزيد من الحقائق.. ولولا فضل الله علينا ورحمته، بأن جعل قلوبنا مرآة للتجليات الإلهية، لكنا ضعنا فى خضم التيارات المادية.. فلله الحمد أولاً وأخيراً، فما نحن إلا عبيد إحسانه، ومظهر لإعجاز صنعه وإتقانه.

ولا أخفى عليكم القول: أن شغلى الشاغل كان دائما هو البحث عن أقصى ما وصل إليه العقل البشرى، فى محاولة اكتشاف أسرار الإنسان، وأسرار الكون، لأننى أوقن أن ألسنة الخلق أقلام الحق، وأن هؤلاء البشر ما هم إلا مرآة لتجليات الحق، يظهر عليهم بين الحين والآخر، بعضاً من أسرار الخلق.. ولذلك فإن كل العلوم تعرفنا بخالقنا من وجهة معينة، يستوى فى ذلك العلوم الشرعية أو الروحية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية، أو علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات و..

بشرط أن تكون تلك العلوم نابعة من الحق، وبعيدة عن الهوى والتعصب، وقائمة على أسس سوية، تهدف إلى إعلاء شأن الإنسان، وتحقق له الأمن والأمان، لينطلق بفاعلية هادفة ومثمرة فى الحياة.

لذلك فكلما استوعبنا من تلك العلوم، بقدر ما يسعنا جهدنا البشرى الطموح، كلما اقتربنا من معرفة الله.. أما حق المعرفة، أو يقين المعرفة، فهى خارج قدراتنا

الإنسانية، فى حياتنا الدنيويـــة، لأنها محدودة بقوانا المادية، فأنّى لنا أن نستوعب أنوار الحق كاملة، وهو نور السماوات والأرض؟!

ولكنها رحلة البحث عن الحقيقة، أو رحلة معراجنا الروحى، تفرض علينا أن نبحث ونجد ونجتهد، لنتلقى أنوار الحقيقة أيًا كانت، ومتى كانت، وفى أى مجال كانت: سواء كانت حقيقة علمية أو روحية أو إنسانية.. وسواء كانت من علماء مسلمين أو غير مسلمين.. فدورنا هو أن نميز الخبيث من الطيب، ثم نلبس الطيب روح الإيمان السامية، فيفيد كل باحث عن الحقيقة، ويعطيه دفعة فى عروجه فى مدارج الأنوار. ذلك العروج الذى يستلزم نقاء القلب وصفائه، ونضج العقل وارتقائه. ويستلزم مزيداً من بذل الجهد والمثابرة على الاغتراف من نبع العلوم الصافية، التى تزيد روحه تألقاً، وتشع على عقله أنوار الحقيقة السامية.

وأحمد الله –حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه– أن وفقنى لاقتطاف بعضاً من ثمار الحقيقة الساطعة، من رياض القلوب المؤمنة والعقول السامية، حتى أينعت فى قلبى أشجاراً وارفة الظلال، أصلها ثابت، وفروعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

وانطلاقاً من فضل الله علىّ، واعترافاً بخيره العميم، وكرمه الجزيل، فإننى أعرض بعضاً من تلك الثمار، لينتفع بها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. داعياً المولى ﷻ أن يجعلها كما أردنا، من حيث تعميم النفع والفائدة للمسلمين، ومن حيث رجائنا أن ننال بها رضا مولانا الرحمن الرحيم، وأن يوفقنا دائماً إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على أكرم الخلق وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. حسن عباس زكى

لمحة روحية

عن الولى التقى العارف بالله
د. حسن عباس زكى

فى رياض الحب الإلهى:

إن المتأمل فى أولياء الله فكراً وروحاً، يـزداد انبهـاراً بقـدرة اللـه وإعجـازه فـى خلقه. فكل ولى له طابع يميزه، وسمات يختلف بها عن الآخر، ولكنه يدلك على اللـه بأسلوبه الخاص وفكره المتميز.. فالكل يستمد روافده من بحار الحب الإلهى.. والكل يدلى بدلوه ليرتوى، ويروى من قدر الله لـه الارتـواء علـى يديـه. **وعالمنـا الدكتـور حسن عباس زكى نوع فريد من الأولياء،** الذى تعجز كثير من العقول عن استيعاب أبعاده بسهولة. لأنه ليس من ذلك النوع من الأولياء الذى درجنا على معرفته.. فهـو لا يرتدى عمامة أو جلباب، وليس له مريدون بـالمعنى المتعـارف عليـه، ولا يعيـش فى مظاهر التقشف التى ألفناها فى معظم من سلكوا طريق الولاية.. ولكنه نوع من الأولياء يبين قدرة الإسلام اللا متناهيـة، علـى الوفـاء بمظـاهر الحيـاة المختلفـة، مـع الاحتفاظ بالجوهر، الذى يحقق شرف المقصد وسمو الغاية.

فالدكتور حسن يعيش الحضارة الحديثة بأجلى صورها، فقد أتاه اللـه بسطـة فـى العلم والجسم والمال والنفوذ.. وجميع مظاهر القوة التـى يمكـن أن تجتمـع لإنسـان.. ومع ذلك فهو قد تعامل مع عالم المادة -بجميع مكوناتـه- مـن منطلـق الزهـد، الـذى ينبع من الشوق إلى ما هو أعلى وأعظم من ذلك العَرَضْ الزائل، والمتاع الفانى. فقد حباه الله قلباً عاشقاً لله ورسـوله، فلـم تصرفـه الدنيـا، رغـم مـا تزينـت بـه مـن كـل مظاهر الإغراء -عن ذلـك العشـق السـرمدى.. وحبـاه اللـه نفسـاً تواقـة إلـى معـالى الأمور: كلما ارتقى منزلة فى عالم الـروح، اشـتاق إلـى مـا هـو أعلـى. وهكـذا ظـل طوال عمره تواقاً إلـى المـلأ الأعلـى، وإلـى كـل مـا يقربـه إلـى هـذا العـالم القدسـى العجيب، الذى لا تنفذ أسراره، ولا تنقضـى عجائبه، حتى صـار ذلك العالم هو شـغله الشاغل وأمنيته القصوى، وغايته الكلية..

فأسعد أوقاته هى تلك التى يقضيها مع كل ما يقربه من ذلك العالم النورانى، الذى يشيع فى نفسه أنساً وحبوراً، وبهجة وسروراً، وسكينة وطمأنينة. فهو سائح جوّال فى ملكوت الله، حباه الله قلباً تقياً نقياً، حتى صار مرآة مجلوة لأنوار الحق وتجلياته.. وكلما عكس قلبه من تلك الأنوار العلية، ازداد شوقاً إلى كل ما يقربه إلى السعادة الأبدية، باغترافه من الأنوار المحمدية والمحبة الإلهية.

فمن هو د. حسن عباس زكى؟

إنه ذلك العالم الصوفى الورع التقى، الذى دخل عالم التصوف، وهو فى الحادية عشرة من عمره، لأن الله أودع فيه أسراراً من تلك الآيات البينات: ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا**﴾ (مريم ١٢-١٥).

ويمكن القول بدون أدنى شطط أو جنوح عن الحق: **إن حياة عالمنا الفاضل دكتور حسن هى ترجمة حية لتلك الآيات الكريمات**: فهو قد أخذ كتاب الله بقوة الإيمان وقوة العزيمة، منذ نعومة أظفاره.. وهو يشيع حناناً وشفقة على كل من حوله، بل على الإنسانية بأسرها، بل الكون كله.. لأنه يشعر برابطة الوحدانية التى تجمع الوجود مع الموجود، وتربط بين المخلوقات بنور من الوحدة الشاملة، والعظمة اللا متناهية.. كما يفيض قلبه براً على والديه، سواء فى حياتهما، أو بعد انتقالهما إلى الرفيق الأعلى، حيث يدعو الله لهما دائما، أن يرحمهما كما ربياه صغيراً، ويقدم لروحهما الطاهرة كل أنواع البر، التى أمر بها الله ورسوله. ليس ذلك فقط، بل إن قلبه يفيض بالبر على كل من كان له أباً معنوياً، أو أمّاً معنوية، من أولياء الله الصالحين، الذين أسدوا إليه أعظم إحسان، بإرشاده على طريق الإيمان، والإفاضة عليه من فيض الرحمن.

ورغم كل مظاهر العظمة والسيادة التى تحيط به، فهو بفضل الله وبحمده، **لم يعرف التكبر إلى قلبه سبيلاً**، وبالتالى حفظه الله من التجبر والطغيان والعصيان، الذى يؤدى إلى الفساد فى الأرض، وظلمات النفس البشرية.. ولذلك، فإنه رغم مرور سبعين عاماً على دخوله عالم التصوف والاستضاءة بأنواره الباهرة، فهو لم

يسأم هذا العالم، بل ازداد شوقاً إليـه، وتشبثا برحابـه، لأنـه وجد فيه الصفاء الـذى ينشده، والسمو الذى يناسب تطلعات روحه، والعلم اللدنى الذى يفتح لـه عـالم الملك والملكوت، فى أجلى صورهما.

ويمكن أن نقرر بدون أدنى مبالغة: **إن مفتاح شخصية هذا العالم الفذ هى كلمـة "التصوف"**.. فهى المدخل إلى قلبه، وهى الانشراح لصدره، وهـى محور اهتماماتـه فى حياته، وهى المعين الذى لا ينضـب، فـى الإفاضـة عليه بعلوم الدنيا والآخـرة. وهى العالم الذى يمده بروافد الحب والإيمان، من الأحباء والأخـوة والأصدقـاء، من العلماء والمشايخ والأولياء.

ولا نكون مبـالغين أيضاً إذا قلنـا إن د. حسن عباس زكى، لم تشـغله أعبـاء الوظيفة –رغم أهميتها والتزاماتها، عن **التجوال بروحه وجسده فـى روضـة أولياء الله الصالحين**، سواء الذين انتقلوا إلى عالم الملكوت، أو أولياء عصره، حتـى لـو كانوا فى مشارق الأرض أو مغاربها، حيث يحاول الاتصال بهم بشتى الطـرق، فـى موعد مع القدر الإلهى، وكأنه خلية نحل بأكملها، تتنقل بين عبـير الأزهـار، لتمتص رحيقها بكل الاشتياق، فتحوله عسلاً شهياً يشبع احتياج أصحاب الأشواق إلى رياض الحب الإلهى.

ولذلك فهو بحـر زاخـر بـالعلوم المتلاطمـة أمواجهـا، التـى لا تعـرف أولهـا من آخرها، ويعجز الكثيرون عن اسـتيعاب أعماقهـا: فهـو خبـير فـى العلـوم الاقتصاديـة والمالية والسياسية والاجتماعية، وذو باع طويل فى علوم الطب البديل، وذو بصـيرة نفاذة بالنفوس البشرية، حيث يعرف بيقين تام، كيف يميز الخبيث من الطيب.. ومـن أجل كل هذا فهو على دراية تامة بالمشاكل العالميـة والمحليـة، وذو رأى سديد فيهـا حيث ينفذ إلى موطن الداء مباشرة، ويشخص الدواء بكل دقة وحكمـة، يستمدها من الحكيم الخبير.

وبالنسبة للدكتور حسن عباس زكى، صاحب المناصب القيادية العليا:

فهو أيضـا خليـة نحـل لا تهـدأ، وهمـة عاليـة لا تدانيهـا أيـة همـة.. يريـد من مرؤوسيه دائماً أن يكونوا على نفس مستوى الإرادة والحمـاس.. وهـذا هـو المحـال

بعينه، حيث كثير من البشر يعتريه القصور والضعف والتهاون، ولكن عالمنا الهمام يؤمن بأن فى الإنسان **طاقات خلاقة**، يجب استثمارها وإيقاظها من مكامنها، لصالح الأمة الإسلامية، وتحقيق التقدم لها فى جميع الميادين.. وهذا هو التحدى الأكبر الذى يواجهه أستاذنا الفاضل، في جميع مجالات العمل التى تولى قيادتها، مما يفرض عليه دائما الجهاد الأكبر، ألا وهو جهاد النفوس على جميع المستويات.. ولذلك فهو يحاول دائماً أن يكون **القدوة المثلى لمرؤوسيه**: فى الانضباط بالمواعيد والعمل الجاد، والنشاط الذى لا يفتر، رغم تقدم العمر به.

ومن الطريف الذى قد لا يعرفه دكتور حسن نفسه، حتى كتابة تلك الكلمات، أن كثيراً من الموظفين الذين يعملون تحت رئاسته، يتحاشون الدخول عليه، بقدر الإمكان، ويحسبون ألف حساب لهذا اللقاء، لأنهم يعرفون حتماً أنهم سيكلفون بأعباء جديدة، مما تقصر عنه همتهم، وتضعف أمامها عزيمتهم.. ولكنهم بعدما يدخلون عليه ويجتمعون به، يخرجون بروح جديدة، وقد امتلأت حماساً من روح قائدهم.

وهكذا: فمن يرى دكتور حسن فى منصب القيادة، يتلاشى فى نظره كل انبهار بنظم الإدارة الغربية أو الشرقية، ويوقن حتماً **بعظمة الإسلام فى خلق القيادات الناجحة**، وبالتالى تحقيق نظم الإدارة الأعظم نجاحاً، حيث يمزج القائد المسلم الأمور المادية والمعنوية فى الإدارة، كأروع ما يكون هذا الامتزاج.. بشرط أن يمس الإيمان شغاف القلوب!!

وبالنسبة للدكتور حسن الإنسان:

فهو **جدير حقاً بأن يحمل لقب "إنسان"** بكل ما تحمله تلك الكلمة من معانى سامية، تشيع السكينة فى القلب، والاطمئنان فى النفس، لأنه يقرب إلى الوجدان حكمة الله من خلق الإنسان.. حيث يشيع فى الأرض الأمن والسلام، والعدل والإحسان، والخير والوفاء، والحب والجمال، لأن هذا الإنسان جاهد جهاداً عظيماً لكى يتخلق بصفات الرحمن، ففاضت نفسه بأسمى معانى الإيمان.

ونحن نشهد شهادة، نستودعها خزائن الرحمة الإلهية، ونعلم علم اليقين أننا سَنُسْأل عنها يوم القيامة: بأن الدكتور حسن قد جاهد نفسه جهاداً، ينبع من شدة

حرصه على تحرير روحه من قيود الدنيا وأغلالها، لأن تلك الروح حلقت فى آفاق عالية، فوهبه الله نفساً مطمئنة، وقلباً نقياً تقياً، وأخلاقاً سنية: فهو يتميز بدماثة الخلق، التى تليق بأحباء الرسول الحبيب، الذى كان خلقه القرآن. كذلك ورث من ميراث النبوة حضور البديهة، التى تخلق الدعابة البريئة مع المقربين، حتى يخفف وطأة الرهبة بينه وبين من يعرفون قدره، ويشيع جواً من الألفة التى تتفق مع أساسيات العقيدة وتعاليمها، كما أنه لا يرد سائلاً مهما كان طلبه، طالما أنه فى حدود الإمكانيات الشرعية والمادية.

ورغم كل مظاهر العظمة والنفوذ التى تحيط به، فهو يحمل بين جنبيه قلباً خاشعاً لله، يشعر بهموم الخلق ويتفاعل معها، لأنه يوقن أن الخلق عيال الله، ومن أراد رحمة الخالق، فعليه رحمة المخلوقين، والتواضع لهم.. ومن تواضع لله رفعه.

ومن هذا المنطلق: **فالدكتور حسن متواضع بدرجة تثير الدهشة والعجب..** وأذكر هنا موقفاً واحداً –من آلاف المواقف– يدلل على ما أقوله: حيث ذهبت يوماً إلى البنك الذى يعمل به، وهو يقع ضمن مبنى ضخم، يضم عدة مصالح فيها مئات الموظفين.. وكانت بعض المصاعد معطلة، مما سبب وقوف هؤلاء الموظفين فى طوابير، فى انتظار المصاعد العاملة.. وعندما جاء الدكتور حسن ليصعد إلى مكتبه، وجد الحال هكذا، فإذا به يتنحى جانباً، ويفسح الطريق لغيره، فى أدب جم وتواضع يأسر القلوب.. ليس هذا فقط، بل إنه بعد فترة وجيزة، فضل أن يتحمّل عناء الصعود على السلالم، مؤثراً غيره أصحاب الأدوار العليا!

وقد اندهشت كثيراً من هذا الموقف النبيل، وهو –على ما هو عليه من المنصب والنفوذ– علاوة على ذلك، فعمره يعطيه الأولوية فى استخدام المصعد.. ودفعنى التأثر من شدة تواضعه هذا، إلى سؤال من حوله عن السر فيما شاهدته.. فقالوا لى: إنه يعرف أن الموظفين مسئولون عن التوقيع فى موعد محدد، أما هو فغير مقيد بذلك، فأفسح لهم المجال، حتى لا يقعوا تحت طائلة أى مساءلة، رحمة بهم وحرصاً على مصلحتهم، ونبعاً من تقديره لأهمية الانضباط بالموعد فى حياة الشعوب والأمم.

أما بقية مواقفه التى تدل على شخصيته الإيمانية المتواضعة، فهى تجل عن الحصر هنا.. ويكفى أن نقول عن تلك المواقف: أنها تقرِّب إلى أذهاننا موقف الخلفاء الراشدين، وهم يقفون لأى شخص يعترض طريقهم للاستفسار عن أى شيء.. وإن كان الوقت لا يتيح له ذلك، أو الجهد لا يسعفه، فإنه يعتذر بأسلوب يتفق وأدب الإسلام، على موعد بلقاء آخر.

وبالنسبة لتعامل د. حسن عباس زكى داخل أسرته:

فهو يشيع وداً وحناناً على الجميع، ولا يغمط أحداً حقه، ويهتم بكل صغيرة وكبيرة تخص أفراد أسرته، ويحاول بقدر جهده، أن يغرس كل معانى الحب والألفة بينهم.. ولكن هذا لا يعنى انفلات ضوابط الرعاية والمسئولية التى أمَّنه الله عليها.. فدستوره فى نطاق الأسرة: **حزم فى غير شدة، ولين فى غير ضعف**، ورغم اتساع نطاق أسرته، واستقلال كل فرد فيها بأسرة جديدة، فإن هذا لا يلغى دوره فى القيادة، والاطمئنان على شئونهم، وتسديد خطاهم، لأنه يؤمن أن: كل منا راع، وكل راع مسئول عن رعيته، حيث يسأله الله عما استرعاه، حفظه أم ضيعه.

ولا يظن ظان أن حياة د. حسن الأسرية كانت كلها رغد واستقرار، فهذا يتنافى مع سنة الله فى الكون، حيث الدنيا دار ابتلاء، والآخرة هى دار الجزاء.. وقد ابتلاه الله بكثير من الشدائد فى حياته الأسرية، كان أشدها وقعاً على قلبه، فَقْد فلذة كبده وهو فى السادسة والعشرين، بعد معاناة شديدة مع المرض.. ولكنه لم يهن ولم يحزن، ذلك الحزن الذى يفقده أروع لحظات اتصاله بالله، لأن ما يحكمه ليس دستور الشريعة من قرآن وسنة فقط، ولكن **يحكمه قانون مدارج الروح**، الذى يغير الموازين كلية فى شخصية الإنسان، فيرى أحداث الآخرة قريبة كأنها وقع العين، ويشعر بحسيسها من نعيم أو عذاب.. ويرى أحداث الدنيا –رغم مصاعبها– بموازينها الحقيقية، من ضآلة وزوال، ويشعر بحكمة الأقدار التى تسيرها، من تكفير سيئات أو رفع درجات، أو تمحيص مشاعر الإيمان، من صدق وإخلاص لدى الإنسان. ولذلك فهو يسلم الأمر لله فى كل شدة وابتلاء، لأنه يعلم علم اليقين: أن المرء يبتلى على قدر دينه، وأن أشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء، ثم من يلونهم تدريجياً،

حسب نصيب كل منهم من أنوار الحق.

وانطلاقاً من تلك القاعدة الإيمانية، فهو يردد دائماً، بلسان الحال والمقال: **لله ما أخذ ولله ما أعطى، ولله ما أبقى.**

ويظل هكذا مع كل حدث من أحداث الدهر.. مسلماً الأمر كله لله، لا تزعزعه تيارات الحياة العاتية، عن إخلاصه ويقينه برب العالمين، فتلك معان ومشارب لا تعادلها كنوز الدنيا بأسرها.. ولكن لا يتذوقها إلا من ذاق لذة معرفة الله ومحبته، حباً يليق مع جلال قدرة وعظيم سلطانه.

أما بالنسبة للدكتور حسن عباس زكى العارف بالله:

فتلك بحار لا نجيد السباحة فيها.. **لأن ذلك الولىّ العارف بالله بحر خِضَم، يعتمل بداخله أسرار إيمانية كثيرة**.. وكل ما فى وسعنا: أن نقف على شاطئ هذا البحر، نصف أبعاده فقط، أما ما يحويه من كنوز الأسرار، فذلك غيب لا يعلمه إلا الله.

وإذا وقفنا على ساحل د. حسن: نشعر بقدرة الله وعطائه الذى لا ينضب، فيما يمد به عباده الصالحين الأولياء المتقين.. حيث تهب علينا نسمات ولطائف نورانية، من الأنوار السرمدية.. "ومن ذاق عرف" كما يقول من سبقونا على طريق الإيمان، وحلقوا فى عالم الروح والنور، حيث المعرفة الحقة، والعطايا الربانية من العلوم اللدنية.

وكل ما نستطيع قوله فى هذا المجال: إن عالِمنا الفاضل قضى عمره فى صقل قلبه، وتطهيره من الأهواء والشهوات، والأحقاد والظنون والأوهام، **حتى صار مرآة من مرايا الحق المجلوَّة، التى تظهر فيها أنوار التجليات الإلهية، والعلوم الاصطفائية**.. وتلك القلوب المجلوّة، نثرها المولى ﷻ فى صدور عباده المؤمنين الذين اصطفاهم، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، لتظل الصلة دائمة بين الأرض والسماء، وليظل لعالم الروح مكانته وعلومه، التى تنشر الحب والجمال فى دنيا البشر، الذين تطحنهم الصراعات والشقاق والبغضاء.

وإن مما يثير العجب من قدرة الله وتصاريفه فى خلقه، أن أولياءه الذين اصطفاهم وعرفوه، لا يسأمون من طلب العلم، لأنهم يوقنون أن بحار العلم لا نهاية لها، حيث فوق كل ذى علم عليم ويرفع الله الذين أوتوا العلم درجات.. ولذلك فإن من يراقب سلوك د. حسن عن قرب **تتملكه الدهشة من سعيه الحثيث الدؤوب فى تحصيل العلم من جميع الميادين:** حيث يبذل أقصى جهده فى الحصول على كل الإصدارات العلمية فى أى مجال، ويتابع المؤتمرات العلمية، سواء المحلية منها أو العالمية، بشغف مذهل، ويكون شغله الشاغل هو معرفة موضوعات الأبحاث التى دارت فيها.. وتكون أسعد لحظاته تلك التى يستقى فيها علماً جديداً، ينتفع به فى عالم الملك أو الملكوت. **وهكذا فهو فى حركة دائبة مع العلم والعلماء:** يفيض على الناس من العلم الذى أفاض الله به عليه، ويسعى سعياً حثيثاً للحصول على العلم من منابعه المتعددة، ومشاربه المختلفة، ويساهم مساهمة إيجابية فعالة، فى بعث الحركة العلمية، بنشر كتب التراث القيمة، والمخطوطات النادرة، التى يخشى عليها من الاندثار.

ولذلك فإن المتأمل فى حياة د. حسن: فكراً وروحاً وتصرفات، يعلم بحق أن **المعرفة بالله ليست أمراً هيناً**، أو رحلة سياحية عابرة.. إنها نتيجة جهد متواصل، ومثابرة دائمة ورباط فى طلب الحق، وموالاة لله وللرسول فى كل الأمور، ونية صادقة مخلصة، وراء كل عمل يقوم به الإنسان، ابتغاء مرضاة الله ورسوله.. ولن يتأتى هذا كله إلا بالعلم.. وهذا يفسر حرص أستاذنا الفاضل، وعالمنا الجليل د. حسن على طلب العلم، وبذل الغالى والنفيس فى سبيل تحصيله، حتى صار يقتنى مكتبة ضخمة، يندر أن يمتلك أحد مثلها فى عصرنا الحاضر.

تلك كانت عجالة العجالة، فى تعريف فضيلة الدكتور حسن عباس زكى. وتلك العجالة لا تتعدى أننا اغترفنا غرفة بيدنا، من بحار الحب الإلهى، التى يسبح فيها أولياؤه المتقون، وأحباؤه المخلصون، وقد اغترفنا تلك الغرفة، لنروى ظمأنا إلى تنسم أخبار الصالحين، لنقتدى بخطاهم ونهتدى بهداهم، فهم جواهر الله فى أرضه، تنجلى بهم كل فتنة ظلماء.

وفى الحقيقة: إن الحياة الروحية لأستاذنا الولى العارف بالله د. حسن عباس

زكى لجديرة بأن نجول فى أعماقها مرات ومـرات، لأنهـا تفيض بـالثراء الروحـى، والكنوز النورانية، التى تبدد ظلمات النفوس البشرية، وتجلى ماران على القلوب من كدورات المادية.. ولذلك ندعو الله أن يوفقنا فى مرات قادمة للغوص فى بحار تلك الحياة الروحية السامية، بتوسع أكبر، لنتخرج منهـا الجواهر النـادرة، التـى تشـرح صدورنا، وتنير طريقنا. وتحلق بنا فى آفاق عالية.

وننتقل الآن إلى بيان لمحة تاريخية عن حياة عالمنـا الفـاضل، تلقـى مزيـداً مـن الضوء على أبعاد شخصيته وملامح عظمتـه. وتبيـن فـى نفـس الوقـت كيـف يواجـه الإنسان التحديات التى يقابلها فى الحياة، وكيف يتغلب على الصعـاب والمشـكلات.. فهو يرى أن مدرسة التاريخ أكبر معلم فى حيـاة البشـر.. فعلـى كـل مسلم أن يمعن النظـر فـى التـاريخ: ليتفـادى الأخطـاء التـى مر بهـا غيره، ويستفيد مـن تجـارب الناجحين.. وذلك لكل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد. ولاشك أن تـاريخ عالم جليل مثل د. حسن عباس زكى ليستحق أن نمعـن النظـر فيـه، بقلـوب صافيـة، وعقول واعية، لأنه زاخر بالأحداث التى تلقن الأجيال دروساً فى أهمية الإيمان فـى مواجهة كل اختبارات الحياة وابتلاءاتها.

وصدق الله العظيم إذ يقول جل شأنه فى كتابه الكريم:

﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (يوسف: ١١١).

لمحة تاريخية عن العالم الصوفي والخبير الاقتصادي

الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى
وزير الخزانة والاقتصاد والتموين الأسبق

تقديم:

إن الحديث عن تاريخ شخصية فذة مثل د. حسن عباس زكى، يعتبر من الصعوبة بمكان، لأنه قد يخرجنا الاهتمام بتسجيل أحداث التاريخ، عن فهم مغزى تلك الأحداث، فى تشكيل معالم تلك الشخصية العملاقة.. أو كيف صدرت تلك الأحداث أصلاً، متسربلة بفكر وعبقرية وإنسانية عالمنا الفاضل.

لأنه في خضم الحياة، يتفاعل الإنسان والزمان والمكان، فتتبلور فى النهاية بصمات وجودنا فى تلك الحياة.. ولاشك أن ذلك التفاعل يتفاوت من شخص لآخر، حسب مقوماته النفسية، وتطلعاته الروحية، وهمته في اكتساب العلوم والمعارف، وقدرته على ترجمة تلك العلوم والمعارف، بما يحقق صالح المجتمع الذى يعيش فيه، حسب إمكانيات ذلك المجتمع المادية والمعنوية.. وهذا هو باختصار تاريخ حياة الإنسان.

من هذا المنطلق عاش أستاذنا الدكتور حسن عباس زكى حياته، مؤمناً منذ أن تفتحت مداركه على الحياة: **أن الإنسان لابد أن يكون له رسالة وفكر، وأن يبذل فى سبيل ذلك قصارى جهده، لاستخراج الطاقات الكامنة فيه، بما يكون الأقرب لتحقيق هذه الرسالة، وبما يتناسب مع فكره.**

فكيف عاش د. حسن حياته متفاعلاً ومؤثراً فى مجريات أحداثها؟
وكيف استطاع أن يصقل قلبه وعقله لتنطلق روحه فى آفاق عالية؟
وكيف استطاع أن يسخر علمه وإيمانه فى إنقاذ بلده من كل محنة مرت بها؟
وكيف استطاع أن يستخرج الطاقات الكامنة فيه، للقيام برسالته التى كلفه الله بها؟
والأهم من كل ذلك: كيف استطاع رغم كل إغراءات الدنيا التى أحاطت به أن يحتفظ بصفاء نفسه ونقائها؟!

هذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال تلك اللمحة التاريخية الإجمالية، التى نعتبرها كنافذة نطل منها على ذلك البحر العميق، الذى يموج باللآلئ والأصداف، التى قد يساعدنا بريقها على انشراح صدورنا، والمساهمة فى تبديد ظلمات نفوسنا، وإلقاء الضوء على مسار خطوات حياتنا، ومعرفة بعض الحلول فى مواجهة مشكلات عصرنا.

مولده ونشأته:

ولد أستاذنا الفاضل فى ٢ يناير عام ١٩١٧ فى مدينة بورسعيد، من أسرة عريقة تمتاز بالتدين، **وتنتسب إلى الأشراف من ناحية الوالدة.**

وقد اختار له الله تلك الوالدة، لينشأ فى رحاب الله، وهو ما يزال جنيناً فى بطن أمه، فيتغذى بغذاء الصالحين، ويسمع تسبيح المسبحين، ويستضئ بأنوار المؤمنين، وهو فى ظلمات الرحم، التى تشبه الليل البهيم.. فهذه السيدة الورعة التقية، ورثت تقواها خلال تاريخ طويل، من أجدادها المتقين: بدءاً بجدها الأعظم الحبيب المصطفى، وانتهاء بجدها "الشيخ الصياد" الذى كان ولياً يزار فى دمياط، وهو جدها لأمها أيضاً.. ثم والدها الشيخ أبو الحسن الذى كان ولياً يزار فى بورسعيد.

ولاشك أن تلك الأم كانت المدرسة الكبرى: التى تلقى فيها د. حسن عباس زكى منذ نعومة أظفاره، نوى الحقائق، التى أثمرت أشجاراً طيبة، على مدى الأعوام، جذورها ثابتة، وفروعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين: مزيداً من المعرفة برب العالمين، وقرباً من الرسول الأمين، وسطوع أنوار اليقين.. حتى صار بحق قدوة وإماماً للمتقين.

كما أن نشأته فى بورسعيد، تلك المدينة الهادئة الجميلة: **طبعت شخصيته بالهدوء والسماحة، وعلمته مرونة التعامل مع الآخرين..** حيث قضى فيها حوالى أحد عشر عاماً من عمره، وهى الفترة التى تتكون فيها معالم الشخصية الإنسانية، وملامحها الأساسية.

وفى خلال هذه الفترة التحق بالكتاب وهو فى عمر أربع سنوات، حيث حفظ

بعض أجزاء من القرآن الكريم.. ثم التحق **بالجمعية الخيرية الإسلامية**، حيث قضى فيها المرحلة الابتدائية.. ثم انتقل ليكمل تعليمه الثانوى فى مدرسة **رأس التين** بالإسكندرية، ثم مدرسة **التوفيقية** بالقاهرة.. وكذلك أكمل دراسته الجامعية فى القاهرة، حيث التحق **بكلية التجارة** شعبة الاقتصاد عام ١٩٣٤، وتخرج منها عام ١٩٣٨.

نشأة التصوف الدينية وسببها:

إذا قلنا إن هناك سبباً محدداً كان هو السبب فى نشأة التصوف لدى د. حسن، نكون قد جانبنا الحقيقة إلى حد كبير.. لأن نفس عالمنا الصوفى الورع، كانت مهيأة أصلا لاستقبال موجات الأنوار الإلهية، من كل حدب وصوب، فاختار له الله وهو فى عالم الغيب، الأسرة العريقة التى عندها مرآة القلوب مجلوة، لاستقبال الأنوار الإلهية، حتى إذا خرج من رحم أمه إلى عالم الشهادة، استقبلته تلك القلوب بالرعاية والحب، فتعكس عليه من أنوارها، ما يؤهله لأن يسلك طريق الصفاء الروحى ومعرفة الله، وهو فى سن غضة، يكون أقرانه فيها يرتعون فى مدارج لهو الصبيان.

وليس أدل على ذلك من تلك الحكاية التى يحكيها لنا فيقول:

عندما كنت أعيش فى بورسعيد، وعمرى وقتها حوالى ثمانى سنوات، انتدب والدى للعريش، حيث كان يعمل فى مصلحة الجمارك.. واشتاقت نفسى إلى مخاطبته، عن طريق كتابة رسالة له.. فذهبت إلى مكتبة لبيع الكتب، وسألت صاحبها عن كتاب فيه رسائل، حتى يتسنى لى اقتباس رسالة منه أكتبها لوالدى، تعبر عن مقتضى حالى وأشواقى إليه.. فأشار إلىَّ بدون تركيز على مجموعة كتب بها رسائل، وعندما أخذتها ورجعت بها إلى بيتنا، وجدت أنها رسائل ابن سينا، فدفعنى حب المعرفة إلى محاولة القراءة فيها.. ومن هنا تولدت لدىَّ ملكة القراءة، بحيث ملكت علىَّ كل حياتى.. ولذلك عندما انتقلنا إلى الإسكندرية، ثم القاهرة كان أول شيء أسأل عنه هو: "**دار الكتب**".. وهذا كان بالنسبة لى نوع من التربية الذهنية: أى تعلمت كيف أفهم المعلومات وأهضمها، ثم أترجمها عن طريق عقلى.. **وهكذا تكون لدىَّ** أسلوب **معين فى التفكير** :أى **كيف أفكر؟** فالإنسان عليه أن يفكر،

ويكون له هدف ودور معين فى حياته.. أما الحفظ وحشو المعلومات فى الذهن فإنه لا يجدى، ولا يؤدى إلى ظهور الطاقات الكامنة فى الإنسان.. فتلك الطاقات لا تظهر إلا إذا تعلم الإنسان كيف يفكر، مع النضج والدراية بأمور الدين والحياة.

وهكذا: من خلال تلك الحادثة التى مرت بحياة أستاذنا العالم الصوفى د. حسن عباس زكى: فقد ظهرت الملكات الروحية والعقلية، التى زوده الله بها ليشق طريقه فى عالم المعرفة السرمدى.. أى أن تلك الحادثة ليست السبب فى نشأة التصوف، ولكنها السبب فى تهيئة المناخ الملائم لظهور الطاقات الكامنة فيه.. ونظراً لأن د. حسن يملك من تلك الطاقات الكثير، لذلك، فقد سلك **طرقاً صوفية كثيرة ليتعرف على الحقيقة فى أجلى صورها، وأسمى غاياتها.**

من تلك الطرق:

١- **الطريقة الرفاعية:** وحصل عليها من خاله السيد محمود الصياد عن طريق جده الشيخ الصياد، الذى يعتبر من أولياء الله الصالحين فى دمياط.

ورغم أن عمر د. حسن فى ذلك الوقت كان حوالى أحد عشر عاماً، إلا أن المولى ﷻ مكنه أن يرى الشيخ الرفاعى نفسه، فى رؤيا منامية لا ينساها، رغم مرور سبعين عاماً عليها.

٢- **الطريقة الخلوتية:** وحصل عليها من الشيخ محمد راغب السباعى، وهو مدفون مع الشيخ أحمد الدرديرى.

٣- **الطريقة الوفائية:** حصل عليها فى الأربعينات ولكنه لم يمارسها.

٤- **الطريقة النقشبندية:** حصل عليها من شيخ باكستانى يعيش فى جدة، وهى خطوة على طريق ثرائه الروحى.

٥- **الطريقة الشاذلية:** وحصل عليها من الشيخ عبد الفتاح القاضى فى عام ١٩٥٩ وما زال عليها إلى الآن، لأنه وجدها أنسب الطرق إلى تطلعات روحه وأنوار قلبه..

ويعتبر التصوف هو العالم الذى يجد فيه أستاذنا الفاضل نفسه: حيث يكون فيه مع الله بقلبه، وهو المفتاح الحقيقى لشخصيته، وهو الدافع وراء كل تصرفاته فى

الحياة: من أنشطة دينية واجتماعية، ومجاهدات نفسية وقلبية. وجولان في كل المكتبات المتاحة له، بحثاً عن الحقيقة التي تزيده معرفة وقرباً من ربه.

ورغم كل الوظائف التي شغلها، مهما كانت أعباؤها ومهامها ورفعتها، فلم ينشغل لحظة عن ذلك العالم، الذي يفيض بشراً وحبوراً، وطمأنينة وسروراً.. بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إن التصوف بالنسبة للدكتور حسن هو الماضي والحاضر والمستقبل، وما يجد عليه بعد ذلك من كل الوظائف الهامة، وزخارف الدنيا وبهجتها وعظمتها، هو في نظره متاع الغرور، وبريق زائل زائف.. ولكن هذا لا يمنع أن يقوم بكل مهمة توكل إليه بكل الإخلاص والجدية، لأن الوفاء شيم الكرام. وهناك أوامر ربانية تحتم عليه إتقان العمل والاهتمام بأمور المسلمين.. وتتعاظم الأمانة مع تعاظم المسئولية في السلم الوظيفي الذي يشغله. ونظراً لأنه شغل دائماً مناصب رفيعة في الدولة، فقد بذل عصارة جهده ووقته، بما يتناسب مع معرفته لربه.

الوظائف التي شغلها د. حسن قبل توليه الوزارة:

من السهل سرد تلك الوظائف، ولكن من الصعب بيان روح الطموح والإرادة، التي كان يتحلى بهما أستاذنا الفاضل، منذ بداية السلم الوظيفي، وحتى وصوله أعلى المناصب، فضلاً عما زادته الأيام من وعي إيماني، وخبرة بنفوس البشر، وحنكة في مجال خبرته، ودراية بمجال العمل في الميدان السياسي والاجتماعي.

وإن المتتبع لمجالات الوظائف التي شغلها د. حسن عباس زكي: يشعر من طرف خفي، أن الله كان يعده إعداداً خاصاً، لتحمل أعباء الوزارة ومسئولياتها، في فترة من أحلك الفترات التي مرت بها البلاد.. بل يمكن القول بدون أدنى تردد: إن الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر" لم يكن ليختار د. حسن وزيراً لو لم يثبت كفاءة نادرة، في كل الوظائف التي شغلها، والمهام التي أوكلت إليه، وخاصة أن أستاذنا الفاضل لم يكن عضواً في مجلس الثورة، وبالتالي فإن كفاءته وصموده في كل ميدان، هو الذي رشحه فيما بعد لذلك المنصب الهام.

فما هى تلك الوظائف؟

- بعد تخرجه من كلية التجارة (قسم اقتصاد) **عام ١٩٣٨:** اشتغل فى بنك التسليف الزراعى.. ثم أعلن بنك مصر عن مسابقة دخل فيها، وحصل على المركز الثانى، وكان من حقه اختيار البلد التى يريد العمل بها. فاختار **بنك مصر بالإسكندرية.. حيث عينوه فى بورصة مينا البصل،** وتسلم منضدة بسيطة وبعض الأوراق.. وكانت كل وظيفته تسجيل جودة بالات القطن.

ويقول عالمنا الفاضل د. حسن: فى البداية، تضايقت كثيراً من هذا العمل، ووجدت أنه يتنافى مع مؤهلاتى وطاقاتى الروحية والعقلية.. واشتكى إلى رئيس مجلس الإدارة آنذاك وهو عبد الحميد الشريف.. فنصحه بأن يصبر ويتحمل، لأن الإنسان الذى يريد نجاحاً حقيقياً فى مهنته، عليه أن يبدأ السلم من أوله، حتى يكون على علم بكل صغيرة وكبيرة فى مجال العمل، وبذلك يكون قائداً كفئاً على مستوى المسئولية، إذا تدرج فى وظيفته فى مواقع قيادية، فلا يتلاعب به من هم تحت رئاسته، أو يكونوا على دراية بأسرار المهنة أكثر منه.

واستجاب د. حسن للنصيحة، كما تفرضها عليه طبيعة إيمانه الصادق، وروحه المتطلعة دوماً إلى مدارج العلا.. ويقول: لقد وجدت ثمار تلك النصيحة الطيبة تتحقق، بعد حوالى خمسة عشر عاماً، عندما أراد الرئيس عبد الناصر فتح بورصة القطن، بعدما أدت المضاربات الرهيبة فيها، أيام الوفد، إلى إغلاقها.. وقد اختارونى مندوب الحكومة فى البورصة (وهو منصب كبير فى الدولة) فقمت بكتابة اللائحة بنفسى بخط يدى، لأننى أعرف الموضوع جيداً، ودرسته دراسة كافية عن قرب منذ بدايته، كما قمت بإعداد الموظفين، بما يتناسب مع متطلبات فتح البورصة.

ولهذا فهو ينصح كل إنسان ألا يتضجر من أى عمل، مهما كان بسيطاً، لأنه إذا أجاده وفهم أسراره، أحب ذلك العمل، وفهم أصوله وأبعاده، وبذلك يحقق الإنسان ذاته.. فأساسيات تحقيق الإنسان لتلك الذات: ألا يستصغر شيئا، ولا يستكبر شيئاً، ويرضى بما قسم الله له، مع المحافظة على كرامته وشخصيته. فإذا حقق الإنسان ذلك فعلاً، وكان منهجاً روحياً وقلبيا بالنسبة له، فهو سيصبح فيما بعد

قائداً كفئاً فى موقعه، قادراً على تحقيق أقصى درجات النجاح المنشود.

- **فى عام ١٩٤٣:** وبعد حوالى ٥ سنوات من العمل فى بنك مصر (بورصة مينا البصل) رجع ثانية إلى العمل **ببنك التسليف**.. وفى ذلك الوقت صدر قانون بإنشاء أول نقابة للبنوك.. وبحماس الشباب، واندفاعه فى تدعيم الحقوق، قام د. حسن بإنشاء نقابة تخص بنك التسليف، على عاتقه، وفى منزل والده، وكان عمره آنذاك حوالى ستة وعشرين عاماً.. وقد عرضه ذلك للمساءلة من رئيس مجلس إدارة البنك (الشيشينى).. ولكنه ثبت أمامه فى شجاعة منقطعة النظير، وحكمة ودراية بالقوانين، ودافع عن موقفه، وفنّد دوافعه فى ذلك، وأنه ما تصرف إلا فى إطار القانون الذى صدر.. وهكذا كانت تجارب الحياة تؤهله شيئاً فشيئاً للمناصب الهامة التى سيتولاها، حيث سيدافع وقتها عن حق أمة بأسرها وليس قطاع وظيفى فقط.

- **من عام ١٩٤٥-١٩٥٢:** اختير للعمل فى **وزارة التموين** بناء على خبرته وكفاءته، لأن هذا الوقت كان فيه الحرب العالمية، ومن يعمل فى تلك الوزارة لابد أن يكون عنده فكرة عن أعمال البنوك، لأنه سيتولى عمليات استيراد لصالح الدولة.. كما تعين **مدير الإنتاج والتفتيش للغزل والمنسوجات**. وفى هذه الفترة أيضاً وفقه الله لاختيار شريكة حياته، زوجة صالحة تعينه على أمر دينه ودنياه، خاضا معاً الحياة بحلوها ومرها، فما زادتهما تجارب الحياة إلا نضجاً وصلابة، وقرباً من ربهما.. رزقه الله منها بالذرية الصالحة: أسامة - سوسن - منى - نادية.. فسهرت على رعايتهم وتنشئتهم، التنشئة التى تتفق مع ما حباهما الله، هى وزوجها، من إيمان وتقوى وورع، وتطلع إلى المثل العليا، والمبادئ السامية.

- **فى الفترة من ١٩٥٢-١٩٩٥:** صاحب تلك الفترة قيام الثورة، وإنشاء وزارة الاقتصاد.. تولى فيها أستاذنا الفاضل **قطاع التجارة الخارجية**.. ثم نقل ذلك القطاع إلى وزارة الخارجية.. فاشتغل **فى السلك التجارى، وأصبح سكرتيراً تجارياً فى أمريكا.**

وكان سفره إلى أمريكا تجربة حية: أمدته بكثير من المعلومات والخبرات وكانت فرصة لحصوله على أعلى وأحدث الدراسات الموجودة فى العالم، لأن أمريكا فى ذلك الوقت كانت على مستوى عال من التقدم التكنولوجى والإدارة والمعلومات.. ومع عقلية فذة مثل عقلية د. حسن عباس زكى، وروح تواقة إلى العلم والمعرفة، فقد اغترف من معين العلوم، ما وسعه الجهد، وهو جهد لا يُستهان به، وخاصة أن أستاذنا الفاضل يتمتع بهمة عالية، وعزيمة لا تكل ولا تلين.. فكان سفره إلى أمريكا فرصة خصبة أتاحها الله له، للإطلاع على الاتجاهات الفكرية العالمية، مما يؤهله للاضطلاع بمهامه الوظيفية والإيمانية فيما بعد، خير قيام وعلى أعلى مستوى.

ويحدثنا د. حسن عن تلك الفترة فيقول: **إن ثورة المعلومات التى يتحدث عنها العالم حالياً، قد رأيتها فى أمريكا.** عندما ذهبت إليها فى الخمسينات، حيث لم يكن هناك شىء اسمه أسرار فى المعلومات، فأى خبر كنت أقرأه أو أسمعه فى وسائل الإعلام، وأريد مزيداً من المعلومات حوله، أطلب الجهة المختصة فى التليفون، فأجد تقريراً مفصلاً عندى على مكتبى فى نفس اليوم.. كما كان هناك باستمرار: ندوات – حلقات بحث – نقد بنّاء – يصاحب كل ذلك حرية مطلقة فى الرأى، مما يثمر نضج العقول، وزيادة وعى النفوس، وإدراكها لحقائق الأمور..

كل هذا علمنى: كيف أفكر؟ كيف أحلل؟ كيف أدرس؟ كيف أصدر قراراً؟ وأتاح لى كل ذلك **كتابة تقارير موسعة عن القطن**، وخاصة أنه كان محصول مصر الرئيسى فى ذلك الوقت، وتتوقف عليه استراتيجيات كثيرة.. وكذلك **تقارير موسعة عن اليهود واتجاهاتهم**، وكيف أنهم عناصر متعددة، ولهم ملل عقائدية مختلفة، والتكلم معهم يحتاج إلى دراسة عميقة.

ولاشك أن تلك التقارير كانت السبب المباشر فى تعرف الرئيس عبد الناصر على د. حسن، حيث أعجب بما تنطوى عليه من دراسة شاملة، قائمة على التحليل العلمى، والبيانات الصادقة المنضبطة، والبحث عن الحقيقة بعيداً عن الهوى أو التعصب.. ولذلك فإن اختياره وزيراً فيما بعد، لم يكن عبثاً أو

مصادفة، إنما رغبة فى استغلال الطاقات الخلاقة، التى يتمتع بها هذا العالم الموسوعة المؤمن، الذى يترجم إيمانه فعالية وحركة مثمرة فى الحياة.

- **الفترة ١٩٥٥-١٩٥٦: أراد الرئيس عبد الناصر إعادة فتح بورصة القطن والأوراق المالية.** بعدما أغلقت أيام الوفد، نتيجة المضاربات التى أدت إلى خراب كثير من البيوت، وإحداث هزات عنيفة فى الاقتصاد القومى.

ورشح الدكتور حسن عباس زكى لهذا المنصب الخطير، الذى كان يعتبر من أعلى وأرفع المناصب وقتها.. وقد أهله للنجاح فى هذا الميدان تجربته فى أول السلك الوظيفى، فى بورصة مينا البصل، بالإضافة إلى خبرته العميقة التى اكتسبها فى أمريكا، هذا فضلاً عن ثراء شخصيته بالإيمان وآفاق المعرفة المتنوعة.

فبدأ بإعداد اللائحة بنفسه وبخط يده، واتجه إلى إعداد الموظفين، الإعداد اللائق لتلك المهمة الحرجة.. فاختار عشرين شخصاً من الأكفاء، وذهب بهم فى بعثة إلى ليفربول ونيويورك، للاتفاق على عمليات الموازنة بين الأسعار، وتعلم التحويلات النقدية، وكل العمليات الخاصة بالنقد. وذلك لأن عقيدته وموقعه فى قمة المسئولية، تفرضان عليه إتقان العمل والإخلاص فيه إلى أبعد مدى.. ساعده على ذلك احتكاكه بالحضارة الحديثة فى أمريكا، وكيف تعد لكل أمر عدته من كل الوجوه، وعلى أعلى المستويات وأحدثها وأرقاها.

- **من عام ١٩٥٦-١٩٥٧: فى هذه الفترة تم تعيين د. حسن عباس زكى: مدير عام النقد** (تبع وزارة الاقتصاد).

وهذه الفترة بلاشك تعتبر فترة عصيبة على البلاد، حيث مرت بظروف كثيرة، تحتاج منا أن ندرسها بعمق، لأن التاريخ مدرسة حكيمة كما يقول عالمنا الفاضل د. حسن، هذه المدرسة تعلمنا الكثير فى مواجهة المشكلات التى تصادفنا، وتعلمنا الحكم على السياسات التى اتخذت وجوهرها، والفكر الذى وراءها، وهل كانت سياسات سليمة تناسب مقتضى الحال أم لا؟

فى هذه الفترة: كانت وزارة الاقتصاد لها سياسة تبع الثورة وهى: العمل على زيادة التنمية، وتحسين التوزيع، وهذا يتطلب زيادة الدخل، والمحافظة على

الاستقرار الاقتصادى.. وكل تلك السياسات تحتاج إلى نقود، فى حين أن مدخرات المصريين فى أيدى بنوك أجنبية، لا تساهم فى الاستثمارات، ولا حتى تمويل محصول القطن الرئيسى، كذلك تفرض على المستورد الاستيراد من الدولة الأم، بصرف النظر عن الأصلح أو الأرخص.

ولذلك وجدت الحكومة: **أنه ليس أمامها إلا تمصير البنوك ووضع الحراسة عليها**.. وكان د. حسن حارساً على أكبر ثلاثة بنوك أجنبية عاملة فى مصر وهى: بنك إيونيان.. بنك واتومان.. وبنك كريدى ليونيه.

ومن يتعرف على الأحداث التى مرت بها البلاد فى ذلك الوقت، يوقن بعظمة الدور الذى قام به عالمنا الفاضل، خلال تلك الفترة الحرجة التى مرت بها مصر.. بل لن نكون مبالغين، إذا قلنا: إن تولى د. حسن مدير عام النقد فى ذلك الوقت كان نوعاً من الرحمة الإلهية، التى أنعم بها الله على البلاد، لأنه لم يكن كفاءة فقط، بل كفاءة وصدق مع الله، وإخلاص النية بأنه مع الله، وأن الله يراه، فإن لم نكن نراه فهو يرانا.. وتلك هى مرتبة الإحسان التى يسعى إليها جاهداً منذ نعومة أظفاره.

فما هى الأحداث التى مرت بها البلاد، وما هو الدور الذى قام به د. حسن فى خضم تلك الأحداث، ويسجله له التاريخ بكل فخر واعتزاز؟

هذا ما سوف نستعرضه فيما يلى:

أحداث عظام أدت إلى ندرة النقد فى البلاد:

فى ٢٠ يوليو ١٩٥٦: سحبت أمريكا عرضها الخاص بتمويل السد العالى.. مما فرض على مصر أن تفكر جدياً فى توفير مصدر تمويلى آخر.

٢٦ يوليو ١٩٥٦: أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس، مما أثار جنون الغرب، فأعلنت إنجلترا تجميد أرصدة مصر الإسترلينية، تجميداً تاماً فى ٢٩ يوليو، ثم أعلنت تجميد الأرصدة الدولارية فى ٣٠ يوليو.

أول أغسطس ١٩٦٥: أعلنت روسيا عن استعدادها لتمويل السد العالى.. وبدأت

مصر فى تسليح نفسها، عن طريق تشيكوسلوفاكيا.. وهذا مما زاد حرارة غضب الغرب على مصر.. ورغم أن إنجلترا وفرنسا أعلنتا أنهما لن يستخدمان القوة ضد مصر، إلا أنهما فى ٢ أغسطس ١٩٥٦ طلبا من رعاياهم مغادرة مصر.

فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٦: هاجم الجيش الإسرائيلى الكونتيلا.. وفى ٣٠ أكتوبر: وجهت إنجلترا وفرنسا إنذاراً إلى مصر، حتى تسحب قواتها إلى خط معين، ليتمكنا من احتلال قناة السويس تحت حجة إدارتها.. ولما كان هذا طلب غير معقول، فقد رفضت مصر الإنذار فى ٣١ أكتوبر.

٣١ أكتوبر ١٩٦٥: فرنسا وإنجلترا تهاجمان مصر، فى نفس اليوم الذى رفضت فيه الإنذار، وفى نفس الوقت استمرت إسرائيل فى عدوانها على سيناء.. قدم همرشولد، سكرتير عام الأمم المتحدة استقالته، احتجاجاً على ما حدث، ولكن عبد الناصر طلب منه البقاء، لأن استقالته لن تجدى فى مثل هذه الظروف.

٢ نوفمبر ١٩٥٦: تعطيل الملاحة فى القناة، بسبب إغراق سفينة فيها، قامت مصر بهذا العمل، لتوقظ العالم المتفرج بسلبية على الأحداث، ولن يستيقظ إلا عندما تتوقف مصالحه، بتوقف المرور فى القناة.. ومن الحركات الإيجابية أيضاً فى هذا الوقت: استقالة آنتونى ناتنج احتجاجاً على العدوان.. وقيام العمال العرب بنسف أنابيب البترول.. ومنعت سوريا وليبيا والبحرين والسعودية البترول عن الدول الغربية.

٤ نوفمبر ١٩٥٦: قرار مجلس الأمن بوقف العدوان، ولكنه استمر بوحشية فى بورسعيد، ولذلك استمر جهاد وصمود شعب بورسعيد ضد العدوان.

٤ ديسمبر ١٩٥٦: بدء انسحاب القوات البريطانية والفرنسية، بعد حوالى شهر من العدوان، ثم بدء انسحاب القوات الإسرائيلية.

٩ يناير ١٩٦٧: آنتونى إيدن يستقيل بعد ضبط النفس، وبدء اتخاذ الإجراءات المناسبة.

١٣ يناير ١٩٥٧: صدور قرارات تتلاءم مع تلك الأحداث وهى: إنشاء المؤسسة الاقتصادية، والمجلس القومى، ومجلس التخطيط، ومجلس الإنتاج، وإجراءات اقتصادية أخرى.

٩ إبريل ١٩٥٧: تطهير القناة واستئناف الملاحة.

١٨ مايو ١٩٥٧: الإعداد لانتخابات أول مجلس أمة.. وتكليف د. حسن بالاستقالة، وترشيح نفسه فى السيدة زينب.. ورغم أن المرشحين أمامه كانوا ٣١ مرشح، إلا أنه صدر قرار من رئيس الجمهورية بشطب ٣١ مرشح وقرار إقفال الدوائر على أعضاء مجلس الثورة، وعدد محدود جداً من المدنيين، كان د. حسن عباس زكى واحداً منهم.. وفى **٢٢ يوليو ١٩٥٧:** تم افتتاح أول مجلس أمة.

١٩ يوليو ١٩٥٧: تمصير البورصة، وتحويل البنك الأهلى إلى بنك مركزى.

تلك كانت نظرة سريعة على الأحداث العصيبة التى مرت بالبلاد، أثناء تولى د. حسن مهمة "مدير عام النقد".. وهنا يثور السؤال التالى:

ما هى جهود د. حسن عباس زكى لتوفير النقد فى مصر خلال تلك الفترة الحرجة؟

يرى د. حسن أنه بالعزيمة يستطيع الإنسان مواجهة كل الصعاب، وقد ساعده على ذلك أن الله وهبه قلباً تقياً وعقلاً ذكياً: فهو يحب التركيز فى الموضوع الذى يدرسه، بحيث يكون خالياً عن الوجود كله، إلا فى هذا الموضوع: فهو يقرأ بسرعة، ويفكر بسرعة، ويحل المشكلة بدون شك أو ارتباك أو تردد.. وهكذا يمكنه أن يستفيد من كل ثانية فى حياته.. كما تقول نظرية أنيشتاين: إن الزمن نسبى، والإنسان لا يعيش فى الزمن، ولكن الزمن يعيش فيه.. فاستطاع د. حسن أن يطوى الزمن، ويوفر الأموال اللازمة للتمويل المطلوب لمشروعات الدولة: بأن يخلق وسائل دفع، ووسائل تمويل يمكن بها مواجهة تجميد الأرصدة، بعد تأميم قناة السويس، ومواجهة أعباء ونفقات العدوان الثلاثى، التى شكلت عبئاً كبيراً على ميزانية الدولة، واستنزاف مواردها.. وتمثلت تلك الوسائل فيما يلى:

- **عمل نظام Account A & B:** هدفه خلق جنيه مصرى فى الخارج.. بحيث المستورد يأخذ خصم عليه، ومن يستورد قطن أكثر، يأخذ خصم أكبر.. وذلك حتى يمكننا تصدير القطن بأسعار معقولة.

- **فتح التعامل بالجنيه المصرى**: بحيث خلق للجنيه المصرى سعر، يجعله عملة دولية.. فمن يريد أن يشترى قطن، يشتريه بالجنيه المصرى، وكان يسافر د. حسن بنفسه إلى الخارج سراً، ليخلق تفاعل وإقبال على الجنيه المصرى، فيعطى أمر لبنك بالشراء، وأمر لبنك آخر بالبيع (والأمرين من شخص واحد) وهذه مهارة اقتصادية، وفكرة ذكية، لخلق سعر للعملة. ويعتبر هذا تمويل لواردات تبادل.
- وكذلك **حقق نظام الاتفاق بالحسابات**: بالجنيه المصرى.
- ونجح فى الحصول على بعض **قروض من هيئات مالية عربية** (السعودية) نظراً لثقة العالم العربى فيه، وقدرته على خلق علاقات شخصية مع المسئولين.
- وحقق نجاحاً فى **مقابلته مع رئيس بنك التسويات الدولية**، أثناء البحث عن قروض للتغلب على مشكلة عدم توفر النقد الأجنبى، وذلك فى ١٨ مايو ١٩٥٧.. كذلك شرح ببراعة وحنكة، الظلم الذى تعرضت له مصر من إنجلترا، بعدم وصول البضائع المتفق عليها، رغم أنهم أخذوا الغطاء النقدى، وهدد بفضحهم عالمياً، لأن هذه قرصنة دولية.
- وأجرى مباحثات مصر فى روما، بشأن **تعويضاتها عن خسائر العدوان** وذلك فى ٢٢ مايو ١٩٥٧، ووقف ضد غرورهم وصلفهم، حيث بدأ الإنجليز بطلب تعويض عن الحملة، رغم أنهم هم المعتدون.. وتباحث معهم بعزة المؤمن الواثق بربه، وقد استؤنفت تلك المفاوضات فى ١٩ فبراير ١٩٥٨.. وآتت تلك المباحثات نتائجها فيما بعد.
- واستطاع **الاتفاق مع روسيا** فى ٢٢ يوليو ١٩٥٧ لتمويل التصنيع، والحصول على قروض للتسليح، وتوفير القمح للشعب.

هذا كان بعضاً من كل الجهود، التى بذلها الخبير الاقتصادى د. حسن عباس زكى فى سبيل توفير الأموال اللازمة، للحفاظ على كيان الدولة وسيادتها.. أما بقية الجهود، فهى تتمثل فى أنه كان القدوة المثلى، لكل العاملين معه، فى السعى الدءوب والإخلاص فى العمل، واستثمار الزمن لتحقيق أقصى استفادة ممكنة للدولة، وبذل

الجهد وتحمل مرارة المعاناة والألم بصدق توجه النية لله تعالى.

ومما يعيب الذين يسجلون التاريخ: أنهم يهتمون في المقام الأول بسرد الأحداث، بصرف النظر عما وراء تلك الأحداث من مشاعر إنسانية متدفقة، تنبع من أهداف سامية، وعقيدة راقية، ولعل السبب في ذلك هو أن غالبية الناس لا تفهم إلا الماديات، لذلك يركز مؤرخو التاريخ على مجريات الأحداث، بدون النظر إلى الدوافع والأسباب، التي تحرك تلك الأحداث وتؤثر فيها.

ولذلك فإن النظر إلى الجهود التي بذلها د. حسن، بعيدا عن معرفة أعماق شخصيته ودوافعها الإيمانية، قد لا يبرز تلك الجهود في الصورة اللائقة بها. لأن عمق يقين عالمنا التقي الورع، وصفاء نفسه، منذ تفتحت براعمه الغضة في الحياة، أدى إلى تعدد جوانب شخصيته تعدداً مبهراً، يتسم بالثراء والعمق والإيجابية المثمرة، في كل اتجاهات الحياة.. فمن كان الله معه، كان له كل شيء..

في يناير – فبراير ١٩٥٨: يعتبر هذا العام تتويجاً لجهود الدكتور حسن عباس زكي، واعترافاً بكفاءته النادرة، وجهوده الدائبة، في توفير السيولة النقدية في فترة تعتبر من أحلك الفترات في تاريخ البلاد الاقتصادي.. ففي هذا العام تم الاتحاد بين مصر وسوريا، وتشكلت أول وزارة للخزانة في التشكيل الوزاري الجديد، الذي تم في ٦ مارس ١٩٥٨. وتم **تعيين د. حسن وزيراً للخزانة**، لأنه أظهر للقيادة قدرته الاقتصادية، على إيجاد الحلول الملائمة مهما تعقدت الظروف.

وفي خلال رئاسته لوزارة الخزانة: نجح في الجهود المبذولة للإفراج عن أرصدتنا الدولارية المجمدة، فأفرجت أمريكا عن أموال جمهورية مصر العربية في ٣٠ إبريل عام ١٩٥٨.

وفي ٧ أكتوبر ١٩٥٨: تشكلت وزارة أخرى جديدة، واختير د. حسن عباس زكي **وزيراً للاقتصاد**، ثم ضم إليه **وزارة التموين** بسبب مشاكل النقد، حيث لم يكن هناك أموال متوفرة، والحكومة تشعر بمسئولية أدبية واجتماعية، تجاه الشعب، الذي لم يشعر بتحسن في الظروف المعيشية التي ينشدها.

وفى هذه الفترة أيضا حقق الوزير الهمام كثيراً من المهام منها:

- بدء بناء السد العالى فى ٩ يناير ١٩٦٠، بعد جهود متواصلة لتحقيق التمويل اللازم لبناء هذا السد.
- النجاح فى الإفراج عن أرصدتنا الإسترلينية، والتى تبلغ حوالى ٩٠ مليون جنيه إسترلينى وذلك فى ١٦ يناير ١٩٥٩، بعد أن قاد حملة جديدة لطلب تعويضات عن العدوان، وطلب الإفراج عن الأرصدة المجمدة، منذ ٣١ ديسمبر ١٩٥٨: وكلل الله جهوده بالنجاح، حيث تم كذلك رفع الحراسة عن بعض الممتلكات.
- توفير الاعتمادات اللازمة لبدء الإرسال التليفزيونى فى ٢١ يوليو ١٩٦٠ وكذلك التمويل المطلوب لبناء مبنى الأهرام، بعد قانون تنظيم الصحافة حيث آلت ملكيتها للاتحاد القومى.. وهذه الاعتمادات تم توفيرها فى أصعب الظروف المالية، وبعد دراسات متعددة، اقتناعاً منه بأهمية الثقافة لزيادة وعى الشعوب، وفى نفس الوقت أهمية ترشيد الإنفاق، بضرورة صدور القرارات الاقتصادية بعد دراسات واعية.
- تأميم البنك البلجيكى وشركة الكهرباء والترام فى ١ ديسمبر ١٩٦٠.. كنوع من تحقيق سيادة الدولة، وهيمنتها على البنوك والمرافق الهامة.
- تم تعيينه رئيس بعثة الحج فى ١٧ مايو ١٩٦١، ليجمع بين التنظيم الاقتصادى لنفقات الحج، وبين الإشراف الدينى على الحجاج.
- صدر قرار بقصر الاستيراد على الشركات الحكومية والمصانع فى ٤ يوليو ١٩٦١ حتى تحقق الدولة أهدافها فى التنمية، وتحقيق الاستقرار الاقتصادى، بما يتلاءم مع مواردها الاقتصادية، لأن ترك الاستيراد مفتوحاً للجميع، يؤدى إلى استيراد كماليات، لا تتفق ومرحلة التقشف، التى تمر بها البلاد.
- نجح فى إقناع الرئيس عبد الناصر بإلغاء الفائدة على المزارعين، فى بنك التسليف الزراعى، بهدف تخفيف وطأة الربا على الفلاحين، وقد تم ذلك فعلاً فى ٢٢ يوليو ١٩٦١.. ولكنها تجربة لم تستمر سوى عام ونصف بسبب خروج د. حسن من الوزارة.

القرارات الاشتراكية والتأميم في يوليو ١٩٦١:

لقد صدرت بعض القرارات الاشتراكية فى ١٩ يوليو ١٩٦١، وتم تخصيص ٢٥٪ من الأرباح للعمال، وتمثيلهم فى مجلس الإدارة، وزيادة ضريبة الدخل.. ثم تبعها قرارات أخرى فى ٢٢ يوليو ١٩٦١ بتأميم كل البنوك وشركات التأمين و١٤٩ شركة، بالإضافة إلى تملك القطاع العام ٥٠٪ من ٩١ شركة.

كل تلك القرارات صدرت، والدكتور حسن عباس زكى وزيراً للاقتصاد والتموين.. وقد واجهت تلك القرارات نقداً كثيراً من الناس، سواء فى وقتها، أو حتى يومنا هذا..

فما هو موقف أستاذنا الفاضل من قرارات التأميم في مجموعها؟

يحدثنا د. حسن عن الفترة التى سبقت صدور القرارات الاشتراكية فيقول: طلب منى الرئيس عبد الناصر الحضور إليه فى كابينته فى المعمورة فى شهر يونيو من العام نفسه (١٩٦١) حيث كنت مع أسرتى أيضاً فى المعمورة.. وعرفت منه أنه يريد التأميم، بحجة أن الملك وزع أراضى على المقربين إليه، لم تكن من حقه، بل من حق الدولة.. وكذلك هناك رأسماليون كثيرون اغتنوا من عمليات المضاربة، أو التوافق مع البنوك الأجنبية فى عمليات استيراد وتصدير، ليست فى مصلحة الأمة..

وخشيت فى نفسى من موضوع التأميم هذا، لأننا كنا فى وحدة مع سوريا، ومعظم السوريين تجار، يحبون الأمان على أموالهم.. كما أن الاستيلاء على أموال الناس حرام.. فاقترحت عليه أن يفرض الزكاة على ممتلكات الناس بدلاً من التأميم.. فسألنى: وهل تكفى مواردها لمواجهة احتياجات الدولة؟ فقلت: ممكن إذا فرضت بطريقة تصاعدية على السنوات السابقة، لأن فقر الشعب يدل على حرمانه من الزكاة لسنين طوال. فوافق الرئيس، وطلب منى إعداد مذكرة بذلك، على أن أقابله فى اليوم التالى فى كابينته.

وفعلاً سهرت يومها، واجتهدت بكل طاقتى فى تجهيز المشروع الخاص بذلك.. وعندما توجهت إليه فى صباح الغد.. لم أجده فى كابينته، وأخبرنى حارسه أنه ينتظرنى فى كابينة عبد الحكيم عامر.. فتوجس قلبى خيفة وقتها (وقلب المؤمن

دليله).. فذهبت ووجدت الرئيس عبد الناصر، والمشير عبد الحكيم عامر، وعلى صبرى، وحلمى السعيد.. مجتمعين مع بعض. وعندما عرضت الموضوع، واجهونى بالرفض، وعدم اقتناعهم بفكرتى مطلقاً.. وصدرت القوانين الاشتراكية.

وفى رأيى: أن تلك القوانين جاءت لما تمر به البلاد من ظروف اقتصادية عسيرة، اقتضت أن يصدر أمر غير عادى.. أنا لا أبررها، ولكنى أشرح الظروف التى أدت لصدورها.. ورغم أن القطاع العام فى المجالات الكبيرة مطلوبة مثل البنوك – البترول.. لكى ينهض الاقتصاد، ويحقق النمو المطلوب.. إلا أن تجربة التأميم أخذت أوضاعاً كثيرة أساءت إليها، مما لو كانت اقتصرت على مظاهر عامة.. فقد وجدت محلات صغيرة تدخل تحت بند المصانع، فرفضت وضع حراسة عليها.

ومن الطريف الذى لا يفوتنا ذكره فى هذا المقام: أن د. حسن كان له أسهم تبلغ حوالى ٣٠ ألف جنيه، وكان يعرف موضوع التأميم قبلها، ولكنه رفض أن يبيعها، لأن قيمه تفرض عليه ذلك، فهو ينتسب إلى بيت النبوة فى جذوره العريقة.. والذى من مبادئه: أن يكونوا أول الجائعين إذا جاع الناس، وآخر من يأكل إذا شبع الناس.. ورغم أن جميع الوزراء سارعوا إلى بيع أسهمهم، إلا أنه تحلى بشيم الكرام، وكان اسمه رقم "٣" فيمن خضعوا للتأميم. والأعجب من ذلك أنه بعد صدور قانون العزل السياسى أوائل عام ١٩٦٢، وبعد مرور حوالى أربع سنوات، احتاج الرئيس عبد الناصر إلى خبرة د. حسن وكفاءته ليعينه فى الوزارة الجديدة فى ١٠ سبتمبر ١٩٦٦.. فاضطر الرئيس إلى إصدار مذكرة، تلحق بقانون العزل السياسى، تلغى القيود المفروضة على من أممت أموالهم، بحيث يمكنهم المشاركة فى العمل السياسى.. وذلك حتى يتسنى للدكتور حسن أن يعمل وزيراً.. وهكذا جعله الله رحمة وبركة على الذين فقدوا أموالهم، وكذلك فقدوا معها أى إمكانية فى ممارسة العمل السياسى..

١٦ أغسطس ١٩٦١: تم تشكيل وزارة جديدة للرئيس عبد الناصر، وخرج منها د. حسن بعد حركة التأميم الواسعة التى كان يعترض عليها، وفى نفس الوقت تعرضت أمواله أيضاً للتأميم.

ولكنه طُلب منه أن يتعاون مع الحكومة بشكل ما: فتم تعيينه رئيس شركة الإسكندرية للتأمين، **ثم رئيس مؤسسة التأمين**، مع احتفاظه برئاسة لجنة الخطة والميزانية بمجلس الشعب من ١٩٦٤.. واستمراره عضو مجلس الشعب من ١٩٥٦ حتى أواخر ١٩٧٠.

فى مايو ١٩٦٣: قامت حركة تأميم أخرى، حيث أممت جميع المطاحن ومضارب الأرز وشركات النقل والمقاولات.. كذلك تم تأميم ٢٢٨ شركة صناعية، وشركات الغزل والنسيج وغيرها.

وفى عام ١٩٦٤: تم تأميم شركات التجارة الخارجية.

١٠ سبتمبر ١٩٦٦: شكل الرئيس عبد الناصر وزارة جديدة برئاسة صدقى سليمان.. وكان د. حسن وقتها رئيس مؤسسة التأمين، يحضر ندوة فى القدس لجميع مؤسسات التأمين العربية.. فاستدعاه الرئيس من القدس ليدخل الوزارة، ويكون وزيراً للاقتصاد، لإنقاذ البلاد من الحالة المتردية التى وصلت إليها.. ونظراً لاحتياج عبد الناصر لكفاءة عالمنا الفاضل وخبرته، فقد أصدر المذكرة التى تلحق بقانون العزل السياسى، كما ذكرنا آنفاً، وحتى يتسنى للدكتور حسن أن يمارس مهامه كوزير، بعدما خضع لتأميم أمواله.

٥ يونيو ١٩٦٧: العدوان الإسرائيلى على مصر والأردن وسوريا.. ومساندة أمريكا لإسرائيل، مما اضطر مصر إلى قطع العلاقات مع أمريكا لمساندتها العدوان، وذلك فى ٦ يونيو ١٩٦٧.. وفى ٩ يونيو ١٩٦٧ تم وقف إطلاق النار. ولاشك أن ذلك العدوان ضاعف الظروف الحرجة التى تمر بها مصر، كما ضاعف المهام الجسام على الوزير الهمام د. حسن الذى يستعين على كل الصعاب بتقوى الله، ونور الإيمان.

١٩ يونيو ١٩٦٧: شكل الرئيس عبد الناصر وزارة جديدة برئاسته، لمواجهة المرحلة العصيبة التى تمر بها البلاد، فى ظل الاحتلال الإسرائيلى لسيناء حتى غرب القناة.. واستمر د. حسن عباس زكى وزيراً للاقتصاد، لأنه أكفأ من يقوم بالمهام العظام.

فما هى المهام التى قام بها د. حسن خلال العدوان الإسرائيلى على البلاد؟

- **فى ١٣ أغسطس ١٩٦٧**: عقد مؤتمر فى بغداد لوزراء الاقتصاد والمال والبترول العرب، لبحث موضوع وقف البترول، ووقف المرور فى قناة السويس.

وكان بحث هذين الموضوعين من الأهمية القصوى: لأن العالم كله ضج من توقف الملاحة فى القناة، ومن توقف ضخ أنابيب البترول، لدرجة كادت تؤدى إلى بعض التهديدات من الدول الكبرى، بالتدخل لإعادة فتح القناة، مما يعنى احتلالاً جديداً لأرضنا.

وكان **الموقف حرجاً** للغاية: فأيهما تستعمله مصر سلاحاً فى أيديها: إغلاق القناة؟ أم وقف البترول؟.. فاستعمال أيًا منهما يعنى توقف مصالح الطرف الآخر.. وكل من الطرفين (مصر أو الدول العربية) يحتاج إلى الدخل من هذين السلاحين، حيث يعتبر البترول مورداً أساسياً للشعوب المنتجة للبترول، وتعتبر رسوم القناة مورداً رئيسياً لمصر.

وكان رئيس المؤتمر فى ذلك الوقت وزير مالية المغرب.. فطلب عالمنا الفاضل الذى أتاه الله الحكمة والموعظة الحسنة، أن يعطوه الفرصة ليدير النقاش فى المؤتمر، وخاصة أن الموقف كان حرجاً ودقيقاً كما قلنا، ولم يكن ليجرؤ أى رئيس عربى أن يسمح بتدفق البترول، لأن الذى نسف أنابيب البترول أصلاً هم العمال.

واستطاع د. حسن بحكمته وصدقه وهدوئه، أن يعالج الموضوع كأحسن ما يكون، وتوصل مع الوزراء إلى إمكانية تدفق البترول، وفى نفس الوقت إعطاء مصر رسوم المرور، والتى كانت تبلغ وقتها حوالى ١١٠ مليون جنيه إسترلينى، على أن تقوم بذلك الدول الأربعة الأكثر إنتاجاً للبترول (السعودية – ليبيا – الكويت – السودان).

وكان نتيجة هذا المؤتمر البنّاء، الذى وفقّ الله فيه أستاذنا الفاضل غاية التوفيق،

وأجرى على يديه الخير الكثير لمصر: أن صدر قرار فـى ٢١ أغسطس ١٩٦٧ باستمرار إغلاق قناة السويس، إلى أن تزول آثار العدوان – وكذلك الاتفاق علـى عقد مؤتمر بالخرطوم، لرؤساء الدول الأربعة.

- **فى ٢٩ أغسطس ١٩٦٧:** تحقق إنجاز د. حسن عباس زكى الذى حققه فـى مؤتمر وزراء الاقتصاد والمال والبترول العرب فى بغداد.. وعقد مؤتمر القمة بالخرطوم، وحضر فيه وزيرنا الهمام.. وقرر الرؤساء تعويض مصر عن خسائرها الناتجة من إغلاق القناة، كنوع من مساندتها فى مواجهة العدوان.. وهذا الاتفاق يعتبر إنجازاً خطيراً لأستاذنا الفاضل.. حيث كان الرئيس عبد الناصر يشك حتى آخر لحظة فى إمكانية تنفيذ هذا الاتفاق، حتى أنه سأل د. حسن وهو فى الطائرة عن مدى جدية العرب فى قرارهم، فطمأنه د. حسن بأنه كلَّم الملك فيصل بنفسه، وهو فى مؤتمر بغداد.. فكان نجاح المؤتمر نجاحاً للدكتور الوزير الواثق بربه، يضاف إلى رصيد نجاحه على درب الحياة.
- كما نجح فى حل مشكلة اليمن فى ٣١ أغسطس ١٩٦٧ والتى كانت تؤثر تأثيراً سيئاً على الاقتصاد المصرى، والتى كادت تؤثر على اتفاق العرب لدفع تعويض رسوم مرور القناة لمصر، بل كادت تودى بعلاقات العرب بمصر. ولذلك فإن نجاح د. حسن فى مساعيه الدبلوماسية لحل تلك المشكلة، يعتبر من النقاط المضيئة فى تاريخ حياته، المشرق الوضَّاء بنور الإيمان، وما يعكسه هذا الإيمان على سلوكه من نضج واتزان.
- **فى أول سبتمبر ١٩٦٧:** عقد مؤتمر قمة آخر للدول العربية حضره د. حسن، وكانت نتائج هذا المؤتمر طيبة إلى حد ما، حيث قرر: عدم الاعتراف بإسرائيل، وعدم الصلح معها، وعدم التفاوض (اللاءات الثلاثة).. وأهمية هذا المؤتمر تنبع من التضامن العربى، وظهوره كقوة مؤثرة لها وزنها فى المجال الدولى، ويحسب حسابها.
- **فى ٢ فبراير ١٩٦٨:** حقق د. حسن إنجازاً سياسياً آخر، لاشك أنه يعكس آثاره على المجالات الاقتصادية فى مصر، وعلى فعالية تعاون الدول العربية مع مصر، ومدها بالقروض والمعاونات اللازمة لها فى حرب الاستنزاف مع العدو

الإسرائيلي.. ذلك الإنجاز هو التوسط بين الملك فيصل والرئيس عبد الناصر للحفاظ على عروبة الخليج.. وذلك لأن البحرين لم تكن قد أخذت استقلالها بعد، ولكي تأخذ استقلالها، لابد من عمل استفتاء عن طريق الأمم المتحدة.. والملك فيصل كانت له فكرة حكيمة وهي: أن الاستفتاء قد يسمح بدخول الشيعة، الذين يمثلون أكثر من ٥٠٪ وينتمون في ولائهم لإيران.. فطلب من الأمم المتحدة عمل استفتاء عن طريق العينة (وهذا يسهل التحكم فيه).. ولكن الأمم المتحدة ربطت الموافقة على هذا بموافقة عبد الناصر، نظراً لشعبيته وقوته في العالم العربي.. وهنا كان دور وزيرنا اليقظ د. حسن، في إقناع الرئيس عبد الناصر بذلك، مما كان له آثاره الإيجابية على استقلال البحرين، والحفاظ على عروبتها، وفي نفس الوقت تدعيم رابطة التعاون بين مصر والسعودية، في مرحلة كانت مصر أشد ما تكون احتياجا إلى ذلك لمواجهة أعباء الوجود الإسرائيلي على أرضها ونفقاته، التي لا تقدر عليها مصر وحدها.

- **في ٢٠ مارس ١٩٦٨:** شكل الرئيس عبد الناصر وزارة جديدة، واختار أيضاً د. حسن في نفس موقعه الوزاري، نظراً لكفاءته التي تعلن عن نفسها يوماً بعد يوم، ولقدرته على مواجهة التحديات التي تعيشها البلاد: بأسلوبه الموضوعي في العمل، وطريقته الفذة في التفكير، ومعالجته العميقة للموضوعات، وعلاقاته الشخصية مع بعض زعماء الدول العربية، والتي تساهم مساهمة إيجابية في تحقيق المصالح الوطنية.
- **في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩:** عقد مؤتمر القمة العربي الكبير في الرباط لبحث التسلح والمسائل المالية، وكان على مستوى الرؤساء فقط، ولكن الرئيس عبد الناصر استأذن في حضور د. حسن معه، لشرح النواحي الاقتصادية التي تحتاج مصر إلى المعونة فيها.

وكان الغرض من هذا المؤتمر هو: تبصير العرب بالحالة الحاضرة، ليقف العرب يداً واحدة في مواجهة إسرائيل.. حيث دعا إلى هذا المؤتمر الملك الحسن ملك المغرب، لحل مشكلة العرب مع الغرب، وحل مشكلة مصر مع إسرائيل.

وعرض عبد الناصر القضية بوضوح رافعاً شعار: ما أخذ بالقوة، لا يسترد إلا

بالقوة.. وأعلن أنه مستعد أن يقدم مليون أو مليون ونصف جندى كلهم من مصر، للدفاع عن قضية الأمة العربية.. أما بالنسبة للأموال، فقد قال لهم: أنتم جميعاً تعرفون ظروف مصر، ومع ذلك سندفع ما نقدر عليه. وشوفوا العرب تقدر تدفع كام.

أما بالنسبة للسلاح: فطلب منهم جمع رؤساء أركان حرب، لوضع الاستراتيجية الملائمة للتسليح.

ويشرح د. حسن وقائع المؤتمر فيقول:

للأسف: فإن الملوك والرؤساء العرب، لفوا وداروا حول العملية، واقترحوا أن يحيلوا الموضوع إلى رؤساء أركان حرب.. فغضب عبد الناصر غضباً شديداً، وانسحب فانسحبت معه، وجرى وراءه الملك الحسن.. ولكنه لم ينظر لأحد، فدخل عربته متجهاً إلى الفيلا الخاصة به، وكنت معه أنا والصحفى حسنين هيكل.. وبعد دخولنا بحوالى عشر دقائق، لحق بنا الملك الحسن.. وتوسطنا جميعاً لإقناع الرئيس بالعودة إلى المؤتمر.. فقبل الرجوع، وأجريت محاولات لتحقيق بعض الاتفاق، ولكن لم يصلوا إلى المطلوب.

ومن هنا بدأت بعض المشاكل، حيث بدأ الاتفاق العربى يختل بعض الشىء، وعندما رجع عبد الناصر إلى مصر، صرّح بفشل هذا المؤتمر وكانت مرحلة متعبة للبلاد، احتاجت إلى مزيد من الجهد، ومزيد من العرق، ومزيد من المعاناة للجميع، رؤساء ومرءوسين.

وفاة عبد الناصر:

كانت وفاة عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ مرحلة تغيير كبيرة فى حياة عالمنا التقى الورع د. حسن عباس زكى.. إذ رأس السادات الجمهورية، وعين د. محمود فوزى رئيساً للوزارة، حيث أجرى بعض التعديلات فى النظام الاقتصادى، وعقد اجتماعاً لعرض مشروعه على الوزراء، ولكن د. حسن منعته ظروفه الصحية من حضور هذا الاجتماع.

وفى اجتماع مجلس الوزراء، حضر الرئيس السادات، باعتباره أول اجتماع يحضره وهو رئيس الجمهورية.. وعرض د. فوزى الآراء التى تم الاتفاق عليها فى اللجنة، التى سبقت اجتماع مجلس الوزراء.. ولكن د. حسن أبدى بعض الاعتراضات، لأنه لم يكن سبق له الحضور، وخبرته العريقة تحتم عليه الاعتراض حرصاً على مصلحة الوطن.

تلا ذلك تعديل الوزارة وخروج د. حسن منها، لأن الله كان يدخر له دوراً آخر، يتفق مع مكانته العلمية، وخبراته الاقتصادية، ونشاطه الدءوب، وحماسه الذى لا يفتر.. هذا الدور هو تدعيم الاقتصاد الوطنى فى أبو ظبى، وفى بعض البلاد العربية.. لأن المؤمن كالغيث، أينما وقع نفع، كما أنبأنا بذلك الحبيب المصطفى ﷺ. فالدكتور حسن كان بحق غيثاً، استفادت به الدول الظمأى للإصلاح.

دور خبيرنا الاقتصادى فى النهضة الاقتصادية فى بعض البلاد العربية:

فى أواخر ١٩٧٠: زار الشيخ زايد مصر، وطلب من الرئيس السادات أن يوافق على سفر د. حسن عباس زكى إلى أبو ظبى، لتحقيق النهضة الاقتصادية فيها.. فاستجاب السادات فوراً لذلك المطلب، لدور أبو ظبى المشرف فى مساندة مصر.. ولكنه يوجد قانون يحرم على أى وزير العمل فى أى دولة عربية، قبل مرور ٥ سنوات على خروجه من الوزارة، فطلب د. حسن من السادات أن يعطيه ترخيصاً بالعمل.. فقال له أنا أذنت لك فاذهب.. فذهب الخبير المحنك إلى قصر القبة، وكتب فى دفتر التشريفات: د. حسن عباس زكى يتقدم بخالص الشكر إلى السيد رئيس الجمهورية، لموافقته على العمل فى أبو ظبى.. ففهم الرئيس إصرار د. حسن على سلوك الطريق المستقيم دائماً (سواء مادياً أو معنوياً)، وأن هذا نوع من انتزاع التصريح الضمنى.. فأرسل له الترخيص.. وذهب إلى أبو ظبى لدعم اقتصادها الوطنى.

وتمثل ذلك الدعم فى تلك المجالات:

- إنشاء صندوق أبو ظبى للإنماء الاقتصادى العربى.

- المشاركة في إنشاء دولة الإمارات العربية بعد الاستقلال، والوزارات والتشريعات المطلوبة والمجالس الشعبية.
- إنشاء مؤسسة مالية تشرف على البنوك.
- المشاركة فى إنشاء شركة أبو ظبى الوطنية للبترول، وما يتبعها من شركات.

وهكذا استمرت جهوده البناءة حتى أواسط الثمانينات، أى ما يقرب من خمسة عشر عاماً، ينثر خبراته، كالدر المنثور، تخلب أبصار ذوى الألباب والعقول، فيلتفون حوله، ويعرفون له قدره، ويستفيدون من علمه، بما يحقق لهم الازدهار والرفاهية.

فهل اقتصر دوره على ذلك؟

بالطبع لا. لأن من يعرف د. حسن عن قرب، يعرف أنه شعلة حماس لا تنطفئ، وهمة لا تهدأ.. لأنه يردد بلسان الحال والمقال:

ما أُبينت لك العوالم إلا لتراها بعين من لا يراها
فارق عنها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاها

لذلك فإن همة عالمنا التقى الورع، تنبع من منابع غزيرة متدفقة، وتتجه إلى آفاق عالية سامية.

ففى أثناء عمله مستشاراً للشيخ زايد، طلب منه الرئيس جعفر النميرى أن يكون مستشاراً له فى جمهورية السودان.. فلم يرفض د. حسن مطلبه، فكان يذهب إلى السودان كل شهرين، فيقضى فيها أسبوعاً أو أسبوعين، حسب متطلبات الإصلاح، واحتياجات المشورة. ولاشك أن عمله فى هذه البلاد كان مصلحة لمصر، فى تحقيق تقارب وجهات النظر، وتحسين العلاقات السياسية والمالية بينها وبين مصر، مما أدى إلى تحقيق مساعدات كبيرة فى الإعداد للحرب عام ١٩٧٣.

وبعد: فهل بعد تلك الرحلة الشاقة المثمرة.. أخلد د. حسن إلى الراحة؟ هيهات.. هيهات.. فإن عالمنا الفاضل يقتفى أثر نبيه الحبيب ﷺ خطوة خطوة، ويتشرب كلماته معنى وروحاً وعملاً، كما تتشرب الزهرة الظمأى قطرات الندى وتتشوق إليها.. وهو يوقن يقيناً لا حدود له بقول الصادق المعصوم: إذا قامت

الساعة وفي يد أحكم فسيلة فليزرعها. أى أنه ليس في الإسلام إحالة للمعاش، بل عمل وجهاد حتى فى أحلك الظروف والأزمات.. وليس بعد قيام الساعة من معاناة وأهوال، ومع ذلك يحتم الإسلام إنجاز العمل وقتها.

من هذا المنطلق: فإن د. حسن يغتنم الساعات والأوقات، للمسارعة فى الخيرات.. لأن تلك من علامات دخول الإيمان فى القلب، وانشراح الصدر له، بحيث يحقق التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، بما يقرب إليها من قول أو عمل.

ونذكر هنا باختصار: المناصب التى يشغلها الآن، بعد رجوعه من رحلة عمران بعض الدول العربية، ونشاطه الدينى، والأوسمة والنياشين التى حصل عليها، واللجان والهيئات التى شارك فيها، والمؤتمرات والاجتماعات التى حضرها، والمؤلفات التى قام بإعدادها، والكتب التى أخرجها وقدم لها، وبذل الغالى والنفيس فى سبيل إصدارها، ونشر العلم الذى هو هواه ومبتغاه.. وكل ذلك من أجل أن نستكمل صورة تقريبية للمحة التاريخية، لذلك العملاق الشامخ.

اللجان والهيئات التى شارك فيها:

- رئيس لجنة المفاوضات مع الإنجليز عقب ١٩٥٦ لتحرير أرصدتنا.
- رئيس لجنة الخطة والميزانية بمجلس الشعب.
- رئيس لجنة الصناديق العربية.

المؤتمرات والاجتماعات التى حضرها أو مثل بلاده فيها:

- مؤتمر الدول النامية.
- اجتماعات صندوق النقد الدولى والبنك الدولى.
- اجتماعات محافظى البنوك المركزية.
- لجنة تقييم أعمال البنك الإسلامى.
- مؤتمرات نشر الوعى الإسلامى فى جمهورية مصر العربية والعالم الإسلامى.
- المؤتمر الدولى للاتحاد البرلمانى.

المؤلفات والبحوث العلمية المنشورة:

- نحو تنمية المجتمع العربى.
- انسياب الأموال العربية فى الخارج.
- اقتراح نظام نقدى عربى موحد.
- خلق أدوات ائتمان إسلامية.
- استثمار الأموال العربية فى الخارج.
- الدُرة الذكية فى الشمائل النبوية.
- طريق الغد.
- التحديات التى يواجهها العالم العربى.

كتب أخرجها وقدم لها:

- تفسير القرآن (لطائف الإشارات) للقشيرى.
- تفسير القرآن للنيسابورى.
- كتاب الأم للإمام الشافعى.

المناصب التى يشغلها الآن:

- رئيس مجلس إدارة بنك الشركة المصرفية العربية الدولية.
- نائب رئيس مجلس إدارة المصرف العربى الدولى.
- عضو مجلس إدارة البنك المركزى المصرى.
- عضو مجلس إدارة بنك الاستثمار القومى.
- رئيس مجلس إدارة الشركة العربية الدولية للفنادق.
- نائب رئيس شركة القاهرة للاستثمارات والتنمية.
- رئيس مجلس إدارة الشركة العربية الطبية.
- رئيس مجلس إدارة الشركة العالمية للتأجير التمويلى.

نشاطه الدينى:

- رئيس المجلس الأعلى لجمعيات الشبان المسلمين العالمية.

- رئيس المركز العالمى للتوثيق والتربية الإسلامية.
- رئيس رابطة أبناء المالية منذ عام ١٩٥٦ وحتى الآن.
- رئيس جمعية الشيخ القاضي ببنها للشئون الدينية.
- رئيس مجلس إدارة جمعية آباء وأبناء، للمعوقين ذهنيا.
- عضو بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.
- عضو المعهد العلمى.

الأوسمة والنياشين الحاصل عليها:

- وسام جمهورية مصر العربية من الدرجة الأولى.
- وسام النيلين (السودان) من الدرجة الأولى.
- وسام يوغوسلافيا ثالث.
- وسام الكونغو فارس.
- وسام رومانيا.
- وسام اليونان.
- وسام الصومال.

وفى نهاية تلك اللمحة التاريخية: نشعر أننا ما اقتربنا من تاريخ أستاذنا الحقيقى، إلا بمثل من اغترف غرفة بيده من بحر عميق الأغوار، متباعد الأطراف، أو كمن استضاء بشعاع من نور الشمس، وظنَّ أنه لمس الشمس..

- فكيف نستوعب فى لمحة عابرة تاريخ طويل، بارك الله فيه، وكان غنياً بالأحداث والكفاح، والآلام والمعاناة، والفرح بفضل الله ورحمته، فى انكشاف غمة كل أمر عسير.
- وكيف نسجل الفكر الناضج، والإيمان العميق، الذى يستوعب تلك الأحداث ويتصرف تجاهها بكل حكمة وروية، تنبع من التوجه الكلى لله؟!
- وكيف نسجل جهاده الشاق فى محراب التصوف طوال عمره، وبحثه الدءوب عن المعرفة من مصادرها المختلفة، عملاً بقول الرسول ﷺ: **«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها»**.
- وكيف نسجل حبه العميق لمشايخه، ووفاءه النادر لهم، حيث ينسى كل جاه من

منصب أو مال، ويصفى قلبه من كل أهواء أو شهوات، فيجلس بين أيديهم فى أدب جم وتواضع شديد، ليكون كفئاً لتلقى أنوار الرحمن، وفيوضات القرآن؟!

- وكيف نسجل نبضات قلبه وخشوعه وبكائه فى جوف الليل، حيث يتهجد بعيداً عن أعين الناس، لأن له فى النهار سبحاً طويلاً، ومشاغل كثيرة تخص مصلحة المسلمين، لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، كما أنبأنا بذلك الصادق المعصوم؟!
- وكيف نسجل ما يبذله من وقت وجهد ومال، فى أعمال البر المختلفة، والتى لا يتوانى لحظة فى تلبية ندائها، فى كل وقت وآن؟!
- وكيف نسجل سعيه المتواصل للحفاظ على التراث الفكرى من الاندثار والضياع، فيقوم بطبعه على نفقاته الخاصة، وأحيانا يتحمل مشقة السفر للبحث عن النسخ الناقصة، مهما تباعدت المسافات أو الأزمان؟!
- وكيف نسجل ما أنعم الله به عليه من أنوار، وفهم علوم لم تفهمها بعد أكثر الدول المتحضرة، لأنه يستقيها من النبى المختار؟!
- وكيف؟.. وكيف؟.. وكيف؟..

إنها حقاً لمهمة شاقة عسيرة.. ولكننا نعمل بالقاعدة الفقهية: "ما لا يدرك كله.. لا يترك كله".

فقد أخذنا من تاريخ عالمنا الفاضل ما تسمح به قدراتنا العقلية، وإمكانياتنا البشرية المحدودة.. ولا نملك فى النهاية إلا أن ندعو الله مخلصين له الدين: أن يبارك فى أمة محمد، وأن ينفعنا بعلوم وبركة العلماء العاملين المجتهدين فى أمور الدنيا والدين.. ونحمد الله أن وفقنا إلى معرفة هذا العالم المخلص الأمين.. ونشعر معه بنفحات قول الله العزيز الحكيم:

﴿وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف: ٦٨).

مفاهيم جديدة تغزو العالم

العولمة.. أين نحن منها؟

لماذا العولمة؟

نظراً لضعف عقيدة المسلمين حالياً، وانصرافهم عن الدين.. فقد أدى هذا إلى ضياع هويتهم، وتميع أصالتهم، وانقشاع بريق أفكارهم، لأنهم صاروا مبتوتي الصلة بجذور دينهم، وعراقة مبادئه، وسمو أهدافه.. ونتيجة لكل ذلك، فقد أصبحوا أرضاً خصبة لكل الأفكار والمفاهيم، التي يموج بها العالم، وتهدف بها الدول الكبرى إلى تحقيق مصلحتها، وزيادة تقدمها ورخائها، مستغلين بذلك حالة الغياب عن الوعى التى يعيش فيها المسلمون، رغم امتلاكهم كل مظاهر القوة المعنوية والمادية، ولكنهم غافلون عنها...

وفى خضم تلك التيارات الفكرية الرهيبة، القادمة من كل حدب وصوب، يقف المصلحون المخلصون، ينصحون الأمة، ويكشفون الغمة، حتى يبرءوا ذمتهم أمام الديَّان الذى لا يغفل ولا ينام، فيجاهدون قدر استطاعتهم لإزاحة الستار البرَّاق عن تلك المفاهيم المسمومة، التى تحمل شعارات عصرية تخدر العقول، وتجذب النفوس، ولكنها فى حقيقتها معاول هدم للأمم والشعوب.

ومن تلك المفاهيم التى تغزو عالمنا حديثاً: العولمة.

ومن هؤلاء الداعين إلى الله على بصيرة: أستاذنا الفاضل د. حسن عباس زكى.. فماذا قال لإزاحة الستار عن المقصود الحقيقى للعولمة؟ وما أبعادها الاقتصادية والثقافية على الأمة الإسلامية؟ وكيف نحمى أمتنا من أخطارها، ومن كل فكر دخيل، لا يحقق لنا ما ننشده من عزة وكرامة، والنهوض من كبوتنا التى أوقعتنا فى هوة التخلف المهين؟

هذا ما نعرضه فيما يلى[1]:

العولمة.. أسلوب حديث لفرض الهيمنة الغربية على العالم:

إن العولمة ما هى إلا صورة حديثة، ونتيجة طبيعية، للاستعمار الذى غزا ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، ونهب ثروات الدول المستعمرة، وأخذ منتجاتها الزراعية والصناعية والمنجمية وموادها الخام، بأبخس الأسعار، ولم يسمح لها بأن تستفيد من أى زيادة فى الأسعار على مدى عشرات السنين، وحكم هذه البلاد حكم العبيد، بل وأباد نسبة عالية من سكان أفريقيا، بإجبارهم على أن يكونوا عبيداً له.. واستطاع الاستعمار أن يوقف تقدم البلاد المستعمرة حضارياً وسياسياً واقتصادياً، فى الوقت الذى تقدمت به بلاده بأموال المستعمرات، وابتدعت واخترعت واستفادت من كل ذلك، نتيجة ابتزازها أموال وأرصدة البلاد المستعمرة.. **ثم ترك البلاد وهى خاوية على عروشها، مهلهلة خاسرة الجانب، مفقودة الهوية، خزائنها فارغة..** وتعليمها: إما مربوط بالدول المستعمرة، أو لم يُبن على قواعد أصيلة، ولا يشجع على التقدم.. ثم أصبح يسميها "البلاد المتخلفة".

واليوم، وبعد التقدم الرهيب الذى أحدثه الغرب، وبعد ثورة المعلومات والانترنت، وبعد التكتلات التى تسود العالم، والاندماجات التى تحدث بين أكبر الشركات والبنوك العالمية، والتى أصبح نفوذها يعم العالم عبر القارات والاتصالات والأقمار والتجسس، وخلق المشاكل فى الدول الفقيرة والنامية.. **كل هذا شجع الغرب وأثار دوافعه الكامنة إلى فرض سيطرته على العالم من خلال ذلك المفهوم المغرى الجذاب الذى يسمى: العولمة.**

وتلك العولمة التى يبشر بها الغرب، وتساعده وسائل الإعلام على جذب القلوب نحوها: تسعى إلى تحجيم دور الدولة فى العالم، وإبراز دور الشركات والبنوك العالمية، والتى تعمل عبر القارات لفرض هيمنتها، مستخدمة فى ذلك الأدوات التى زرعها الغرب مثل: مؤسسة التجارة العالمية (الجات) والبنك الدولى، وصندوق

(١) من محاضرة كان المفروض أن يلقيها د. حسن فى واشنطن خلال المؤتمر الإسلامى العالمى تحت رعاية المجلس الشرعى الإسلامى الأعلى فى أمريكا فى الفترة ٧-٩ أغسطس ١٩٩٨.

النقد، والتوسع في النشاط المعلوماتي والانترنت، وسلطانها على مجلس الأمن، والصحافة العالمية، وكل وسائل نقل المعلومات.

أي أن العولمة وسيلة لنشر أفكار الغرب، وبث قيمه، لصبغ العالم بالأسلوب الذي يمكنه من غزو العالم ثقافياً وسياسياً، وفرض مقوماته الاقتصادية وعاداته المعيشية، ليفرض على العالم سلعه وبضائعه وخدماته.. وبالتالي يحقق مزيداً من التقدم، ومزيداً من الرفاهية، ومزيداً من الاستعلاء على الدول المتخلفة مثلنا.. فكما يقولون: التقدم حركة تراكمية لأعلى، والتخلف حركة تراكمية لأسفل.. وهم يروجون هذه المقولة، لزيادة هوة اليأس في نفوسنا، وإماتة أي أمل لتحقيق نمونا والاعتزاز بديننا، الذي يعطينا الدفعة القوية، في الخروج من كل مهاوي اليأس النفسية وكل مهاوي التخلف المادية..

يساعدهم على ذلك حالة السكر التي تعيش فيها الشعوب الإسلامية: حيث تكتفي بأن تعيش في الماضي، وتحلم بما كان عليه المسلمون في عصر حضارة الإسلام، بدون أن تسعى بفاعلية في الحياة، تفرضها عليها دوافع الدين ومتطلبات العصر، وبدون أن تقف وقفة إيجابية، أمام التيارات الفكرية، التي تهدف إلى التحكم في العالم والسيطرة عليه، بعد غسل العقول، وتخليص القلوب من كل نور، يساعدها على الصمود في مواجهة تحديات الحياة، ومعرفة طريقها إلى رب الأنام..

نتائج العولمة على البلاد النامية:

إن العولمة نظام سيادي، أبعاده تتجاوز التجارة والمال والصناعة: فهو نظام يشمل المال والتسويق والتكنولوجيا والمعلومات، كما يشمل الثقافة والفكر، بل والتقاليد والعادات، وليس لأحد سلطة في بلده، عن منع هذه التيارات، أن تؤثر في حياته، وخاصة في غياب الوعي الديني، والاستمساك بالله، الذي يحمي الإنسان، أن تجرفه تيار المادية الرهيب.

ونظرة سريعة على بعض الأرقام تؤدى إلى معرفة: من هم الخاسرون فى العولمة؟

- هناك مليارات من البشر يعيشون بلا كهرباء، ومعظمهم تحت حد الفقر.. وهؤلاء يكون شغلهم الشاغل هو الحصول على لقمة العيش، مهما كان مصدرها، أو مهما كان ما يتنازلون عنه، من آدميتهم وكرامتهم فى سبيلها.
- يبلغ الناتج القومى الإجمالى لجميع الدول الصناعية عام ١٩٩٥: ٢١٠٠٠ مليار دولار ومتوسط دخل الفرد فيها: ١٦٠٠٠ دولار سنوياً.
- على حين يبلغ الناتج القومى الإجمالى لجميع الدول النامية عام ١٩٩٥: ٤٠٠٠ مليار دولار ومتوسط دخل الفرد فيها: ٩٦٥ دولار سنوياً.

وبمقارنة بسيطة: بين الناتج القومى، ودخل الفرد، فى كل من العالمين، يتبين لنا من صاحب السيادة؟ ومن المستفيد من العولمة؟.. حيث تسعى الدول الغنية إلى استعراض قوتها المادية، لمزيد من تحقيق العظمة والرفاهية، بفرض القواعد التى تحكم الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومظاهر ذلك ما يلى:

١- **التبادل التجارى:** الذى هو فى مصلحة الغرب، وفى غير مصلحة الدول النامية.. عن طريق استيراد المواد الخام بأقل الأسعار، وتصدير السلع الصناعية بأعلى الأسعار.. وتصدير رءوس الأموال إلى الدول النامية التى تربطها بالغرب اتفاقيات اقتصادية، حيث تحصر استفادة تلك الدول بالاستفادة بالتكنولوجيا الغربية، فى الدائرة التى تريدها، بما يحقق تنمية محدودة.. ثم فرض نظم تجارية ومالية واقتصادية، تمنع أى دولة من أن تكون حرة فى اتخاذ الإجراءات، التى تمكنها من زيادة نموها وصادراتها، والحصول على حصتها العادلة من التجارة الدولية.. أى أن تجعل الدول تابعة لها، ولا تسمح لها إلا بالنمو المحدود، الذى يحافظ على مستوى معيشة متدنى، وفى نفس الوقت يسمح لهذه الدول الفقيرة، بامتصاص ما تصدره إليها الدول الغربية، مع تمكينها من الاستدانة منها، لكى تظل تحت رحمتها دائماً، تدور فى الحلقة

المفرغة للفقر والتبعية.

٢- **تحجيم دور الدولة:** عن طريق التدخل فى الشئون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والسلوكية، بصرف النظر عن الحدود السياسية للدول. وذلك عن طريق ابتداع مؤسسات وشركات وبنوك عابرة للقارات، تمكن الغرب من تحقيق ذلك.. فتحل محل الحكومات: الشركات العملاقة الصناعية والتجارية العابرة للقارات، وكذلك البنوك العالمية وغيرها.. وإجبار دول العالم النامى أن يفتح بابه لهذه الشركات وللأفراد.. وذلك كله فى حدود مصلحة الغرب ولفرض سيطرته، وتنظيم القنوات الاقتصادية فى الدول النامية، بما يحقق أقصى منفعة غربية.

ومن هنا اختفى ما كان يُنادى به من حماية الصناعة، أو نقل التكنولوجيا باختيارنا، أو منع استيراد بعض السلع.. **وتم فرض أساليب الحياة تحت عنوان: حقوق الإنسان..** التى هى عبارة عن تفسير لمزاج القوى والاستثمار المباشر الذى يمارسه الغرب.. لا لإنعاش الاقتصاديات الوطنية، ولكن لفتح باب هيمنته، وتمكينه من ذلك.

ونتيجة لذلك: فمثلاً لا نقول على سلعة ما أنها صنعت فى مصر، أو فى الإمارات، حتى لو صنعت فيهما فعلاً.. فكل ما يكتب هو (صنع فورد أو مرسيدس أو IBM أو توشيبا.. أى ماركة الشركة المنتجة، وهذا يعنى استعلاء الشركة على الدولة، وسيادتها عليها.

٣- **بالنسبة للعولمة الثقافية:** فهو يعنى ما تلعبه وسائل الإرسال والبث العملاقة فى غسل الأدمغة، وتطبيع العقل الإسلامى للتفكير الغربى، وسلبه أساسيات التفكير الإيمانى، بتجفيف منابعه وجذوره.. ويأتى ذلك عن طريق وسائل الإذاعة، والأقمار الصناعية، والصحافة، والكتب المتنوعة، والسينما والمسرح.. وأثرها جميعاً على سلوك وتفكير المواطن.. فى الوقت الذى سلب فيه حق الدول فى المنع أو الاختيار إلى حد كبير، **تحت دعاوى الحرية، والانفتاح على الثقافة العصرية..** وكان من نتيجة تلك الإباحة: الجريمة وعدم

احترام قواعد السلوك العائلي، والخيال الضار الذي لا يحترم القيم والمبادئ، مما كاد يؤدى في النهاية إلى تفكك أواصر المجتمع، وانهيار العقد الاجتماعي. ووقوع شبابنا في براثن هذا الاخطبوط الخطير، الذي هو ضد ديننا وأخلاقنا وسلوكياتنا، بما يفقده الحصانة والمناعة للحفاظ على عقيدته، وقيمها الراقية، ومبادئها السامية.

وأعجب ما قرأت: هؤلاء الذين يعلقون على العولمة، ويرحبون بها، حيث عندهم جهل كبير بحقيقتها.. ومنهم من يقول أن من مميزاتها التوسع في الإطلاع على الإنتاج الثقافي للعالم، وهذا أمر غريب، فليس عندنا أى نقص في ذلك: فالعلوم والكتب والجرائد، مباحة في كل الدول العربية.. والنقص الحقيقي الذى عندنا هو في ثقافتنا الدينية.. بينما العولمة ثقافتها غربية مدنية.. ولذلك يجب على الكتاب أن ينادوا بعدم فتح الأبواب على مصراعيها، أمام رياح العولمة، قبل أن نحمي أنفسنا منها بيقظة شعوبنا، ورقى وعيهم، واتساع مداركهم الفكرية.. كما يجب ألا نستقي من أى منبع ثقافي، ما يتعارض مع أمور ديننا وثقافتنا الإسلامية.. أما ما يدعو إلى زيادة الإنتاج، وإيقاظ الهمم للكفاح في الحياة، وتحقيق التقدم والازدهار لشعوبنا، والرقي والسمو لأفكارنا.. فلا مانع منه إطلاقاً.

ولكن العولمة لا تهدف إلى رفع مكانة الدول النامية، بل جميع قيمها تصب في إطار فرض الهيمنة الغربية على شعوب العالم.. **فالعولمة هى تغريب العالم أجمع، وجعل شعوب الدول النامية شعوباً ماسخة لا هوية لها..** لذلك فعلينا جميعاً تبصير الرأى العام بما يحاك له.. وعلينا إعادة بناء ثقافتنا ذاتيا، دون الاعتماد على الآخرين، يشكلون عقول أبنائنا كما يريدون.. فثقافتنا هى هويتنا. فإذا لم تتمشى مع ديننا، فهذا معناه ضياع كياننا وكل حياتنا.

العولمة هى التحول الرأسمالي للإنسانية في ظل الهيمنة الغربية:

أولا: العولمة والتحركات النقدية العالمية:

إذا استعرضنا **الموقف النقدى العالمي:** لوجدنا كيف تحولت السياسة النقدية إلى سلاح خطير، لتحقيق الهيمنة الغربية على العالم، فحجم النقود المتحركة في العالم

ذهاباً وإياباً ، لهى ذات تأثير كبير جداً على اقتصاديات دول العالم.. وتأثيرها أكبر بكثير من الانسياب المالى والتجارى والاستثمارى.. ففى اليوم الواحد: تنساب النقود بحجم ما تنساب به الأموال اللازمة للتجارة والاستثمار خلال عام، بالبلايين من الدولارات، التى يمكن تحريكها من وإلى عملات أخرى، بمجرد الضغط على الأزرار.

فما أثر هذه التحركات النقدية على النواحى المالية والاقتصادية العالمية؟

بدراسة تلك التحركات النقدية، التى لا تخدم الوظيفة الاقتصادية: وُجد أنها تسير بطريقة لا يحكمها منطق أو تعقل، وتتأثر بالشائعات، والحوادث غير المتوقعة والمضاربات.. ومعظمها مصدرها المشتقات Derivatives والسوابق كثيرة للآثار السيئة لهذه التحركات النقدية.. منها:

- ما حدث فى أمريكا سنة ١٩٩٥: حينما اضطر الرئيس كلينتون إلى أن يتنازل عن مشروعه للصرف على الخطة، ويتبع سياسة توازن الميزانية.. ما أدى إلى انخفاض الدولار ٢٥٪ من قيمته (أى من ١٠٦ ين إلى ٨٠ ين) فى أسبوعين.
- وكذلك ما حدث للفرنك الفرنسى سنة ١٩٨١.. وما حدث للكرونا السويدية، والجنيه الإسترلينى، والليرة الإيطالية.
- وفى المكسيك: خسرت المكسيك سنة ١٩٩٥ نتيجة انخفاض عملتها البيزو Peso ما كسبته فى ست سنوات.

يبدو من كل هذا: أن هناك تغيرات شاملة فى النواحى المالية والاقتصادية، لا تنسجم مع ما كان يتم فى الماضى.. ومنها ما لم يتمكن العلماء من إيجاد تفسير لها: مثل انخفاض الدولار بالنسبة للين بعد سنة ١٩٨٥ إلى ٢٠٠ ين بعد أن كان ٢٣٠، ثم بعد ذلك إلى ٨٠ ين.. لماذا؟ لا تفسير لذلك حتى الآن.. ثم لماذا بالنسبة للين فقط؟ لم يتوقع أحد ذلك.. ثم لماذا ارتفعت صادرات اليابان إلى أمريكا، بالرغم من انخفاض سعر الدولار؟!

كل هذا ليس له تفسير اقتصادى، ولكنه نتيجة الحركات النقدية، التى لا يحكمها منطق ولا عقل.

ثانيا: العولمة واتجاهات التجارة الخارجية الدولية:

يلاحظ أن نظرية التجارة الخارجية الدولية تأخذ فى الاعتبار: أن الاستثمار يتبع التجارة.. ولكن الحقيقة حالياً أن التجارة تتبع الاستثمار.. فتحركات رؤوس الأموال الدولية، وليس تحركات السلع التجارية، هى التى أصبحت آلة عالم الاقتصاد.. وبالرغم من الزيادة الكبيرة فى سرعة حركات التجارة السلعية الدولية، إلا أن التجارة فى الخدمات تسير بسرعة أكبر.. سواء كانت الخدمات المالية، أو الخدمات الاستشارية والتأمين والمحاسبة وغيرها.. وقد كنا فى الماضى نتحدث عن أن الاقتصاد يقوم علي الطبيعة والعمل ورأس المال. ولكن علينا أن نضيف إلى ذلك: التكنولوجيا والتدريب.. فالتدريب يزيد الكفاءة الإنتاجية، ويعوض عن زيادة السلع، وذلك لأن العالم سيركز فى السنوات القادمة على الاستثمار، وليس التجارة أو حمايتها.

وهكذا فإذا كان هدف العولمة يختلف تبعاً لمفهوم كل دولة.. فإن الدول الكبرى تعنى بالعولمة: تدعيم مصلحتها، برفع الحواجز المقامة بين الدول وبعضها، لتيسير انسياب السلع والخدمات بين الدول، دون قيود ودون حدود.. لأن تلك الدول المسماة بالعظمى، تدرك جيداً أن لها اليد الطولى فى هذا المجال، لتفرض علينا إنتاجها، لتقدمها التكنولوجي، ولأنها لم تعط الفرصة الكافية للدول الأقل تقدماً، لكى تستكمل قدراتها الصناعية، وتقاوم المنافسة الغربية. كما أنها لم تمنح الدول النامية، الوقت الكافى لاستكمال مقوماتها، لتلحق بالركب التقدمى.

وما من شك أن العولمة لو سارت على هوى ما تريده الدول الغربية، واستكانت الدول النامية لهذا التيار، لفقدت تلك الدول كل الفرص المتاحة لها لتحقيق ما تصبو إليه من تقدم وعزة واعتماد على الذات.

مؤدى ما تقدم: أن العولمة هى التحول الرأسمالى العميق للإنسانية، فى ظل هيمنة الدول الغربية، وبقيادتها وتحت سيطرتها، فى ظل نظام عالمى غير متوازن، يعمل على تحويل كل شىء إلى سلعة.

ونعطى مثالاً اقتصادياً وصناعياً على ذلك: أن حجم المبيعات السنوية لشركة

جنرال موتورز: أكبر من الناتج القومى (G.N.P.) لكل من سويسرا والباكستان وجنوبى أفريقيا مجتمعين.. وأن حجم مبيعات شركة شل: أكبر من الناتج القومى لكل من إيران وفنزويلا وتركيا.

وهكذا: فإن العولمة نظام لم يأت نتيجة اتفاقيات أو قرارات من هيئات دولية، وإنما هو كالموضة التى تتخذ شكل أسلوب يفرضه من يملك القوة فى إطار معين، ويطرحه على المجتمع العالمى، مصحوباً بالتنفيذ عن طريق مؤسساته.. ولنا أن نقبله، أو نرفضه، أو نتعايش معه، تبعاً لقدراتنا وهمتنا.. فمن الخطأ أن نتصور أن مفهوم العولمة أصبح واقعاً علينا قبوله.. لأن هذا أمر لا أساس له، ولا يتقبله إلا الضعفاء ومسلوبى الإرادة.. وهو ما تحرمه علينا شريعتنا وثقافتنا وهويتنا..

أما كيف السبيل إلى تلك المواجهة؟ فهذا ما سنوضحه فى النقطة القادمة، بعون من الله وتوفيقه.

كيف نحمى أنفسنا من طوفان العولمة؟

نحن الآن نعيش فى وضع تكتلى ساد العالم: أمريكا والاتحاد الأمريكى اللاتينى من جهة، والاتحاد الأوروبى من جهة.. والصين وحدها قوة.. والهند بدأت تظهر للوجود.. والنمور الآسيوية، بالرغم مما حدث لها، بفعل الغرب، وسوء الإدارة الاقتصادية، وسوء السياسة المالية والمصرفية، والنقود الساخنة والمضاربات.. تعتبر رغم ذلك فى وضع تكتلى أيضاً.

وفى وسط هذا الخضم التكتلى: فإن المسلمين يحلمون بالماضى، ويعيشون على تراث الإسلام التاريخى الذى لم يشاركوا فيه. ودب التفتت والصراع والاختلاف فى الرأى بينهم، بدلاً عن التعاون لما فيه صلاح الجماعة.. مع العلم أن القيم الإسلامية، والثقافة الإسلامية الحقيقية، والتدين الصحيح، تفرض التفاهم فى الأصول الدينية ونبذ الخلافات الفرعية، وأن يكون المسلمون يداً واحدة لمواجهة جميع التحديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. لأن التراخى فى مواجهتها، يؤدى إلى دخول تلك التحديات عقر دارهم، بما يؤدى إلى زعزعة كيانهم، واجتثاث عقيدتهم من جذورها.

تفاعلات إيجابية تنتظر الدول الإسلامية:

- المطلوب من المسلمين هو: حماية أنفسهم من طوفان العولمة الرهيب، ولن يكون ذلك إلا **بالاتفاق والاقتناع بضرورة تكتلهم**، ليكونوا قوة لها وزنها، يمكنها اتخاذ إجراءات فعالة في المحافل الدولية والحياة العملية، أمام التكتلات الدولية، والأطماع المادية.. فعليهم فهم الموقف على حقيقته، واتحادهم، ودعم بعضهم بعضا، وتصحيح المفاهيم الدينية، وعدم الدخول في الجدال والفروع التي لا تمس جوهر الدين، والتركيز على التعاون على البر والتقوى ومصالح المسلمين.
- وعليهم **تكوين نوع من الوحدة الفكرية الاقتصادية**، لجمع الشمل، ودفع عجلة التنمية في الدول الإسلامية.. وما يساعدهم على ذلك: أن تلك الدول ذات قيم ومُثل واحدة، ولديها طاقات هائلة، بشرية ومنجمية وبترولية وسياحية وتجارية.. كما أن لديها مدخرات كبيرة، كلها موجودة خارج العالم الإسلامي.. ولديها مؤسسات كبيرة يجب دعمها، مثل البنك الإسلامي للتنمية في جدة وغيره..
- كذلك لابد من **خلق أدوات ومؤسسات للتعارف التجاري والمالي**، بين الدول الإسلامية، لتشجيع التجارة والاستثمار فيما بينها.
- وعلينا العمل على **تدعيم البنية الأساسية**، ووسائل الاتصال والنقل، والمشروعات المتعلقة بتوفير مصادر مياه جديدة، لتفادي الأزمة المتوقعة من ندرة الموارد المائية.. وكذلك التعاون في مجال الصناعات، التي تتسم بارتفاع حجمها، والتي تحتاج تعاوناً دولياً.. وأن تساعد الدول القادرة على استقدام التكنولوجيا، لتواكب التقدم العلمي الذي يعيشه العالم الغربي.
- وقد ثبت أن مدخل تحرير التجارة، ليس هو المدخل الأهم، لتحقيق استفادة حقيقية من كافة الدول الإسلامية مع بعضها البعض.. وأن المدخل الأكثر ملائمة للعالم الإسلامي، يتمثل في **التوسع في الاستثمارات المشتركة**.. لأن معظم واردات الدول الإسلامية، غير متاحة حالياً إلا من الدول الغربية، ولزيادة حجم التجارة البينية بين العالم الإسلامي، يجب التوسع في الاستثمار وزيادة الإنتاج.. من هنا تبدو أهمية التوسع في الاستثمارات المشتراة، سواء من جانب الحكومات، أو رجال الأعمال والقطاع الخاص.. وهذا أيضاً يؤدي إلى تخفيف عنصر

المخاطرة إلى حد كبير، كما يساعد على انسياب مئات البلايين من الدولارات من العالم الغربى، إلى الدول الإسلامية النامية، ويساعد على التوازن الدولى الاقتصادى.

- كلمة أخيرة أحب أن أقولها: **هى ضرورة التشبث بهويتنا**، وأن نضيف إليها، ولا ننسى القدوة والأسوة فى مجتمعنا، وأن نحمى حرية الكلمة والتعبير، بالتمسك بالثوابت فى الفكر الإسلامى.. فيجب ألا يخوض أى كاتب فيما لا يحسنه، ويركز على ما يختص به، وأن لا ينازع أهل الخبرة فيما لا علم له به، وأن يبتعد عن الإثارة فى كل مجال، وأن يبتعد عن التطرف الذى يؤدى إلى الفرقة والاختلاف والفتنة، وأن يبتعد عن التعدى على حرية وشخصية الآخرين، والقذف والمساس بأحوالهم الشخصية.

بهذا يمكن مواجهة القوى التى تحاول غزو العالم، مهما تخفَّت تحت مسميات مختلفة، ومهما بلغت حدتها وسطوتها..

قدرة الإسلام على مواجهة تحديات العصر:

يجب أن نعلم جميعاً علم اليقين: أن الإسلام بتعاليمه السمحة الوضاءة، قادر على أن يواجه كل المفاهيم، التى تحاول الهيمنة على العالم وسيادته، إذا استقرت تلك التعاليم فى صدور المؤمنين.

ولكن الملاحظ أن معالم الإيمان تكاد تنعدم وتتلاشى فى العصر الحاضر.. فالصلة بين الله والعالم تكاد تنقشع، بالرغم من بساطة مفهوم رسالة الإسلام، التى تنحصر فى الاستسلام والانقياد لله ﷻ.. أى التوحيد الخالص.

ولذلك وجدت العولمة مجالاً خصباً لترتع فيه، وتشكل نفوس وعقول الناس، بما يحقق مصالح الذين يروجون لها.. وهذا يفرض على القائمين بالدعوة إلى الله: أن يُقدم الإسلام برؤية جديدة، وينفذ إلى روحه ببصيرة نافذة، وعقل مستنير ومتفتح، ونظرة علمية، وقلب مفعم بالإيمان، ونور المعرفة الربانية، التى تشع على العقل، فيشع نوراً على حواس ومدارك ومشاعر الإنسان وثقافته، فنسير فى إطار الشرع (من قرآن وسنة).. فنجمع بذلك بين سعادة الدنيا والآخرة، ونحقق الخيرية على

الشعوب والأمم، بما يتلاءم مع عظمة إسلامنا، الذى ارتضاه الله لنا.

وإن من يتطلعون إلى الحضارة الغربية، انبهاراً بتقدمها العلمى: **فإن موقف الإسلام من العلم واضح جلى، لا يسمح لهم بالتقصير فى دينهم لأخذ علوم غيرهم**.. فأول كلمة نزلت فى الدستور الإسلامى هى "اقرأ" ثم تليها آيات لرفع شأن العلم، والدعوة إلى الاغتراف منه إلى أبعد مدى.. ونشأ عن ذلك حضارة إسلامية عارمة، ما لبثت أن أنارت الطريق للعالم كله، شرقه وغربه، شماله وجنوبه.

وسبب **عظمة الحضارة الإسلامية**: أنها نشأت باسم الله، ونبعت من ذات النفوس المؤمنة به.. ولهذا كان هدف العلم فى الإسلام إرضاء الله، وإسعاد الإنسانية.. ومعرفة الله، والقراءة فى الإسلام تجردت لله جلَّ شأنه **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾**.. فهى باسم الله لا باسم مصلحة شخصية، ولا غاية دنيوية، ولا باسم ملك، وإنما باسم الله.. **ولذلك فهى تعود فائدتها على الفرد والمجتمع والوطن والإنسانية**، فالمسلم يتكلم باسم الله، ويتحرك باسم الله، ويأكل باسم الله، ويعمل باسم الله. فإذا كانت الحياة كلها باسم الله، فلا مجال إذن للنفاق أو الكذب أو الغش، فى المجتمعات.. بما لا يشعر معه الإنسان بأى أمان مهما تعددت وسائل اللهو، أو وفدت علينا ثقافات.. ولن يحقق الإنسان حضارة متكاملة تشمل الحضارة المادية والمعنوية، إلا فى رحاب الإسلام، الذى يحول حياتنا كلها إلى عبادة: فالأنفاس والحركات والسكنات عبادة، والنوم عبادة، والزواج عبادة، والأكل والشرب والعمل عبادة.. وهذا هو معنى الدين.

أما **الحضارة الغربية**: فهى فى واقع الأمر حضارة مادية، خاوية من أى محتوى روحى أو معنوى.. وهى تُفرض على الدول: بالقوة العسكرية حيناً، والتجارية والاقتصادية حيناً آخر، أو بالمشاركة الدولية فى إنشاء مؤسسات دولية، تُشرع النظم التى تكفل للدول الأوربية والأمريكية فرض سيطرتها الاقتصادية على الدول المتخلفة فى نواحى الحياة المختلفة.

ومن أقوى عوامل فرض الحضارة الغربية الآن.. قوة المعلومات والانترنت، بما تشتمل عليه من قنوات فضائية ضخمة، ووكالات إخبارية ترصد دابة النملة،

وصحف عابرة للقارات. وكذلك العديد من الاتفاقيات الدولية، التى قننت تسهيل مهمة الهيمنة الغربية على بقية شعوب العالم، مثل الجات، والحد من الأسلحة النووية والبيولوجية، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى للتعمير.

وفى نهاية حديثنا نقرر:

أنه لا سبيل أمامنا الآن إلا رفض قيم العولمة، ومواجهة الجات، وعصر المعلومات.. وهذا لا يتم بكلام أو أمانى غير مترجمة إلى أفعال، أو مقالات فى الصحف.. بل ينبغى أن يكون بخلق مخططات ثقافية دينية وسياسية واجتماعية، ومخططات اقتصادية لإعادة بنائنا الذاتى، والحفاظ على كياننا وهويتنا العقائدية.. وأن نتعاون فى سبيل ذلك على الخير والسلام والبر والتقوى.. وأن تكون كل الشعوب الإسلامية يداً واحدة، لنبنى اقتصادنا، وندعم قيمنا الإيمانية، ونؤدى رسالتنا فى العالم للنهوض بالإنسان الذى خلقه الله، ليعرف ربه ويعبده، وينشر الخير والسلام، والحب والأمان.

ويكون لنا فى قول الله سبحانه وتعالى نبراساً يبدد ظلماتنا ويسدد خطواتنا على درب الحياة:

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ (المائدة-٢)

التقدم العلمي.. هل يلغي الاحتياج الديني؟

العلمانية.. مالنا وما علينا فيها

مفهوم العلمانية:

تعتبر الدعوة إلى العلمانية، من أخطر المفاهيم التى تغزونا، وتهدف إلى تقويض أركان الدعوة الإسلامية.. **والعلمانية مفهوم غربى تعنى: سيادة العلم وحده كطريق للتقدم الحضارى، وفصل العلم عن الدين..** وهى فكرة ظهرت فى الغرب، على أثر الأزمات التى أحدثها رجال الكنيسة، فى وجه النظريات العلمية، ثم سرت إلينا سريان النار فى الهشيم.

ورغم أن الإسلام يشجع العلوم، ولا يفرق بين الدين والعلم، **لأن العلم عند المسلمين بمعناه العام هو ثمرة الوحى والعقل:** فثمرة علوم الدين الوصول إلى الحياة الأبدية، وثمرة العلوم الأخرى الوصول إلى الحياة الدنيوية. نقول: رغم ذلك التزاوج الحيوى بين الدين والعلم فى الإسلام، إلا أن عدوى التفرقة بين الدين والعلم، انتقلت إلى العالم الإسلامى، نتيجة الغزو الثقافى، ومحاولة إبعاد العقيدة الدينية والتخلى عنها، بحجة إحلال العلم وحده بديلاً لها.

وقد تصدى علماء الإسلام لهذه الدعوى الخطيرة، بكل ما أوتوا من قوة وفكر، لأن تلك الدعوى تعنى اجتثاث جذور العقيدة الإسلامية، وبالتالى ترك المسلمين يعانون جفاف الخواء الروحى، لانعدام الصلة بجذور عقيدتهم.

ونحن هنا نعرض دور أستاذنا الفاضل فى جهاده المقدس، فى ساحة الادعاءات الفكرية، التى تحاول زعزعة أصول العقيدة السامية بإدخال مفاهيم تشتت عقول المسلمين، وتبعدهم عن نبع الفكر الناضج، والوحى الراقى.

وتتبين أهمية هذا الدور، عندما نعلم أنه تناول تلك القضية الحيوية فى محاضرة

ألقاها فى مؤتمر عالمى للمسلمين، بالولايات المتحدة الأمريكية[١]، التى تتيه فخراً بتقدمها العلمى، ولكن شعوبها تئن تحت وطأة الصراعات النفسية، وتتمنى من أعماق قلوبها أن تنجو من جحيم حياتها المعنوية، الذى يسبب لها ازدواجاً فى الشخصية.

فماذا قدم د. حسن عباس زكى لمواجهة تلك القضية الخطيرة، الشديدة الأثر على كيان العقيدة الإسلامية؟

بادئ ذى بدء: يعترف عالمنا الجليل بما حققه التقدم العلمى من إنجازات فيقول:

يسود العالم فى عصرنا الحاضر موجة من الإنتاج، لم يشهد لها مثيل منذ خلق الإنسان.. وأعنى بالإنتاج إنتاج العقول والقرائح، من اكتشافات واختراعات، وتقدم الصناعة والزراعة، واتساع طاقة الثروة البشرية فى كل المجالات، وتقريب الأبعاد بازدياد طرق المواصلات وتقدمها، وما وصلت إليه من إبداع مذهل، حتى حط الإنسان قدمه على القمر، مما لم يكن متصوراً إمكان حدوثه منذ سنوات قليلة.

وقد كشف للإنسان عن أبحاث عجيبة فى ميدان العلم، فوصل إلى طرائف فى عالم الكهرباء والمادة، والإشعاع والطب، والتقدم الآلى، وما أضافته ألوان الحضارة المختلفة على الإنسان من ترف ونعم، وما ألبسته من ثوب معيشى جديد. وقد أخضع الإنسان -بما أودعه الله جل شأنه فى عقله- الكثير من خفايا الطبيعة، وكشف عن كثير من أسرارها، ودانت له السيطرة على التصرف فى ممكناتها.. ولكنه مع كل ذلك، لم يخلق ذرة واحدة، إنما تصرف بأمر الله فيما هو بين يديه، وبما أودعه الله فى عقله من سر، فكان كل دوره هو استنطاق أسرار الله فى الكون، لتحقيق الخير للإنسانية جمعاء، بما يمكنها من معرفة ربها حق المعرفة، وعبادته حق العبادة.

(١) تلك المحاضرة القاها د. حسن عباس زكى من بحث بعنوان: " الإصلاح الدينى فى العصر الحديث ضرورة حتمية" قدمه للمؤتمر الذى انعقد فى لوس أنجلوس فى شهر أغسطس عام ١٩٩٥، تحت رعاية المجلس الشرعى الإسلامى الأعلى فى أمريكا.

وبعد هذا العرض الموجز لنتائج التقدم العلمي المذهلة.. يتساءل د. حسن:

هل حقق التقدم العلمي الرقي المطلوب للبشرية؟

ويجيب عن هذا التساؤل بنفسه قائلاً: كان يمكن أن يكون هذا التقدم العلمي رقياً أكيداً للبشرية، لو صحبه تقدم في إنسانية الإنسان، وإكرام الإنسان، وتدعيم الأخوة البشرية.. بل كان يمكن أن يكون هذا الرقي عظيماً، لو شمل التقدم الروحي للإنسان، والتقدم الخلقي للبشر، ونشر المحبة والعطف والود بين سائر الأجناس.. تلك المبادئ السامية، التي لا حياة كريمة على هذه الأرض بدونها. بل كان يمكن أن يكون هذا الرقي شاملاً ومطلوباً، لو عمل على حفظ التوازن الاجتماعي بين غرائز البشر وقواهم، وتوجيه هذه المعارف إلى داخل الإنسان وخيره وإسعاده.

ولكن هذا التقدم العارم كله كان تقدماً سطحياً، لأنه لم يلمس الإنسان، الذي هو نقطة دوائر الوجود.. بل **إنه انحط بإنسانية الإنسان، وهوى بها إلى أبشع من حياة الحيوان في الغابة**.. إن هذه الحضارة التي ينعم بها البشر ظاهراً، إن هي إلا قشور ظاهرة، أدت إلى تأخر حقيقي للإنسان، وضياع لقيمه ومقوماته الروحية، وخصائصه العليا، وضياع كبير في مبادئه الأخلاقية والأدبية، وإهدار للمروءة والعفة والأمانة والرحمة، التي يجب أن تسود أفراد المجتمع ككل، مما يجعل الحياة أكثر إشراقاً وأماناً وطمأنينة وترابطا بين الناس.

كيف ضاع الإنسان بدون الإيمان؟

ويبين أستاذنا الفاضل بكلمات تقطر أسى ومرارة، ما وصل إليه حال الإنسان، الذي اغتر بعلمه، وبعد عن منبع النور والحب والخير، فيقول:

- ما فائدة الإنسان من هذه الحضارة التي لم تجلب سوى الحروب، والخروج عن دائرة الكمال، وانهيار الأسرة، وهدم الكيان العائلي الذي هو دعامة أي مجتمع؟!
- وما فائدة الإنسان من المجتمعات التي انحرفت عن مبادئ قويمة، وأخلاق رفيعة؟ وما فائدة الإنسان أن يعيش في مجتمع مزعزع الأركان، متداعي الأساس، قد جعل الدين وراءه ظهرياً، وصرف نفسه عن مولاه، وجعل إلهه هواه؟!

- فكيف ينصرف الإنسان عن الهدف الذى من أجله خلق؟ وكيف يغفل عن أمور أراد الحق جل شأنه أن ينعم بها فيلفظها، بينما هى سر سعادته، وسبب وجوده؟ وما بال الديانات التى توالت على البشرية منذ خلق الله الإنسان على هذه الأرض، وقد كانت نبراساً له تنير له طريق الحياة والسلام والحب، وتبعث الطمأنينة فى قلبه، وتعينه فى وسط هذا الخضم الهائل من حياتنا الأرضية، وتهديه إلى الإيمان والتغلب على متاعب الحوادث وآلامها، وتبصره بحقيقة الوجود، والسبب فى كل موجود.
- أين منا الإيمان فى هذا المجتمع؟ أنسينا الله وهو خالقنا وواجدنا؟ أنسينا القديم المبدع؟ أنسينا أنه الخالق تبارك الله أحسن الخالقين؟ أنسينا أنه هو الشافى، ولا دواء يشفى بغير إرادته جل شأنه؟ أنسينا أنه هو المعطى ولا عطاء إلا منه؟ أنسينا أنه الضار والنافع؟ وأنه المغنى، وأنه مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؟ وأنه بيده الخير، يرفع به من يشاء، وهو على كل شيء قدير، يعلم ما فى الأرض والسماوات السبع، ولا يعزب عنه مثقال ذرة؟ وأنه يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء؟!
- ما بال الإنسان؟ وماذا دهاه؟ أنسى أنه سيموت؟ وأن هناك حياة فى القبر، وأنه سيحاسب فى قبره على ما عمل؟ وأن هناك حياة فى البرزخ؟ أنسى الإنسان أن هناك حساباً؟ أنسى يوم القيامة؟ أينبذ الجنة ويسعى إلى جهنم سعياً حثيثاً من حيث لا يدرى؟!
- لماذا طرح الإنسان مجده الروحى، وامتهن نفسه، وانحط بها إلى أسفل سافلين، واتجه إلى المادة، فعبدها وألهها، وجعلها هدفه ومرماه، فى هذه الحياة الدنيا؟!
- لماذا استسلم لسلطان المادة والمال، وطغيان المنصب، وعبوديته للحاكم؟ لماذا أضاع الدين، وأصبحت تعاليمه هباء منثورا؟ ولماذا أصبح رجال الدين ضعاف الحجة أمام الملحدين والمارقين، حتى انهارت تعاليم الدين وأصوله وحكمه، وآلت إلى مظاهر لا تجدى، وأصبحت كالرسوم، وخلعت عنها حقيقتها المتصلة بالله، خالق الكون ومنيره؟!

انحراف العلم عن أهدافه السامية:

ويرى د. حسن أن سبب فصل الدين عن العلم، هو انحراف العلم عن أهدافه السامية، وبالتالى لم يعد لصيق الصلة بالدين، الذى ينشد السمو فى الحياة كلها.. ويستنكر ذلك التحول المهين، بإخلاص المؤمنين الصادقين، الذين يعمر قلوبهم اليقين.. **فيقول:**

- لماذا انحرف العلم الذى كان ينير الطريق للإنسان فى حياته، فأصبح الخادم المخلص للمال، يخدم المصانع والمعامل، وآلة الحرب، والرفيق للطغاة أهل المنافع الذاتية، بما ينتجه من آلات مدمرة وأجهزة مخربة، وأشعة تحمل بين ثناياها عوامل الفناء الحقيقى على وجه الأرض؟!
- لماذا انحسر العلم وأصبح مبدداً لحرمة الأخلاق وكرامة الإنسانية، بخضوعه لمآرب الطغاة والظالمين، وعاملاً من عوامل الهدم ومجزرة للبشرية؟! لماذا حول الإنسان هذا التراث العلمى الضخم، إلى مجرد مادة خام أعدت لإشباع نهم وجشع الإنسان؟!
- أليس ذلك كله لأن الإنسان خرج عن النطاق الذى فرضه عليه خالقه، وأصبح يعيش فى تيه المدنية الحديثة؟! أليس ذلك كله لأن الإنسان ألغى قلبه، الذى كان يجب أن يشع على عقله نور الحق، ويحدد له الإطار الذى يجب ألا يخرج عنه؟!
- أليس ذلك كله لأننا طرحنا تراثنا الروحى، الذى هبط به الوحى إلى الأنبياء والمرسلين على مدى العصور، وأصبحنا نقتات من موائد الفلاسفة والعلماء؟!.

حقاً! إن الإنسانية بأسرها فى حاجة إلى تصحيح مسارها.. لتحقق السكينة والأمن لنفسها.

خطوات تصحيح المسار:

يجيب لنا د. حسن على السؤال عن كيفية تصحيح المسار -وهو السؤال الذى يشغل عقول المصلحين دوماً وأبد الدهر- فتأتى إجابته شافية كافية، فى نقاط محددة، تعتبر كل نقطة منها محور اجتهاد واسع، لجهود الساعين إلى الأخذ بيد الإنسانية

إلى الطريق القويم.. فيقول:

- إن الإنسان بحاجة إلى تعليم إنسانى جديد، يضع الأمور فى وضعها الصحيح: فلا ينبذ الدين، ولا يغتر بالعقل والعلم وحدهما، ولا يجعلهما يطغيان على كل شيء فى الوجود بلا حساب، وعليه أن يحيى علوم الدين ومعارفها.. مما يربط الإنسان بربه ويذكره بقيمه العليا، فيستضيء القلب بالنور الإلهى، الذى يشع على العقل، فيعمل الإنسان فى إطار محدد، ولا يخرج عما خلق له، وتعمل الحواس فى طاعة الله.. وهكذا تعود للإنسان خلافته الحقيقية، مما ينقذ الإنسانية، بتحقيق السمو الروحى، والأخوة الحقة والسلام والاطمئنان، وإعادة صلة الأرض بالسماء.
- وعلى الإنسان أن يضع المال وضعه الصحيح: فى اليد لا فى القلب.. ويخفف من وطأة سيادته على النفوس، ويرجعه إلى أصله ووظيفته، كخادم لا كسيد، يعين صاحبه على سلوك الحياة، كوسيلة لا كغاية ينسى قيمه ومبادئه من أجلها.
- وعليه أن يعيد للعلم رسالته السامية، كطريق للكشف عن العلل والقوانين الخفية، والظواهر الطبيعية، التى تزيده معرفة بربه، وخشية من عظمته، وبذلك يخلص العلم من الزيغ والتحيز والانحراف وخدمة الأهواء، التى تردى البشرية فى مهاوى الضلال.

فالعلم موضعه الصحيح: أنه إشعاع العقل، والعقل حادث، فليس له أن يتطاول على القديم، ولا أن يتدخل فيما وراء الطبيعة أو الروح، ولا أن يخرج عن حدوده، فيضل ويضلل، ويفسد الطريق أمام الإنسانية، لأن العقل مجاله عالم الملك، والقلب مجاله عالم الملكوت.

- إن إعادة صلة الإنسان بربه: ضرورة حتمية تفرضها حاجة الإنسان إلى العناية الإلهية.. فمن للإنسان غير ربه؟ ومن للأرض غير السماء؟ تتداركها إبان أزماتها، وترعاها من طور إلى آخر؟ ومن لنا من منقذ سوى مبدعنا وخالقنا وهادينا؟ ومن لهذا العقل الحادث يهديه إلى الصواب سوى ذلك الإلهام الروحى، والمدد السماوى، والشعاع الهابط إلى الأرض من رب العالمين؟ ومن لهذه البشرية المنحدرة من طغام المادة والطين سوى النور الهادى المبين؟ ومن لنا من

معين سوى كتاب الله وسنة نبيه الكريم؟

وبعد أن وضع د. حسن خطوات تصحيح مسار الإنسانية، لتستعيد أمنها واطمئنانها، اتجه إلى الإجابة على السؤال الذى يعتبر صلب الموضوع وهو:

هل البشرية فى احتياج حقيقى للتدين رغم التطور العلمى؟

ويجيب أستاذنا الفاضل على ذلك السؤال بقوله: **إن العلم فى محيط الحقل التجريبى لا يغنى عن العقيدة الدينية شيئاً**.. فالعلم وإن كان قد نجح فى الإجابة عن أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً، إلا أن الدين جواب لأسئلة أخرى.. فمهما حقق العلم من وسائل الراحة والمخترعات، وتيسير سبل الحياة، فإنه لا يرد على الأسئلة التى تقض مضاجع الإنسان، وتزلزل كيانه: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ ومتى؟ وكذلك فإن العلم لا يشفى الصدور نحو معرفة أسرار الحياة والموت، والخير والشر، والحب والكراهية و...

يقول د. محمد حسين: إن الدول لا تسود ولا تعلو بالحديد والنار، ولا بالمال، ولكنها تسود وتعلو بالخلق والتماسك.. وأعلى مصادر الخلق والتماسك، وأعمقها جذوراً وأدومها أثراً، هى الدين.. فهو الذى يجمع الناس على التراحم، ويربطهم بالخالق جل شأنه.. وها نحن نرى الدول الأوروبية، تعلوها مظاهر التدهور والانحلال، رغم أنها فى كامل مجدها الصناعى، ولا يعوزها المال، ولا تنقصها الآلات والمعارف الفنية، والعلوم العقلية، ولكن يعوزها الخلق والدين، الذى يحقق الترابط الاجتماعى، وحماية النفوس من الدمار المعنوى.

ويقول توينبى: أنه أثناء انحلال حضارة ما، ترتقى الأساليب المادية أثناء ذلك الانحلال، لأن الحس الفنى قد يمتص جميع الطاقات، فيصبح المجتمع عبداً لهذا الحس، بدلاً من أن يكون سيداً له.. **ويظهر نتيجة لذلك الفراغ الروحى، الذى هو أكبر الأخطار التى تهدد الحضارات دائماً**.. والفراغ الروحى فى الغرب قد فتح الباب أمام عبادة وثن اسمه الدولة، بدلاً من عبادة الله الواحد، كما أدى إلى استبدال إيديولوجيات من صنع المجتمع، كبدائل للدين الصحيح، نتيجة حالة اليأس الروحى التى يعيش فيها، بانصرافه عن الدين.. فأصبحت الإيديولوجية عقيدة، تأخذ طابع

الإيمان بها والدفاع عنها، مثل ما حدث بالنسبة للشيوعية والاشتراكية والديمقراطية و.. فأزمة المجتمع الغربي هي في جوهرها أزمة روحية، وليست مادية، تضطره أن يلتمس فتات الفلسفات كبدائل للدين الصحيح.. وهذا أبلغ رد أن الإنسان في أعماقه يحتاج أشد الاحتياج إلى التدين، مهما بلغ التطور العلمي أعلى مراحله.. بل على العكس فإن هذا الاحتياج يزيد مع زيادة التقدم العلمي، لشعور الإنسان بالغربة، وسط هذا العالم الذى يموج بتيارات وأحداث سريعة، تزيد وسائل الإعلام الحديثة من شدة الإحساس بها، فيزيد احتياج الإنسان إلى الشعور بالأمان، وسط هذا الخضم المادى المتلاطم الأمواج.. **ولن يجد هذا الأمن والأمان إلا فى الإيمان،** الذى يحقق له صفاء الروح، ونقاء السريرة، وكبح جماح النفس عن الشهوات، والإحساس بأنه ليس وحده فى الحياة، **بل له نقطة استناد واستمداد**، تفوق كل قوى الأرض، وهى قوة الله الواحد القهار، التى تمده بكل العون المادى والمعنوى، مهما تعاظمت عليه الخطوب، أو أحاطت به التحديات والصعاب.

لقد ثبت العجز عن تحقيق السعادة للبشرية، بالرغم من التقدم الحضارى المادى الآخذ بالألباب.. وأخطأت البشرية خطأً فاحشاً، حينما ظنت واهمة أنها تستطيع أن تستبدل بالرسل، العلماء والفلاسفة والأدباء، والمصلحين الاجتماعيين، وقادة السياسة والحروب.

وفى تحليل أسباب ذلك الفشل: يذكر الكسيس كاريل عوامل متعددة منها: أن الأطباء والمعلمين وعلماء الصحة لم يبلغوا هدفهم، لأنهم يعالجون خططاً تشتمل على جزء فقط من الحقيقة الإنسانية، ويرجع ذلك إلى تعقد ظاهرة الحياة نفسها.. ومن ثم حققت علوم الجماد تقدماً عظيماً، بينما بقيت علوم البشر فى حالة بدائية.. وحتى العلوم الإنسانية كالاجتماع والاقتصاد، فهى علوم افتراضية تخمينية.. ولم تفلح الأنظمة التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم، إلا فى تقديم مزيد من الضحايا، دون تحقيق الأهداف التى رسموها.. فمبادئ الثورة الفرنسية، وخيالات ماركس، تنطبق فقط على الرجال الجامدين.. أى على تشخيص نظرى للإنسان، دون معرفة حقيقته وجوهره.

ثم يقول كاريل: **إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً.. فالأمم التى بلغت**

فيها الحضارة أعظم نمو وتقدم، هى الأمم التى أخذت فى الضعف.. ويرى أن العلاج الوحيد الجائز هو معرفة أكثر عمقاً لأنفسنا.

ويتساءل د. حسن: ما الذى يمنع بنى الإنسان من الانقياد للرواد الوحيدين المختصين بفهم أعماق النفس البشرية، وهم الرسل والأنبياء –أطباء النفوس– وخاتمهم محمد ﷺ، الذى لم يكن نبياً فقط، بل رئيس دولة، وقائد جيش، وزوج، ومشرع، وقاضى؟!

فصل العلم عن الدين.. دعوى همجية تدعو إلى التخلف:

يرى عالمنا الجليل د. حسن عباس زكى: أن فصل العلم عن الدين، دعوى همجية، تهدف إلى ضرب الإيمان بالله، والدين بشكل عام، والإسلام خاصة، وإشاعة مفهوم الإلحاد والمادية والإباحية، باستبعاد آثار الدين عن مجالات الحياة، وحجب الشريعة عن الواقع الإنسانى، والتركيز على مبهرات المدنية الغربية تحت ستار التقدم العلمى.

والأخطر من ذلك: فإن تلك الدعوى تحمل فى مضمونها القضاء على إنسانية الإنسان، والرجوع به إلى عصور الظلمات، حيث الوحشية والهمجية واللا إنسانية، وبالتالى التخلف بمعناه الشامل.

لماذا؟

لأنهم يقتصرون فى اكتشاف حقائق الوجود، على العقل والحواس وحدهما.. وهى أدوات عاجزة، لا يزيد حجمها عن حجم ذرة على ساحل البحر، فهناك عوالم غيبية كثيرة، فوق طور العقل وقدرته، لا سبيل له إلى إدراك كنهها.

فالعقل ميدانه المسائل المادية الخالصة، كالهندسة والكيمياء وغيرها، من العلوم التى تختص بعالم الملك.. وبالتالى فهو ليس الأداة الصحيحة، لبحث جميع المسائل التى تختص بعالم الملكوت.

وهكذا فإن الدعوة إلى الاقتصار على العقل والحواس فى تحقيق التقدم العلمى دعوى متخلفة، معناها حرمان البشرية من نبع فياض يحقق الكمال الوجودى

للإنسان، وهذا النبع يستمد من أداة أخرى فوق العقل والحواس، وهى القلب.. تلك الأداة يجب أن ننميها، ونعطيها حقها فى التطور والنمو والانكشاف، حتى تحقق للنفس البشرية ما تنشده من سكينة وطمأنينة، مما لا يمكن للتقدم العلمى -مهما بلغ شأنه- أن يحققه، لأن النفس تدخل فى عالم الغيب، الذى لا يخضع لحاسة من الحواس، أو إدراك العقل.

ولا سبيل لنمو القلب وتطوره، لكى يحقق النتائج المبهرة، المرجوة منه فى كمال الإنسانية إلا بالتدين.. وهو الرضوخ لعقيدة تستمد من معين واحد، تعنى الالتزام بناموس أبدى مطلق، بذوره كامنة في كل نفس حية مدركة. والتدين لا يقوم فقط على طقوس ورموز، وإنما يقوم أساساً على صفاء الروح، ونقاء السريرة، والإخلاص للمعبود الحق إخلاصاً كاملاً، وكبح جماح النفس عن الشهوات.. فالتدين الحق يعنى: تقويم الأخلاق والمحبة والتواضع، والأمر بالعدل والإحسان، والتسامح مع الناس، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

وهكذا فإن الدين هو منار الإنسانية ومنقذها وهاديها، وهو الحقيقة المطلقة للإنسان. وأية دعوة تهدف إلى فصل الدين عن العلم، معناها فصل الروح عن الإنسان، وبالتالى ترك المجتمعات تعانى كل أمراض الخواء الروحى، وما يعنيه من العودة بها إلى عصور الظلمات الأولى.. وهذا بكل المقاييس جرم فى حق البشرية، لا يعدله أى جرم، مهما تسمى بمسميات أو تخفى تحت أقنعة براقة.

وبعد هذا العرض المقنع.. ينتقل بنا د. حسن إلى رحاب المعرفة الحقة، تلك المعرفة التى تحلق بالإنسانية إلى عنان السماء، **ليضيف لنا مزيداً من الحجج والبراهين، على بطلان دعوة "العلمانية"** وهى فصل العلم عن الدين، وليؤكد بالأدلة المنطقية على احتياج الإنسان إلى الإيمان، مهما تطورت العصور والأجيال.. لأن الإيمان يعنى الاطمئنان، وانشراح الصدور والجنان، ونضج أكثر للعقول، يساعدها على مزيد من اكتشاف أسرار الكون.. **لأن الإيمان يعنى نقطة استناد للإنسان. ونقطة استمداد** من خزائن العلوم الإلهية التى لا تنضب.

ولكى يصل بنا إلى تلك الحقيقة، فإنه يكلمنا عن مصادر المعرفة الإسلامية.

مصادر المعرفة فى الإسلام: (العقل والحس والتقوى):

إن الإسلام يعتبر أن المعرفة الناتجة عن العقل والحس فقط، هى معرفة ناقصة مبتورة.. **فلابد من التقوى معهما (والتى محلها القلب المؤمن) لتكون المعرفة كاملة**، تحقق للإنسان كل ما ينشده من معانى الكمال. ولذلك قال الحق جلَّ وعلا: **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾** (البقرة:٢٨٢). فالإيمان بالغيب والتسليم بحدود الله، هو الأساس الأول للدين.. لأن معرفة الإنسان محدودة بحدود كثيرة: فهى محدودة بحكم طاقة الحواس التى يستمد منها المعرفة.. وهى محدودة بحكم الحيز الزمانى الذى يعيش فيه ويدركه، لا يعرف ما قبله وما بعده.. وهى محدودة بحكم الحيز المكانى الذى يحيط به، والذى لا يعرف ما وراءه من آفاق الفضاء، بل وأعماق الأرض والبحار.

ونظراً لتلك المحدودية للطاقات العقلية والفكرية للإنسان، فلابد من التقيد بحدود الدين، حتى لا نتعرض للضلال.. فالإسلام لا يعطل العقل، ولكن يلزمه أصولاً وقواعد فى إطار منهج الله.

ويحدثنا التاريخ بأن مفكرى الإسلام الأوائل –الذين شربوا من معين المعرفة الإسلامية الحقة– قد سبقوا المحدثين فى وضع قوانين الاستقراء وطرقه، وذلك عندما أقاموا القياس الأصولى على قانون العلة، واطراد الحوادث فى الطبيعة، انطلاقاً من إيمانهم بانتظام حركة الكون واطرادها، كما أرادها الله وسخرها للإنسان، فوضعوا شروط العلة وطرقها، التى تساعد على تفسير الظواهر، فى إطار موهبة التخيل والتوقع العلمى لدى الباحث.

فالنار لا تحرق إلا إذا خلق الله فيها قدرة الحرق.. فلو كانت النار حارقة بذاتها، لحرقت سيدنا إبراهيم عليه السلام.

والغزالى يقول: إن خلق الروح والحواس فى النطفة ليس من خلق الأب ولا الطبيعة، والعلة الوحيدة هى الله.. وأى علة أخرى سواه، ليست إلا اطراداً للمادة.. وهذا فهم دقيق لحقيقة العلية، مما يزيد الإنسان فهما، ينبع من نور البصيرة، الذى يزيد نور العقل.

ويقول الباقلانى: إن سبب تكرار حادثتين الواحدة بعد الأخرى، يجعلنا نقول

بتلازمهما بحكم العادة، فى حين أنه لا ضـرورة عقلية تحتم ذلك، بدليل أن القدرة الإلهية قد تدخل وتخرق العادة.

وعلى ذلك فالمسلمون الأوائل، كان لهم الدور الأساسى فى ظهور المنهج العلمى المعاصر، وذلك بعد نقدهم لحقيقة العلية، وقولهم أن العلية ليست حتمية.. فالأشـاعرة لا ينفون العلية، وما يترتب عليها من نظام الكـون ولكـن ينفـون فقط حتميتهـا، لكـى يثبتوا قدرة الله على مخالفة القانون.

ونظراً لأن العقل ليس هو الأداة الصحيحة لبحث المسـائل النفسية كلهـا، لأن النفس تدخل فى عالم الغيب، الذى لا يخضع لحاسة من الحواس.. لذلك نزلت الشرائع والأديـان السماوية بما يدخل فى عالم الغيب، مما يتصل بالسلوك الإنسانى، ويعجز العقل البشرى عن إدراكـه.. وهذا رحمة بنـا، وحرصـاً علـى مصلحتنـا. **وذلك هو السبب فى جعل التسليم لحكمة اللـه، والانقياد لأوامره، ولزوم حدوده هو الأصل فى التدين.** وهذا التسليم يفتح آفاق واسعة للفكر الإنسانى، تمكنه من تحصيـل معارف لا حدود لهـا. ولن نكون مغالين إذا قلنا إن الفضل فى الحضارة الحديثة، يرجع إلى روافد الإسـلام الفكريـة، التى أمدت المعرفة الإنسانية بكنوز لا حصر لهـا، وحمل مشعل الفكر رواد المسلمين، الذين شربوا من نبع الدين المتين، وأثروا الفكر الإنسانى بكل مـا ترجموه وأضـافوه من المعرفة الإسلامية، التى لا تدانيها أية معرفة فى غناها ورقيها وسموها.

كيف تسرب الفصل بين العلم والدين إلى وجدان المسلمين؟

بالإجابة على هذا السؤال، يكون عالمنا المبجل قد استوفى الموضوع مـن جميع جوانبه.. فيقول د. حسن: إن العقيدة فى الإسلام: هى الأفكـار الأساسـية التـى يجب على المؤمن بالدين أن يصدقها ويقبلها (أى يعتقدها).. والعقيدة الصحيحـة هـى التـى تحدد للإنسان مكانه الصحيح فى الكون، وتسدد خطاه فـى الزمـان والمكـان، وتحـدد وجهتـه الصائبـة، وترسم لـه طريقـه المستقيم، فيستقيم وجدانـه وسلوكه ومشـاعره ومبادئه.. **من هنا يتضح أن الافتراض الزائف للثنائية بين العقل والإيمان، لا يوجد فى الإسلام، وإنما هو وليد ظروف شهدها الصراع بين العقل والديـن المسيحى..** فـالتصورات الإنسـانية البشـرية، أيـا كـان مصدرهـا، تتسم بـالقصور، وتعجز عـن

التوجيه الكامل لشئون الحياة، سواء فى العقيدة أو السلوك أو الأنظمة الاجتماعية.. ومباحث الفلسفة التى تختص بالعلم الإلهى، غالبها علم بأحكام ذهنية، لا حقائق خارجية، وبالتالى الحق فيها قليل، وينقصها الإيمان بالله واليوم الآخر.

ولذلك فكل العلوم الإنسانية، لا تكتمل إلا بالدين.. ونحن نخص الإسلام بالذكر، لأنه المنهج المبرأ من عوامل العجز البشرى، لأنه من لدن عليم خبير، ونظراً لأنه خاتم الأديان، فقد جاء متلائما مع نضج البشرية واستعدادها للتكامل.. ورغم اتفاق مؤرخى التاريخ، على أن العلم لم ينهض فى مطلع العصر الأوروبى الحديث، إلا بعد الثورة المزدوجة على السلطة العلمية ممثلة فى المنطق، والسلطة الدينية ممثلة فى رجال الكنيسة.. فإننا نجد على العكس من ذلك: **لم تقم الحضارة الإسلامية، إلا بتحرير المسلمين من قيود العقل، بفضل القرآن الذى وجه علماءهم ومفكريهم..** فقد فتح آفاقهم للنظر فى الكون والأنفس والتاريخ، وأمدهم بتقريرات كاملة عن الخالق، وعن منشأ الكون، وأصل الإنسان ومصيره.

وبهذا يتضح سبق المسلمين لمعرفة المنهج التجريبى، بفضل القرآن الكريم، مقارناً بينه وبين روح ثقافة اليونان.. فإن فلسفة سقراط فى رأى محمد إقبال، مخالفة لروح القرآن.. لأن سقراط يقصر فلسفته على الإنسان.. بينما يحض القرآن الإنسان على النظر، ويحثه على التأمل فى المخلوقات كالنمل والعنكبوت والذباب، مع ضعفها، ثم عن السحاب والنجوم وتعاقب الليل والنهار والكواكب وغيرها.

كما يتضح أيضاً مخالفة فلسفة أفلاطون فى الإدراك الحسى، عما جاء فى المنهج القرآنى.. لأن القرآن يعتبر السمع والإبصار من أجل نعم الله على عباده، وسوف يُسأل الإنسان فى الآخرة، عما فعل بهما فى الحياة الدنيا.. أى أن فلسفة اليونان امتازت بالتفكير النظرى المجرد، وإغفال الواقع المحسوس، أما القرآن: **فإن روحه تتجلى فى النظرة الواقعية، وتتعدد فى مصادر المعرفة التى يتعين على الإنسان الاغتراف من معينها**، وهى: التقوى، والأنفس، والآفاق (أى الطبيعة والتاريخ وغيرها).. فهو يرى آيات الحق فى الشمس والقمر، وامتداد الظل، واختلاف الليل والنهار، واختلاف الألسنة والألوان، وتداول الأيام بين الناس، وحث المسلم على الاعتبار بهذه الآيات.

وقد أثبت محمد إقبال: **أن مولد الإسلام فى حقيقته هو مولد العقل**، مستنداً إلى أن النبوة بلغت كمالها الأخير ببعثة الرسول ﷺ، الذى أعطى للعقل مكانته اللائقة به فى تحصيل العلوم.

من أين إذن نشأت التفرقة بين الدين والعلم عند المسلمين؟

بعد أن عرض لنا د. حسن أساسيات العقيدة فى الإسلام، وكيف يمتزج فيها العلم والدين امتزاجاً لا يمكن الفصل بينها، لأن كلاً منهما يثرى الآخر، وفى نفس الوقت يعتبر معيناً له.. بعد هذا العرض الموجز الوافى، يقوم عالمنا الفاضل ببيان الجذور الحقيقية لأصل تلك المشكلة فيقول: إن أهم أسباب ذلك الداء المبين: أن المسلمين لم يفرقوا بين الدين الذى هو من عند الله سبحانه وتعالى، وبين اجتهاد الفقهاء فى بعض الفروع بآراء علمية، فقام الأتباع للأسف -بجهالة وسوء فهم- بنقل العندية من الله، إلى التعصب لآراء أشخاص.. وهكذا تشعب الدين إلى وهابية وإخوان وسنوسية وشرعية وسلفية وجمعيات دينية.. ولم يكن الأئمة المؤسسون لهذه الحركات سوى مجتهدين مخلصين فى العلم والتربية، وكانوا مجتهدين فى فهم الدين، وفهم تطبيق الدين.. **ولكن الذى فرق المسلمين هو أنهم فرقوا السبيل الواحد إلى سبل متعددة بنسبة السبيل الواحد إلى شخص أو إلى مكان، أو إلى صفة حادثة**.. فرغم أن الإسلام واحد، وهو دين الله، إلا أنه عندما نسب الأشياع الدين إلى أشخاص، فقد الدين طلاقته، وفقد معها وحدته، وتعدد بتعدد المجتهدين، ودب الخلاف بين المسلمين.. ومازالوا يعانون من هذا الخلاف، فانفرط عقدهم، لأنهم لم يلتزموا تعاليم نبيهم ﷺ الذى قال: **﴿ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جانبى الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاه، وداع يدعو فوق الصراط. فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه.. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم﴾** (رواه الترمذى).

ومما ساعد على تعميق الفصل بين العلم والدين: أن المسلمين فى عهد خالد بن معاوية -فى القرن الهجرى الأول- اهتموا بنقل الكتب اليونانية إلى اللغة العربية، على يد يحيى بن خالد البرمكى.. واشتدت هذه الحركة وشملت الكتب

الفلسفية. **والخطأ فى نظريات الفلاسفة: هو الانفراد بآرائهم وعقولهم**، والتماس الحقائق الغيبية منها.. بينما المصدر الصحيح للغيبيات هم الرسل والأنبياء عليهم السلام.. وقد انتقلت نظرياتهم إلى بعض فلاسفة المسلمين، فأخذوا منهم آراءهم دون تمحيص، ودون اتباع القاعدة المنهجية الإسلامية، لمعرفة الفرق بين السنة البدعة، أو بين منهج الأنبياء فى إثبات الألوهية وبين غيرهم.

كيف الخروج من هذا المأزق؟

وبعد أن استعرض عالمنا المتبحر، تلك القضية الخطيرة، التى تشكل عقبة كئود فى طريق انطلاق المسلمين، وعلامة غير مشرفة، توصم دينهم بالتخلف.. كان لابد أن يصف لنا العلاج، لأن الله لم يخلق داء، إلا وجعل له دواء، كما أنبأنا بذلك الصادق المعصوم.. ولأن وظيفة المصلحين فى الأمة هى تشخيص العلة، ثم الأخذ بيد الأمة إلى مدارج الرشاد.. فيقول د. حسن: لا سبيل للخروج من هذا المأزق إلا بتصحيح المفاهيم، وتبصير الناس بحقيقة الدين، وفهم لا إله إلا الله بمعناها الشمولى الواسع، وفهم حكمة خلق الإنسان وعبوديته للحق، وهى الاستسلام لله، والتنصل المطلق من كل وثنية، أو شرك ظاهر وخفى.. وإقامة حياة كاملة، طبقاً لما جاء به الإسلام من أخلاق وسلوك.. **ولابد من إتباع الدين فريضة**، وعدم الاعتماد على العقل والحواس وحدهما، لأنهما لا يدركان إلا شيئاً ضئيلاً جداً من الحقائق والتجارب، التى لا تغنى فى معرفة الحقيقة الكبرى.. **ولابد أيضاً من الإبداع فى العلم المادى**، وتلك فريضة أيضاً، لأننا مستخلفون، ويجب العمل على إعمار الأرض بأحسن السبل.

وكما أن هناك اهتماماً بالتخطيط الاقتصادى: فيما يتعلق بإيجاد فرص العمل، وزيادة الإنتاج ومعدلاته، والصناعة والتنمية.. **فلابد أن يكون هناك اهتمام بالتخطيط للدعوة الإسلامية**: يشمل الاهتمام الكافى بالإنسان والقيم والمثل والدين، والتوفيق بين الفرض والسنة، والأهم والمهم، والواجب والمندوب.. فالإسلام هو الدين الذى رفع شأن التخطيط، ويهتم اهتماماً بالغاً بضرورة العمل على زيادة الإنتاج وزيادة المدخرات وضبط الاستهلاك، وعدم الإسراف، وتحقيق التوازن للفرد والدولة فى جميع المجالات.

فالحكمة فى الإسلام هى: الإتقان فى القول أو الفعل، والمعرفة بدين الله، والفقه فيه، والتفكر فى أمر الله، والانصياع لأوامره، والفهم فى القرآن.. والحكمة أيضاً هى الخشية والنبوة والورع وهى السنة.

وهذا الفهم للحكمة هو الذى حلق بمن استوعبها حق استيعابها فى الآفاق العليا: ديناً ودنيا، فرداً ودولة، حكومة وشعباً..

ولذلك لم يكن مصادفة أن يقول الحق جلَّ وعلا:

﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا﴾ (البقرة:٢٦٩).

وكلما كان المسلمون أقرب إلى اتباع سنة الرسول ﷺ كانوا إلى السعادة وتحقيق الكمال البشرى أقرب، لأنه صلوات ربى وسلامه عليه، كان يسلك طريقه فى الحياة وفقاً للوحى، وبعلم تام، وبحكمة بالغة، شاملة للإنسان فى كل الأحوال.

وهكذا نصل مع أستاذنا الفاضل إلى نهاية المطاف حول ذلك الادعاء الباطل الذى يروجه البعض تحت مسمى براق يسمى "العلمانية".. حيث نقتنع تمام الاقتناع أن تلك العلمانية، إن كانت تناسب غيرنا، وحققت معهم بعض النفع، فهى بكل المقاييس لا تناسبنا، وتحمل لنا كل الضرر، حيث وقتها لن نحقق أى أمل فى التقدم المادى أو المعنوى، لأننا وقتها سنفقد الروح التى توقظنا من سباتنا، والمشعل الذى يخرجنا من ظلماتنا، فليس هناك إسلام بلا علم، وليس هناك علم يغنى عن مبادئ الإسلام، التى تحقق الأمن والطمأنينة والسلام.. وأى حضارة مهما بلغ تقدمها العلمى، لن تؤتى ثمارها خيراً للنفوس البشرية، إذا خلت تلك الحضارة من النفحات الإيمانية، التى يفوح عبيرها شذى، فيملأ الدنيا رحمة وعدلاً وأماناً.

وهكذا: **فلا التقدم العلمى يلغى الاحتياج الدينى، ولا السمو الإيمانى يلغى الاحتياج إلى العلم، فكلاهما باعث ومولد للآخر.**

الإمام النورسي.. نموذج حديث للفكر الإصلاحي المستنير

من جهود د. حسن عباس زكى فى الدعوة والإصلاح:

نخص بالذكر هنا ما يهمنا من تلك الجهود التى تجل عن الحصر: وهى **رئاسته المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية**[١].. وهذا المركز له اهتمامات إسلامية كبرى، وله دور فعال فى إبراز الدور الإسلامى، الذى قام ويقوم به، أعلام الفكر والثقافة الإسلامية فى الدعوة والعقيدة، لإحداث رأى عام إسلامى يخدم المسلمين عامة، وشباب الإسلام خاصة، ويهدف إلى تصحيح مسار العمل الإسلامى.. وقد دأب د. حسن أثناء قيادته لهذا المركز على إبراز قمم الفكر والعلم، لأنه يوقن أن التعرف على سيرة أهل العلم وطريقة تفكيرهم ومعالجتهم للأمور، يعتبر قدوة للمسلمين، تنير الطريق لهم، وتلقى الضوء على صناعة أفكارهم.. **فالتفكير هو عماد التقدم والحضارة، وهو وليد التربية الصحيحة التى تربى ملكة الإبداع**، والتى تقود المجتمع نحو الرقى المنشود، وخاصة إذا كان هذا التفكير ينبع من روح الدين ويتواءم مع تطور العصر. فالإنسان هو أشرف موجود على الأرض، وهو خليفة الله، وأشرف ما فى هذا الإنسان، قلبه المفعم بالإيمان، والذى يشع على العقل بنوره، فيهدى الحواس والأفكار لكى تسير فى طاعة الله ومرضاته.. لذلك تنهض الأمم وتسعد المجتمعات، بما يهبها الله من رجال آمنوا بالله ورسوله، وساروا على نهجه القويم، وأفنوا حياتهم فى دراسة طبيعة المجتمعات، وكيفية النهوض بها، وتبصير الناس بأمور دينهم وحياتهم.. حيث سخروا قلوبهم وعقولهم لهذا الهدف السامى، وتحملوا أشد العذاب فى سبيل تحقيق أعذب الآمال للبشرية.

♦ ومن هؤلاء الرجال: العالم الجليل بديع الزمان سعيد النورسى.. العالم التركى الذى توفى فى سنة ١٩٦٠ بتركيا، بعد أن ترك تراثاً زاخراً فى شتى علوم الدين، ومدرسة فكر مستنيرة، تعتبر حركة إصلاح شاملة، يمكن اتباعها فى البلاد

---

(١) كان ذلك فى الفترة من ١٩٨٧/٧ إلى ١٩٩٦/٧، ومن ٩٦ حتى الآن عضو مجلس إدارة.

الإسلامية لإصلاح حال المسلمين، وانتشالهم من كبوتهم، لمواجهة تأثير الحضارة المادية الهادمة، والمؤثرات الغربية وأساليبها لسقوط النهضة الإسلامية، بهدم أسس العقيدة التى تمد تلك النهضة بروافد الحياة المتعددة.

واقتناعاً من المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية، بدعوة الإمام النورسى، وجهاده فى سبيل الإسلام، حيث قاد الصراع الفكرى فى المرحلة الحاضرة، بما يمكنه من مواجهة الحضارة المادية ومؤامراتها الاستعمارية، ومخططاتها المعادية للأمة الإسلامية، وافتراءاتها الخالية من الإنصاف.. نقول اقتناعاً بهذا الدور العظيم لذلك الإمام الجليل، فقد أعلن المركز العام لتلك الجمعيات عن مسابقة ثقافية كبرى لفكره، من خلال كتاباته التى تتضمنها "كليات رسائل النور"(١). تحت إشراف د. حسن عباس زكى.

وقد شارك عالمنا وأستاذنا الفاضل د. حسن بكل الحب والإخلاص فى المؤتمرات العالمية التى عقدت فى تركيا، لتجديد حركة الفكر الإسلامى من خلال كتابات الإمام النورسى، وألقى فى تلك المؤتمرات كلمات قيمة، أوضح فيها كيفية الاستفادة من جهود ذلك المصلح المستنير، للتعاون فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية، والعودة إلى أصول تعاليم ديننا الصحيح، للخروج من تلك المآزق الخطيرة، التى يمر بها العالم الإسلامى، والتى يحتاج فيها إلى جهود إصلاح عارمة، وتعاون كل المخلصين الغيورين على رفعة دينهم ودنياهم.

فمن هو الإمام النورسى(٢)؟

- هو عالم جليل من علماء المسلمين المجددين، الذين يبعثهم الله بين الحين والحين، لتبصير الناس بأمور الدين، وتصحيح المفاهيم، وإحياء علوم الدين.
- ولد عام ١٨٧٦ بشرق الأناضول بتركيا، وانتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٦٠، بعد حياة حافلة بالجهاد المادى والمعنوى، فى أسمى صوره وأبلغ معانيه.

(١) تم ذلك الإعلان فى شهر إبريل عام ١٩٩٦، ووزعت جوائز المسابقة فى شهر يوليو عام ١٩٩٧.

(٢) من محاضرة ألقاها د. حسن عباس زكى فى المؤتمر العالمى لتجديد الفكر الإسلامى فى تركيا فى عام ١٩٩٥ حول كليات رسائل النور للإمام النورسى.

- هو المفكر العظيم صاحب حركة إحياء الفكر الديني في تركيا، عن طريق رسائل النور، حيث وهب حياته للحفاظ على الهوية الإسلامية في تلك البلاد، التي تعرضت لأقصى ما تعرضت له دولة إسلامية من غزوات الفكر الغربي.
- كان رحمه الله يمثل خلق المؤمن الصحيح الذي لا يخشى إلا الله، ويؤمن بأن السبيل أمام المسلمين لكي يفلتوا من مكايد الدول الغربية، والنجاة من شباك الحضارة المادية: هو التمسك بالإسلام، واليقظة لما يحاك ضده، والأخذ بما يناسبنا من العلوم العصرية العلمية، وإرشاد الناس إلى حقائق القرآن والإيمان، ومكافحة الجهل.
- كان يؤمن إيمانا عميقا بأن سلاح الكلمة التي تخرج من القلب إلى القلب، هي السبيل في هذا الزمان لتبصير المسلمين بحقائق الإيمان، والثقة بالله، والاتكال عليه، مع الأخذ بكل أسباب العلم والمعرفة.
- كان يؤمن كذلك بأن الإيمان مقره القلب، فإذا تمكن منه، فإنه يحول الفرد إلى أمة، والأمة إلى سيل عارم، ونور ساطع، لا يقف أمامه شيء.
- كل ذلك يحس به، ويمس قلبه، كل من يقرأ رسائل النور بتأمل.. فقد كان يصرح بذلك أثناء خطبه للدفاع عن نفسه في المحاكم.. وكان نتيجة ذلك أنه كان يخرج من سجن إلى سجن، ولكن عين الله حافظة له، وفي كل جلسة يتوقع فيها الناس الحكم عليه بالإعدام، كان يخرج بريئاً.. ولكن أعوان إبليس من الإنس، يتكالبون عليه إرضاء للسلطة.. حتى بعد دفنه، أخرجوه من قبره، حتى لا يعلم أحد مكان مثواه.
- استمر جهاده في ظروف حرجة، أشد الحرج، ما يزيد عن خمسين عاماً، تعرض فيها لشتى ظروف الحرمان والاضطهاد والحرب، بل إنه حكم عليه عشرات المرات بالإعدام، ولكنه كان لا يخشى أحداً إلا الله، ويخرج منتصراً بالله، مما أثار إعجاب الناس، والتفوا حوله، فكان لهم قدوة وإماماً إلى نور الحق المبين.
- سعى إليه كمال أتاتورك، وهو في عنفوان قوته، طالباً منه الانضمام إليه ومعاونته، ولكنه رفض وأبى، بالرغم من التهديدات التي وجهت إليه.. لأنه كان

يرى أن رسالته العظمى هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإنقاذهم من الموت المعنوى، لينعموا بالحياة الأبدية.

- إن رسائل النور التى قضى عمره في تأليفها، رغم ما لقيه فى سبيل الله تعالى من اضطهاد وعنت.. تضم منهاجاً متكاملاً للرقى العقائدى والعلمى ونهضة الأمة الإسلامية فى جميع المجالات.

وتدور رسائل النور حول النقاط التالية:

- اليقين وكيفية الوصول إليه.
- أسس العقائد الإلهية.
- التربية السلوكية فى كليات رسائل النور وأبعادها.
- الدعوة الإسلامية وبناء الأمة.
- الإعجاز القرآنى ودوره فى وعى الإنسان.
- المنهج الاستدلالى وأثره فى البناء.
- السلام العالمى وتعاون الشعوب.
- السلام الاجتماعى ونبذ العنف.
- المسئولية الإيمانية وخطاب العقل.
- دور كليات رسائل النور فى يقظة الأمة.

ملامح من آراء النورسى لصياغة الفكر الإسلامى المستنير:

استعرض د. حسن فى المحاضرة التى ألقاها بعض سمات أفكار النورسى فقال:

- إن آرائه كلها **مستمدة من القرآن والسنة الشريفة**.. لذا تمثل تياراً فكرياً إسلامياً نقياً واضحاً، يدعو إلى الحضارة القرآنية، وتصحيح المفاهيم.
- وكان دائم الدعوة بإصرار المخلصين العالمين إلى **أهمية فهم القرآن** بمجموعه، لأنه يؤمن إيماناً عميقاً بالمعرفة الشاملة عن حقائق الوجود التى أمده بها القرآن الكريم، أما المعرفة الجزئية التى تتيحها الفلسفة العقلية العقيمة، فهى لا تروى ظمأه للمعرفة بجميع بجوانبها، حيث لا تشبع احتياجات النفس، وتطلعات الروح.

- وكان يرى **خطأ بعض علماء علم الكلام الذين رجحوا العقل على النقل** (وهو التراث الديني من قرآن وسنة) كالمعتزلة، فعجزوا عن فهم القرآن الفهم الصحيح، الذي يتفق مع غزارة مضمونه، وسمو مقصده، وعظمة إعجازه.. فالعقل بمفرده عاجز عن إدراك أمور كثيرة.. وبدون قلب مستنير بنور الحق، لن يستطيع أي مخلوق فهم القرآن بعمق.
- وكان يرى هذا الإمام الجليل: **أن الحضارة الغربية نجحت مادياً، ولكنها في سبيل الانحدار، لأنها خاوية من الناحية الروحية**.. ولذلك كان يدعو إلى فهم المسلمين لهذه الحقيقة، والتمسك بالظاهرة القرآنية، لأنها السبيل الوحيد لربط الأمم الإسلامية ببعضها، ونبذ الخلافات والصراعات التي توهن قوتها، والتعامل فيما بينها على ذرات الخير والائتلاف، وتطبيق السلوك الإسلامي، حتى ينهض المسلمون، وينشروا الأمن والرخاء والسعادة للإنسانية.
- وكان يرى أنه **لا سبيل للخروج من مهاوي الضياع** التي تعيشها الأمة الإسلامية إلا بتصحيح المفاهيم، وتبصير الناس بحقيقة دينهم، وفهم "لا إله إلا الله" والتنصل المطلق من كل وثنية أو شرك، ظاهر وخفي، وفهم حكمة خلق الإنسان.

  وفي نظره أن الدعوة إلى ذلك لا تكون بانقلاب، ولكن بإقامة حياة كاملة، طبقاً لما جاء به الإسلام، من حرية منضبطة بآداب الشرع، ورفض العنف والإرهاب، والاعتماد على الإقناع، مع العمل على زيادة الإنتاج والمدخرات، وضبط الاستهلاك، وعدم الإسراف.. وهذا كله بالوعظ والنصح والإرشاد، وسلوك الداعين إلى ذلك حيث لابد من توافر القدوة.
- ويرى **أن الدين الإسلامي يشجع العلوم، ولا يفرق بين الدين والعلم**، لأن العلم عند المسلمين بمعناه العام هو ثمرة العقل والوحي.. فروح القرآن تتجلى في النظرة الواقعية، وتتعدد في **مصادر المعرفة** التي يغترف منها الإنسان: وهي التقوى والنفس والآفاق (أي الطبيعة) حيث يدعو القرآن إلى أهمية التأمل في آيات الحق في الشمس والقمر، وامتداد الظل والكواكب، واختلاف الليل والنهار، واختلاف الألسن والأنفس، وتداول الأيام بين الناس و.. ويحث المسلم

على الاعتبار بكل ذلك، لأنها تزيده معرفة بعظمة الله، وتمده بأسرار الكون.

- ويصر الإمام النورسي على أن **تحقيق السعادة للبشرية لن تتم بمجرد التقدم الحضاري المادي:** فالإيمان يجعل المسلم في حال من الوعي الداخلي، واليقظة الروحية، وضبط النفس، والتخلص من الأعمال والعادات العفوية، التي تقف في طريق التقدم الروحي والعقلي.. والإيمان يشيع في المجتمعات: الصدق والحب والرحمة وصفاء النفس والرضا.. **وبهذا فقد سبق الإمام النورسي العالم الفرنسي (اليكس كاريل الحائز على جائزة نوبل) والذي قال:** إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً، لأن الأطباء والمعلمين وعلماء النفس، لم يبلغوا هدفهم، لأنهم يعالجون خططاً تشتمل على جزء فقط من الحقيقة الإنسانية، ويرجع ذلك إلى تعقد الطبيعة الإنسانية.. ولذلك حققت علوم المادة تقدماً كبيراً، بينما علوم البشر في حالة بدائية، وظلت الأنظمة التي ابتدعها الإنسان تتغير دوماً، كما نرى في علوم الاقتصاد والاجتماع.. ويرى كاريل أن العلاج الوحيد هو معرفة الإنسان لنفسه.

وذلك ما يقول عنه كاريل: هو ما نجده نحن في نبع الدين الفياض العذب.. وهو ما دعا إليه الإمام النورسي دوماً في رسائل النور التي كتبها، وتركها ذخيرة حية للأجيال المستقبلية، تساعدها على الحركات الإصلاحية، بما يناسب احتياج تلك الأجيال، من البرهان العقلي والاطمئنان القلبي.

لماذا تغلب أهل الضلال على أهل الحق؟

نظراً لأن هذا السؤال يشغل بال كل المسلمين الغيورين على دينهم، ويقض مضاجعهم، ويوجع قلوبهم.. فقد اهتم د. حسن بأن يركز في محاضرته على إجابة النورسي على هذا السؤال، ولتكون فرصة في نفس الوقت أن يناقش فيها الأوضاع المؤلمة التي يعيشها العالم الإسلامي.

ونذكر هنا ما قاله أستاذنا الفاضل في هذا المجال(١):

---

(١) وذلك خلال ١٩٩٥ نفس الكلمة التي ألقاها في المؤتمر العالمي لتجديد الفكر الإسلامي في تركيا.

إن الإمام النورسي كثيراً ما كان يشرح في لمحاته: أسباب تغلب أهل الضلال على أهل الحق، موضحاً أن ذلك يرجع إلى اختلاف المسلمين، وعدم اتحادهم، وعدم تمسكهم بالدين القائم على أساس الوعي السليم.. ولأن الدنيا غلبت على أحوالهم، وعبدوا المال والجاه والسلطان، بدلا من أن يعبدوا الحق الواحد القهار.. ولأنهم تخلوا عن الجهاد المعنوي المقدس، والاحتماء بقلعة القرآن الحصينة.. ولأنهم تمسكوا بالنزعات القومية التي زرعها الغرب، وهي أشد داء يفتك بوحدة المسلمين، ويفرق بينهم.. ولأنهم تشربوا الفلسفة المادية الإلحادية التي تطفئ نور أرواحهم.. واستسلموا للمدنية الحديثة التي تؤجج نيران شهواتهم، وتجعلهم يركنون إلى اللهو والبطالة، مما يعوقهم عن استثمار مواردهم الاقتصادية التي حباهم الله بها.

ويعلق د. حسن على تشخيص النورسي لأسباب تغلب أهل الضلال على أهل الحق، بقوله: أيها السادة والسيدات:

- تأملوا معي ما يملكه المسلمون في أيامنا هذه: من أموال تربو على ٨٠٠٠٠٠ مليون دولار، مودع معظمها في بنوك الدول الغربية، وهي تسد عجز هذه الدول، وتستخدم في بنوكها لدعم الاقتصاد الغربي، ورفاهية شعوبه.. ولو كنا نستثمر أرباح وفوائد هذه الأموال، أو حتى نسبة محدودة منها، لأمكن للعالم الإسلامي أن ينهض صناعياً، وأن يعتمد على نفسه في سد حاجاته الزراعية، وحماية شعوبه من الجوع الذي يفتك بها، ويعوقها عن طريق ربها.. ولأمكن أيضا استخدام التقنية الغربية التي يتيهون علينا بها، ونحقق بذلك التقدم المعنوي والمادي، الذي تفرضه علينا عقيدتنا الغالية.
- **وتأملوا معي حالة العالم الإسلامي:** فهناك دول إسلامية لديها وفرة من المال، وتزيد عن حاجتها مئات وألوف المرات، وليس لديها عمالة.. ودول أخرى لديها عمالة عاطلة بالملايين، وليس لديها الأموال الكافية للنمو الاقتصادي.. ودول لديها إمكانيات عارمة (زراعية وصناعية وسياحية) وليس لديها وسائل الاستثمار.. والأمم الإسلامية تمتد شرقاً وغرباً، تزخر بكنوزها، وتسد الأفق بسكانها.. وكأن الله سبحانه وتعالى، ينبهنا بهذه الصورة لكي نتحد، ونكمل

بعضنا بعضاً، ونتعاون لكي نكفل لأنفسنا القوة والمنفعة، والتي كثيراً ما تكلم عنها النورسي في رسائله.. والله لو فعلنا ذلك، لكانت قوتنا لا تقل عن الدول الأوروبية، بل ستزيد أضعافاً مضاعفة، إذا تمسكنا بالدين، وسرنا على المنهج القويم، لا تستهوينا وسائل اللهو والاستمتاع، والانحرافات الأخلاقية، التي تبعدنا عن ربنا، وكانت ومازالت سبباً لسقوط الأمم، في الماضي والحاضر.. فإذا أخذنا من الغرب، فعلينا أن نأخذ حضارته العلمية، والتقنية المتقدمة، لا أن نأخذ الجانب السيئ من الثقافة الغربية، سواء في الرقص والأغاني والمسرح، والتي تموج بها وسائل الإعلام في العالم الإسلامي.

لقد رسم لنا القرآن الكريم والسنة الشريفة: الطريق القويم، والمنهاج السامي لرقي أنفسنا وشعوبنا.. ولا ينقصنا إلا أن نحقق ذلك، بأن نبدأ بأنفسنا أولاً، ثم نطرحه على المجتمعات التي نعيش فيها، فتأتي الثمار طيبة بإذن الله.

وبعد أن استعرضنا تلك الملامح العامة، لفكر الإمام النورسي في كتاباته التي تحمل اسم "رسائل النور" لأنها تنير القلب والوجدان والعقل.. قد يثور ذلك السؤال المنطقي في أذهان البعض.. وهو:

لماذا استحقت رسائل النور أن تكون منهاجا للإصلاح المستنير؟

ويجيب على هذا السؤال عالمنا الفاضل د. حسن بقوله:

يمر العالم الآن بمرحلة خطيرة من الناحية السياسية.. حيث انفرط عقد الشيوعية، وتعاظم دور الرأسمالية، واختل التوازن بين الأمم، وأصبحت القوة تكاد تكون دولة واحدة.

ومن الناحية الدينية: تحولت الجهود إلى ضرب الإسلام كعقيدة، والمسلمين كشعوب.. واختلط الحق بالباطل، واستعلت المادة على كل شيء فأصبحت هي الهدف والغاية، وغلب على الإنسان هوى النفس، واعتداده بالعقل فقط، فبعد أن كان القلب عامراً بالإيمان، وينير العقل والحواس، لتسير في طاعة الله، أصبح العقل هو الآلة، مع أنه قاصر، لأنه حادث وتحكمه الأبعاد المادية القاصرة المحدودة، التي

تحكم الكون المادى بصفة عامة، بدليل تطور النظريات التى وصل إليها الإنسان، حيث يؤمن بواحدة ثم يهدمها، ويلجأ إلى غيرها.. وسيظل العقل حبيس القصور المادى، ما لم تمده أنوار القلب الإيمانية التى تجعله يحلق عالياً.. أما التقدم الذى حققته البشرية، فهو تقدم مادى فقط، يخرج بالإنسان عن طبيعة رسالته فى الوجود.. حيث عبد المال والجاه والسلطان وهوى النفس، أو عبد مظاهر كونية، هى أولاً وأخيراً مظاهر لعظمة القدرة الإلهية. وذلك التقدم المادى، الخالى من النبع النورانى، أضفى على البشرية مزيداً من الشقاء والمعاناة.

ومن هنا تظهر أهمية منهج الإمام النورسى: فهو ليس مستورداً، ولا مقتبساً من بلد ما، ولا هو منهج عقلانى، ينقل التشريعات من البلاد المختلفة.. وإنما هو منهج قرآنى صرف، مبنى على ما جاء فى كتاب الله العزيز، وسنة رسوله الطاهرة، وأفعال صحابته.. وبذلك فإن منهج النورسى يمثل تياراً فكرياً إسلامياً نقياً واضحاً، يدعو إلى استعلاء الحضارة القرآنية، فى مواجهة الحضارة الغربية لتحقيق الأمن والطمأنينة للإنسانية.

وفى سبيل ذلك فإن دعوته تميزت بما يلى:

♦ سبق النورسى فى إحياء منهج الخيال الخلاق:

ويرى د. حسن أن هذا منهجاً جديداً يسود العالم، يظن واضعوه أنه من بنان أفكارهم، ولم يسبقهم سابق فى هذا المضمار الفكرى.. والحقيقة أن هذا المنهج أشار إليه العلماء المسلمون القدامى، وهو أن يكون لدى الإنسان خيال خلاق، إذا ربطه بالعقيدة، كان تطبيقاً لها بكل صوره.. فمثلا حينما يمرض الإنسان يأخذ بالأسباب، ولكن فوق ذلك يعلم أنه لا شافى إلا الله، وأنه العلية الأولى التى ينبعث منها الشفاء. ويتفاوت الناس فى ذلك، كل على قدر يقينه.. فشرعاً نقول: إن الدواء لا يشفى، ولكن يحصل الشفاء عنده لا به، والنار لا تحرق، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق الحرق فيها، وله إذا شاء سحب تلك الصفة منها.. وهكذا نربط كل شىء بالله، ونؤمن بذلك ونكرره. ويقول العلماء عن ذلك: إنه الإيمان الذاتى. فإذا جمع الإنسان بين الأسباب والإيمان الذاتى، يحدث الشفاء بإذن الله.

وهذا المفهوم هو الذى يشير إليه الإمام النورسى، وما يسميه علماء الغرب حديثاً "الخيال الخلاق". فإذا ربط الإنسان كل أمور حياته بالإيمان الحقيقى، والاتكال على الله، والرضا بما يحدث فى الكون، بعد أن يأخذ بالأسباب، ولكن يربطها بمسبب الأسباب.. فحينئذ تكون الصلة بالله دائماً مستمرة، ويحقق معها الإنسان أعظم النتائج المعنوية والمادية.

ورسائل النور ذاخرة بكل المعانى التى تفجر ينابيع الإيمان، وتجعل المرء يحلق فى أعلى آفاق الخيال، مع أنوار الحق فى كل مكان.. فمثلاً حينما يتحدث النورسى عن **الطقوس الدينية**، يأخذها بعمق: فكلامه عن **التسبيح** "كمثال" يدفع بالإنسان أن يتخيل، وهو يسبح، عظمة الخالق، وأن كل شيء يسبح بحمد الله.. فالجماد يسبح، والحصاة تسبح، والنبات يسبح، وحركات الأفلاك هى تسبيح.. وهذه التسبيحات تنضم إلى بعضها البعض، وتشكل سيمفونية رائعة كونية، تحفظ الكون، غير عابثة بعبث الإنسان.

وحينما يتحدث النورسى **عن مشاعر الحب والود والصفاء**: يشف وجدانه وأحاسيسه، لدرجة تدفع الإنسان أن يتخيل نفسه ذرة فى محراب الكون، تتفاعل مع جميع الذرات، حيث ينشد الجميع أنشودة التوحيد العذبة، ويتذوقون أسمى وأجمل معانى الحب الإلهي، والترابط الوجدانى، مع الكائنات بأسرها.

أما وهو يتحدث عن **آيات الله فى الكون**: فهنا ينطلق الخيال إلى آفاق غير محدودة، تغرس فى القلب والعقل عظمة الله وقدرته اللا نهائية.. ونعلم بالمنطق المحسوس الرد على سؤالنا المستديم: لماذا تقدم المسلمون الأوائل فى جميع العلوم؟.. حيث تأتينا الإجابة من ثنايا رسائل النور، وهى أن الإيمان أطلق عنان الخيال، فساحوا فى ملكوت الله، ينهلون من عطاياه الواسعة، وأنواره الغامرة، فاستطاعوا بذلك أن يحققوا السبق فى جميع المجالات، بقوة الإيمان، وينابيعه المتدفقة للعقل والروح معاً.

أما النقطة الثانية التى تميزت بها دعوة النورسى، واستحقت بها رسائل النور أن تكون منهاجاً متكاملاً للإصلاح المستنير فى العصر الحديث فهى:

◆ استعلاؤه بالحضارة القرآنية فى مواجهة الحضارة الغربية:

يشرح د. حسن تلك النقطة فيقول: إن ذلك الاستعلاء هو أشد ما نحتاجه فى محنتنا هذه، لأن أساس كل ما نعانيه هو ضياع الهوية، والاعتزاز بالشخصية الإسلامية.. فكل شبابنا منبهر بالحضارة الغربية، ومنساق إلى مستحدثاتها وأفكارها سوقاً، تحت تأثير وسائل الإعلام، التى تمارس ضغوطها فى هذا المضمار بكل الحيل، لتحقيق أهدافها فى الاستيلاء على عقول الشباب ووجدانهم، فتتركهم ضعاف العقيدة، سقيمى الوجدان، مذبذبين بين الشرك والإيمان.. ومن هنا تأتى أهمية دعوة النورسى، الذى بذل كل جهده فى سبيل إبراز عظمة القرآن، وكنوزه التى لا تنفد، فى إثراء الإنسان بكل الاحتياجات العقلية والروحية على مدى العصور، ومهما تطورت الأجيال.. وفى سبيل ذلك عقد مقارنات كثيرة منها:

- **المقارنة بين تلميذ القرآن، وتلميذ الحضارة الغربية:** وبيان السمو الأخلاقى والمعنوى للتلميذ الحقيقى للقرآن، وذلة النفس وشقائها، للتلميذ المولع بالحضارة الغربية، حيث اللهو والسفاهة والمجون، والشهوات التى تشقى النفس، وتزيد احتياجات الإنسان، مما يزيده إحساساً بالفقر، مهما حقق من تطور مادى، لأنه سيندفع دوماً نحو سعار المدنية ومستحدثاتها التى لا تنتهى..

- **وكذلك المقارنة بين فلسفة القرآن وفلسفة الحضارة الغربية:** حيث بين أن فلسفة القرآن تقوم على الإقناع العقلى والروحى للإنسان، وتشبع جميع احتياجاته المعنوية، وتحلق به فى آفاق واسعة فى الكون، تشمل السماوات والأرض والعرش والكرسى والأفلاك، مما يضفى على الروح رواء، وعلى العقل سعة وإدراكاً.. أما الفلسفة الغربية فهى جافة عقيمة، لا تحقق كل احتياجات الإنسان فى المعرفة، فضلاً عن أنها لا تحقق الانسجام المطلوب بين الروح والعقل، أو بين الإنسان والكون، لأنها تعطيه المعرفة مبتورة، قاصرة عن الوفاء بمتطلبات الروح، حتى غدت البشرية تعانى من الخواء الروحى، والجفاف المعنوى.

- **ويعقد كذلك الإمام النورسى مقارنة بين منطلقات العقيدة فى كل من المنهجين..** فيقول: إن الحضارة الغربية تؤمن بالقوة ولا تؤمن بالحق، بينما

الإسلام يدعو إلى **الحق** الذى يستعلى على القوة.. وتؤمن الحضارة الغربية **بالمنفعة** النابعة من الأنانية، ويقوم الاقتصاد الغربى على هذا الأساس، معتبراً أن الغاية تبرر الوسيلة، بينما الإسلام يؤمن **بالمصلحة**، الشاملة مصلحة الفرد والجماعة، وإذا تعارضت المصلحتان فالأولوية لمصلحة الجماعة.. والحضارة الغربية تعبد **المال** وتعتبره أساس الحياة، بصرف النظر عن كيفية الحصول عليه أو كيفية إنفاقه أو طرق استثماره، بينما الإسلام يرى أن **المال مال الله**، والإنسان مستخلف عليه، وخلافته عرضية، تزول إذا أساء الاستعمال، وأن الشريعة تدعو الإنسان إلى حسن استخدام **المال** لصالح الجماعة، وأن يؤدى ما عليه من زكاة وصدقة وغيرها..

والحضارة الغربية تؤمن **بالصراع والتصادم** فى سبيل تحقيق أطماع الإنسان، بينما الإسلام يدعو إلى **التعاون والتكافل الاجتماعى**.. والحضارة الغربية تعطى **الحرية بلا حدود**، والإسلام يستعلى بأوامر الله جل وعلا، ويؤمن **بالحرية الملتزمة بضوابط الشرع**.. الحضارة الغربية تستعلى **بالعقل**، وتتيه بما حققه لها من اكتشافات واختراعات، والإسلام يستعلى **بالقلب** الذى هو مرآة لتجلى أنوار الحق، والذى يشع على العقل بنوره، فيسير الإنسان فى طاعة الله باطمئنان، لأن القلب والعقل يدفعان الأركان والحواس، أن تلتزم بمنهج الله جل شأنه مما يحقق للإنسان الأمن والسلام مع نفسه ومع مجتمعه.

وفى النهاية: يخلص النورسى من تلك المقارنات، إلى استعلاء حضارة القرآن بإنسانية الإنسان.. أما الجوانب العلمية من الحضارة الغربية، فيرى أن موقف المسلم منها الذى فرضه الإسلام، هو أن يتحرك لاكتشاف كنه المادة، وقوانين الحياة، والاستفادة منها، لأنه خليفة الله فى الأرض، وخلق من أجله الأكوان.. فعليه أن يحقق ذاته، ويزرع الخير، ويبنى التقدم.. ولن يكون ذلك إلا بالأخذ بأسباب الحضارة العلمية والصناعية، لأنها من ضرورات إقامة الحياة القويمة، التى يحتاج إليها العالم الإسلامى، للنهوض بأداء رسالته بحق.. ويقول قولته المشهورة: "**فى عصرنا الحالى لا يمكن إعلاء كلمة الله إلا بالرقى المادى**".

وهكذا نكون قد استعرضنا أبعاد المحاضرة التى ألقاها د. حسن عباس زكى فى المؤتمر العالمى لتجديد الفكر الإسلامى بتركيا، والتى توضح دوره كداعية إسلامى، **يؤمن بأن الحضارة القرآنية لن تتحقق فى العصر الحديث إلا بالتقاء الآراء بعد تمحيصها**، والاستفادة بعصارة أفكار المصلحين، لأن الإسلام أمرنا بالشورى، التى تقوم على الإخلاص حيث تتبلور جهود المخلصين لصالح المسلمين.. أما الاستبداد بالرأى فهو معول الهدم لكل الحضارات..

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

التحديات التي يواجهها العالم العربي والإسلامي من الناحية الاقتصادية(1)

أهمية الحديث عن تلك التحديات:

إن الحديث عن تلك التحديات لا ينتهى، طالما تعيش تلك الدول الإسلامية، حالة التخلف المادى والعقائدى، وما يتبعها من حالة التيه النفس، التى تسبب ضياع الهوية، ومعالم الشخصية.. ولكن الحديث يكتسب أهمية كبيرة، عندما يكون المتحدث علماً من أعلام الفكر الاقتصادى، ومؤمناً غيوراً على دينه، حريصاً على رقى أمته الإسلامية ونهضتها، مثل عالمنا الفاضل: د. حسن عباس زكى.. حيث يتكلم عن تلك التحديات بنظرة عميقة، تنبع من روح إيمانية شمولية، وخبرة اقتصادية واسعة، مما جعله يتناول مواجهة تلك التحديات بدءاً من جذورها الأساسية، ألا وهى الفكر، لأن ذلك الفكر هو الذى يشكل الإنسان، ويعلمه كيف يستغل الطاقات الكامنة فيه، لمواجهة كل صعاب الحياة، والارتقاء بأمته فى مضمار الصراعات الحضارية.

وها نحن نعرض بعضا من حصيلة خبراته وتجاربه فى هذا الميدان، لتكون نبراساً على الطريق –إن شاء الله– لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وذلك لتحقيق التحول المطلوب للأمة الإسلامية، بما يحقق لها اجتياز كل التحديات العصرية، واستعادة كرامتها وهويتها وكل معالمها.

التفكير ودوره فى مواجهة تفاعلات الحياة:

يبين لنا د. حسن فى البداية: كيف أننا نعيش فى فترة من أهم مراحل حياتنا، وهذا يحتم علينا أن نعالج قضايانا بتفكير سليم وحكمة.. لماذا؟ **لأن التقدم والتخلف قضيتان جذورهما فكرية أساساً**. فالتكنولوجيا ليست عملاً خارقاً على أى شخص أو شعب، إذا أتيح له تربية العقل، إذ أن كثيراً منا لا يعرف كيف يفكر.. فالتفكير وليد التربية الصحيحة، وهو الذى يخلق الإبداع والابتكار.. ولذلك فالفكر الواعى

---

(1) هذا الموضوع تحدث فيه د. حسن عباس زكى فى ندوة فى أبو ظبى.. فى المجتمع الثقافى.. وذلك فى يناير ١٩٩٧.

ضرورى لكل أمة، تريد أن تضع أقدامها على طريق التحضر، حيث يحتاجه العامل والمهندس والسياسى والدكتور والأم، وكل شخص فى مجال عمله، لكى يحقق أقصى كفاءة ممكنة فى هذا العمل.

والتربية الصحيحة هى تعليم التفكير البنّاء، وليس تكديس المعلومات.. فنحن حينما نستخدم المعادلات للوصول إلى القمر، أو بناء سفينة أو آلة، فذلك أمر يسير ولا إشكال فيه.. ولكن حينما نتعامل مع الإنسان، لحل مشكلة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، نجد اختلافات كثيرة فى الرأى.. لأن الحالة الأولى: الطريق فيها واضح، وتخضع لقوانين ومعادلات وثوابت.. أما الحالة الثانية: فهى تحتاج إلى فكر وتحليل، وتتأثر بمتغيرات زمانية ومكانية وتقاليد، وغير ذلك، لأننا أمام كائن حى يتفاعل كل ثانية، وله شعور ووجدان وأحاسيس وأمزجة، مما يؤدى إلى خلافات فى الرأى، نتيجة **عدم إدراك الحقائق بفكر متأنى..** وبقدر الخلاف فى سلم التفكير، نجد الاختلاف فى الرأى. ولكن المهم هو التعامل مع الأحداث بفكر ورؤية وحكمة.

والأحداث التى تمر بالعالم فى عصرنا الحاضر، وبالمنطقة العربية والإسلامية خاصة، تحتاج منا إلى وقفة هادئة مع النفس.. نراجع فيها تجربتنا الممتدة، ونستلهم الدروس، ونستخلص العبرة من صراعات الماضى والحاضر، لنبحث عن مكاننا فى خريطة المصالح العالمية، وتيارات الحضارات وصراعاتها. ولعل حركة الزمن تؤكد أن هناك رؤية هادئة، تشدنا إليها بعيداً عن الصراعات الداخلية، وتشدنا إلى مركز القرار ومراجعة الذات، وتدفعنا إلى التكاتف والتآزر لنقف صفاً واحداً، ندافع فيه عن كياننا الإيمانى، ونحقق الغرض المطلوب من وجودنا، كما أراده الله لنا.

عجز التعليم عن تنمية التفكير الإبداعى فى العالم الإسلامى:

بعد أن وضح لنا أستاذنا الملهم أهمية الفكر، لفهم متغيرات العصر والتفاعل معها، ينتقل بنا د. حسن إلى تشخيص العلة التى تعانى منها **الأمة** الإسلامية، وهى قصور مناهج التعليم عن تنمية موهبة التفكير، مما يخرج مواطنين عاجزين عن اللحاق بركب التطور الحضارى. فيقول:

إذا نظرنا إلى **الناحية الثقافية والتعليمية** فى البلاد العربية والإسلامية، نجد أن

التعليم إنما هو حشر معلومات، وليس تعليماً يربى الطفل، وينمى وسائل تفكيره، ولا يؤهله لكى يستخدم معلوماته من الناحية التطبيقية، فى دفع عجلة المدنية الحديثة فى بلاده.

كما أن **التربية الدينية** فى تلك البلاد، قاصرة عن تبصير المسلم بدوره فى الحياة، أو تنمية الحرية الفكرية لديه، المنضبطة بآداب الشريعة، أو تربية الخيال الخلاق، الذى يشجع على الابتكار والاختراع والإبداع، فى جميع المجالات: الصناعية والزراعية والعلمية.. مما يعوق العالم الإسلامى أن يأخذ مكانه من التقدم، فى مجال علوم الطبيعة والبيولوجيا والهندسة الوراثية، والمعلومات وغيرها.. فالإنسان هو صانع الحضارة والتقدم، وبدون رقى هذا الإنسان فكرياً وعقائدياً، لا يمكن تحقيق أى نهضة للدول الإسلامية، مهما تعددت مواردها الاقتصادية.

ولذلك لابد من التغيير الشامل فى مناهج التعليم، بحيث تعلم المسلم كيف يفكر لبعث الطاقات الخلاقة فيه، مما يجعله ينطلق فى الحياة بفاعلية، ليستنطق أسرار الكون.. كما يتعين التوسع فى التدريب الفنى، لمواجهة التكنولوجيا الحديثة وتطوراتها.. هذا إلى جانب تعليم المسلم أصول العقيدة السمحاء، بما يتناسب مع عظمة الإسلام، وقدرته على الوفاء بكل الاحتياجات الفكرية والمعنوية، مهما تطورت العصور والأجيال.

بهذا نكون بدأنا أولى الخطوات لمواجهة الصعاب والتحديات.

كيف ننجو من الغرق فى خضم العالم؟

وسط طوفان المادية الذى يموج به العالم يقف أستاذنا الفاضل د. حسن وقفة تأمل، ليحدد ما هو الدور الذى يجب أن يقوم به المسلمون، للنجاة من الغرق فى ذلك الطوفان.. فيقول:

إذا استعرضنا تاريخ تقدم الأمم: لوجدنا أنه يتمشى طردياً مع تمسكها بالقيم والمثل، مع التطور العلمى السليم، بحيث لا تقتلع جذورها الفكرية الثابتة.. وهذا لا يتم إلا بتوافر حرية التفكير السليم والعدالة. والإصلاح مهما كانت سبله، لا قيمة له،

ما لم يبن على منهج منطقى سليم ومدروس، وفى إطار نظرة شمولية تجمع بين التقدم المادى والمعنوى، حتى يكون الإصلاح قائماً على أسس متينة، تمكنه من مواجهة تيارات الحياة العارمة: فها نحن نشاهد الانهيار الذى أودى بالنظام الاشتراكى.. ونشاهد التجمعات الاقتصادية الضخمة التى تحكم العالم الآن، فى أوروبا وفى أمريكا وفى الدول الآسيوية.. ونشاهد التطور المذهل السريع للتكنولوجيا فى مجالات العلوم المتعددة.. هذا علاوة على الثورات والقلاقل التى اندلعت فى الدول حديثة الاستقلال، نتيجة رحيل الدول الاستعمارية عنها، بعد أن تركت قنابل سياسية موقوتة، فى كل دولة منها.. كذلك التكتلات الاقتصادية المتعددة، بين الشركات والبنوك والمؤسسات المالية والتجارية.. وثورة المعلومات التى طرقت كل بيت، فى كل بلد، بلا ترخيص دخول، أو صك مرور.. والمنافسة الشديدة التى بدأت تئن تحت وطأتها الدول النامية فى هذا العالم، الذى كسر حواجز الحماية فى كل مكان.. واختلال التوازن العالمى، بعد أن أصبحت أمريكا هى القوة الوحيدة، التى تكاد تنفرد بثقلها فى العالم.

كل هذه الأمور تحتاج منا أن نتساءل: **إلى أين يذهب العالم؟**

وأن نقرر، لا أن نتساءل: **ما هى رسالتنا ودورنا فى هذا المجال؟** وكيف يجب أن نكون؟

وعلينا بعد هذا: **أن نخطط لننجو من الضياع فى هذا المحيط الخضم.**

ويخلص من ذلك د. حسن إلى:حتمية مواجهة كل التحديات التى تواجهنا لننجو من الغرق تحت وطأة أمواجها.

حتمية مواجهة التحديات للنجاة من السقوط الحضارى:

إن الآراء الغربية التى تدعو إلى الإحباط واليأس، لغالبية الشعوب الإسلامية كثيرة ومتعددة.. وأذكر فى هذا المجال: أن فكراً غربياً سائداً، يتوقع أن ينقسم العالم إلى جزئين.. جزء يسوده السلام، ويشمل أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا واليابان، ويعيش فيه ١٥٪ من سكان العالم، وهو الذى يقود العالم، وينعم بالثروة

وتسوده الحرية.. والجزء الثاني معرض للمجاعة والحروب والفقر، وطغيان الظلم والديكتاتورية والفساد، ويشمل بعض الدول الأفريقية والآسيوية، ودول شرق أوروبا.

ونحن لا نعلق على هذه الآراء إلا بقولنا: **إن الدول الناجية هي تلك الدول التي تطبق العدالة والحرية، وتتمسك بأصولها وتقاليدها وتراثها، وتتطور علميا مع التقدم الحضاري الذي يتمشى مع تراثها الفكري..** لأن ما يحدث في أي دولة، إنما هو إفراز لتفكيرها ومنهجها في ممارسة حياتها.. وأن كل خروج عن الشرعية والعدالة والحرية، أو كل تقاعس عن مواجهة التيارات الفكرية الضارة، أو عدم الصمود أمام المنافسة، أو عدم اتخاذ الإجراءات التي تكفل حسن استخدام الموارد المتاحة.. كل هذا يؤدي بلاشك إلى السقوط الحضاري، وأن ذلك لم يتم في الماضي، ولا في المستقبل، بقرار من دولة ما، مهما كبرت، وإنما هو نتيجة الجمود الفكري لدى الأمم والشعوب، مما يؤدي بها إلى توقف خطواتها عن ابتعاث الحياة على أرضها.

ولذلك يجمع الباحثون على أن ما عم مناطق البؤس والقلاقل في العالم، لم يكن ليحدث إلا بسبب فقدان هذه المناطق للرؤية الاستراتيجية الشاملة، التي تجعلها تدرك حقيقتها، وحقيقة العالم من حولها، والدور الذي يجب أن تلعبه في موقفها منه.. وأن حكم هذه الأنظمة لا يقوم إلا على ظهر الإنسان، الذي هو بداية الطريق الأساسي، لصلاح المجتمع أو فساده.

ومن هنا، فإنه ليس من المستبعد ضمن الدورات التي سيمر بها العالم، أن تكون مناطق الحضارات القديمة، هي التي ستعود لتقود الحضارات القادمة.. ويعتبر الباحثون أن مقياس مقومات النهضة: هو الأخذ بالديمقراطية، أي الشورى، والحفاظ على كرامة الإنسان، وفك كل قيود على حريته الإبداعية الخلاقة.. على أن يتم ذلك في إطار الشرعية، وسيادة القانون والسلام والاستقرار.

ويتوجه د. حسن بالحديث إلى الأمة الإسلامية قائلاً:

إن الصراع الحضاري حتمي.. ولكن في النهاية لابد من قرار بالاستمرار في

المواجهة، وأخذ الأسباب، والتسلح في مواجهة الغد بتياراته وتقلباته، التي لن تفرق بين غني وفقير، أو بين أبيض وأسود، أو بين قزم وعملاق.. إنه الغد الذي يحمل نذيره لأصحاب الحضارة القويمة، التي فضلها الله سبحانه وتعالى، وجعلها نبراساً للعالم أجمع.

فلابد من الأخذ بأسباب القوة، والاستعداد للقادم الجديد.. وإلا سقطت الأمة الإسلامية حضارياً وعقائدياً.

التكامل ضرورة لمواجهة التكتلات العالمية:

بعد أن استعرض عالمنا الخبير، المناخ العالمي الذي يعيش فيه المسلمون، حيث يفرض عليهم هذا المناخ تحديات كثيرة.. بدأ د. حسن في وضع الخطوات الإصلاحية لمواجهة تلك التحديات، وهو ما نسجله فيما يلي حيث قال:

إذا نظرنا إلى عالمنا العربي، أو توسعنا لنشمل رقعة العالم الإسلامي، لوجدنا مجموعة من الدول، تمتلك من الإمكانيات البشرية والطبيعية (الزراعية والصناعية والمنجمية والبترولية والبحرية والجغرافية، ما يمكن أن يوفر لها طاقة إنتاجية، وقوة دولية، ووضعاً سياسيا واجتماعياً واقتصادياً، **يمكنها أن تكون في مصاف التكتلات العالمية الكبرى** (الآسيوية والأوروبية والأمريكية) لو أحسنت استغلال كل هذه الطيبات التي منحها الله إياها.

والملاحظ أن لكل من البلاد الإسلامية طاقتها وقدرتها وأمنها، الذي يبلغ حداً لا بأس به على مستويات مختلفة. ولكن لو تخيلنا أن هذه الدول قد تعاونت وتكاملت مع بعضها البعض في هذه المجالات، بدلاً من عزلتها.. لبلغت هذه الدول شأناً بعيد المدى، ولزادت إنتاجيتها وطاقاتها وثقلها، أضعافاً مضاعفة.

ونحن لا ندعو إلى أن تتحد هذه الدول سياسيا، **وإنما ندعو إلى أن تفسح المجال لإمكانيات انسياب أموالها وسكانها وثرواتها الطبيعية، في إطار تكاملي،** على النحو الذي سنشير إليه فيما بعد.. لأن الدولة الواحدة التي قد تواجه تحديات محلية أو إقليمية أو سياسية، قد لا يمكنها، بل يستحيل عليها مواجهة تلك التحديات،

إلا بالتعاون مع غيرها، دون أن تفقد كيانها أو ذاتيتها أو استقلالها، بل على العكس، تدعم بعضها بعضاً، كما هو حادث الآن في التكتلات العالمية الأوروبية أو الأمريكية.

فأوروبا الغربية بتعاونها مع بعضها تكنولوجيا ومالياً، وتخفيف المنافسة بينها، بل وتشجيع حجم التجارة بينها، جعل منها كتلة إقليمية، تكاد تتفوق على أمريكا.. وهناك ظاهرة خطيرة تسود العالم الآن: وهي التوسع الكبير في انضمام الشركات المختلفة إلى بعضها البعض.. حتى أن الشركات الكبرى التي كنا نظن أنها ستنقسم إلى شركات مختلفة لكبرها، والتي يزيد إنتاجها عن عشرات البلايين من الدولارات، مازالت تتفاوض في الانضمام إلى شركات لا تقل عنها حجماً، حتى شمل ذلك البنوك، مما سيجعل من العسير على الشركات المتوسطة أن تنافسها، أو تقوى على أن تأخذ مكانها في أي بلد ما.

وكل هذه التغيرات على الساحة العالمية، تفرض على الدول الإسلامية سؤالاً في غاية الأهمية وهو: أين نحن من تلك التكتلات العالمية؟

وهذا السؤال يفرض سؤالاً آخر، لا يقل عن السؤال الأول أهمية بل هو نتيجة الإجابة عنه، حيث سنجد أنفسنا متفرقين مبعثرين، ليس هناك مؤسسات مستقلة، غير متأثرة بالتغيرات السياسية، التي تقضي فجأة على كل محاولات التعاون والتكامل.. ولذلك فالسؤال المطلوب الإجابة عنه هو: **كيف نمد جسور التعاون والتكامل بين الدول الإسلامية بحيث تصبح متينة قوية تواجه كل التحديات العالمية؟**

وهو ما سيجيب عليه أستاذنا الفاضل د. حسن عباس زكي فيما يلي:

كيف نمد جسور التعاون التكاملي بين البلاد العربية والإسلامية؟

- إن ما نعانيه الآن في عالمنا العربي، **هو المخاوف والشكوك بعد أزمة الخليج، مما أدى إلى تفكك خطير في الصف العربي، في مجالات كثيرة.** وهذا أثر على التقدم الذي كنا نسير فيه، في تنقية الأجواء، وخلق تعاون في شتى المجالات، رغم إدراكنا أننا في أشد الحاجة إلى تنمية شاملة، على مستوى كل دولة، وعلى

مستوى العالم العربى، ثم العالم الإسلامى، بتدرج حكيم وحاسم ومدروس، بعيداً عن التأثر بالأحداث السياسية.

- **ويمكن تحقيق ذلك بين بعض الدول، وليس كلها، تبعاً للثقة والطمأنينة،** بحيث تكون هذه الدول نواة للتوسع فى مجال التعاون التكاملي.. وها نحن نرى كيف أن الدول الأوروبية التى حاربت بعضها عشرات السنين، تطوى هذه الصفحة من تاريخها، وتنظر إلى مصالحها المشتركة، لكى تقيم صناعة قوية، ومؤسسات مالية وتجارية ضخمة.. ونحن أولى بنبذ الصراعات الجانبية، والاهتمام بقضايانا المصرية.

- **لذلك لابد من تمكين الأجهزة والمؤسسات العربية، وفى مقدمتها جامعة الدول العربية ومنظماتها، من العمل باستقلال وفاعلية..** عن طريق إعادة النظر فى تقييم مؤسساتها، لإبعادها عن التأثر بالعوامل السياسية، على النحو الذى سنقترحه، بأن تكون لهذه الأجهزة استقلالية وحرية حركة، مع ضرورة توثيق أواصر العلاقات الاقتصادية مع الدول النامية، ودول عدم الانحياز..

- **والاهتمام بقضايا الموارد المائية فى العالم العربى،** لأنها تدخل الآن مرحلة حرجة، تحتاج إلى تكتل الجهود لمعالجتها، **وتشجيع المشروعات العربية المشتركة،** ودراسة أسباب فشلها فى الماضى، لكى نتجنب ما وقعنا فيه من أخطاء. ويجب إعادة النظر فى الشركات العربية المشتركة التى تكونت، وكثير منها مازال يتعثر، ولم تعمل على حل ما تواجهه من مشاكل، مع التركيز على المشروعات الناجحة، وتصفية الشركات التى لا يرجى نجاحها.

فهناك الشركات العربية للملاحة، وشركة البوتاس، والمؤسسة العربية للاتصالات، والشركة العربية البحرية لنقل البترول، والشركة العربية لبناء وإصلاح السفن، والشركة العربية للاستثمارات البترولية، والشركة العربية للتعدين، والشركة العربية لتنمية الثروة الحيوانية، والشركة العربية للصناعات الدوائية.

فلماذا لا نشكل فوراً لجنة علمية على أعلى مستوى، لبحث موقف كل شركة، واتخاذ الإجراءات اللازمة لدفعها، أو إصلاحها أو تصفيتها؟

ولابد أن تدار هذه المشروعات على مستوى القطاع الخاص، الذى يحسن أن يسمح له بالاشتراك فيها، لكى تخرج من المستوى الحكومى، إلى المستوى العملى (مستوى السوق).. وقد أصبح من الضرورى أن نعيد النظر فى تكوين وتشكيل هذه الشركات.. كما أن المجالس الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى شكلت فى إطار الجامعة العربية، حال دون إمكان تحقيق الأغراض التى أنشأت من أجلها، أنها كانت تعكس دائماً فى عملها العلاقات السياسية بين الدول، بل وحتى المزاج الشخصى للمسئولين، وهذا أمر لا يخدم الشعوب، ويهدر رؤوس الأموال العربية، ويفقد الثقة فى التعاون الاقتصادى العربى.

- **ولابد أن يحل محل هذه الشركات مؤسسات مرنة، يشارك فيها القطاع الخاص:** فمثلا لابد من إنشاء بنك تنمية عربى، تشارك فيه الصناديق العربية ورجال الأعمال العرب. كما لابد أن نفكر فى زيادة رؤوس أموال صندوق النقد العربى، وشركة ضمان الاستثمار. كما يجب أن ننشىء مراكز فى بلاد مختلفة، تبعاً لاستعدادها لاستغلال الثروات العربية. فمثلا مركز للتنمية البترولية والصناعات البتروكيماوية فى الإمارات أو السعودية، وآخر لمنتجات المناجم فى بلد عربية أخرى، وآخر للبحث العلمى ونقل التكنولوجيا. ولا يأخذ شكل اتفاقية، ولكن شركات يساهم فيها القطاع الخاص والبنوك. وليس من الضرورى أن تشارك كل الدول فى كل شركة من هذه الشركات، حتى يسهل التنسيق واليسر وسهولة الإدارة، ويكفى أن تشارك بعض الدول فى شركة ما، ودول أخرى فى شركة ثانية وهكذا، ويترك الأمر لمن يرغب.

- **أما مراكز الأبحاث والدراسة:** سواء كانت الكيماوية، أو الهندسة الوراثية، أو الصناعة الثقيلة، أو صناعة الأسلحة، فهذه يجب أن تتم على أساس خلق معاهد علمية على أعلى مستوى، ولا تخضع للأنظمة الحكومية، لإمكانية تعبئة العقول العربية، لأننا كثيراً ما نلاحظ إمكانيات فنية علمية ضخمة، لدى بعض الأفراد الذين لا يجدون فى دولهم لا المناخ العلمى، ولا القدرة على جذب العلماء من الناحية المالية.. ولابد من أن تعبأ هذه الجهود والطاقات، على مستوى قدرة الدول التى يمكنها أن تستوعبها، بدلاً من هجرتها إلى خارج المنطقة العربية..

ولبنك التنمية الإسلامية تجربة بدأ فيها حديثاً في هذا المجال، ويحسن دراستها والسير على هداها.

- **وأخيراً لابد أن يبدأ تنفيذ هذه الاقتراحات عن طريق تجمعات بين الجامعات والمؤسسات العربية ومراكز البحوث:** لوضع خطة تعطي لمن يرغب في تنفيذ هذه الإجراءات.

المقومات الأساسية لدعم التعاون المشترك

تشجيع الاستثمارات البينية:

- من المهم أن تتضافر الجهود من أجل **تشجيع الاستثمارات البينية**، بين البلدان العربية والإسلامية. ولا ينبغي أن يكون الحديث ذا بعد واحد، يهتم بانتقالات رؤوس الأموال فقط، بل لابد وأن تراعي الرؤية المتكاملة لانتقال الاستثمارات، كعملية متكاملة ينبغي وأن تتوافر لها مقومات النجاح، وتوافر الأطر اللازمة لإنماء دور المؤسسات المالية والمستثمرين فيما بين البلدان العربية والإسلامية.
- ولابد من **خلق مناخ الاستثمار المناسب**: من حيث سرعة البت، وتخفيف القيود، وإلغاء العوائق، وقصر العمل الروتيني على أدنى حد ضروري. والأمر ببساطة هو: دراسة الامتيازات التي تمنحها الدول المختلفة، إلى المستثمرين في آسيا وأوربا وبعض الدول العربية، والعمل على تطبيقها فوراً.
- ونحن نحتاج أولاً وقبل كل شيء، **إلى تغير فكري** في عالمنا العربي إزاء المستثمر. والمشكلة أن التغير الإداري يصدر بقانون أو قرار، أما الفكري فإنه أسلوب ومنهج وسلوك. فمثلا البيروقراطية التي مازالت تكون عائقاً كبيراً بين الموظفين، وخاصة الصغار بينهم، تثير أي مستثمر من حيث تحكمهم في سير

الأوراق وتوقيت البت، وهذا شبح عقيم يفزع أى مستثمر، ولابد من القضاء عليه بالأساليب الحازمة.

- ويجب أن نعمل على **تشكيل تكتلات إقليمية**: تجمع المشتغلين بالسلع الأساسية، التى تحتاج إلى تعاون مشترك، مثل الألومنيوم والحديد والملابس الجاهزة والكيماويات. فمثلا الألومونيوم: تنتج كل من البحرين والإمارات ومصر حوالى ١٥٪ من حاجة العالم منه. وهذه الدول تواجه أساليب إغراق قد تعصف بصادراتها، ولكن لو تجمعت جهود هذه الدول سوياً، وتعاونت فى دراسة الوسائل التى تكفل مواجهة هذا الإغراق، فإنها يمكنها مجتمعة الضغط على الجهات المختصمة، وكشف مثل هذه الأمور وتعقبها والقضاء عليها. وليس من الميسور أن تقوم كل دولة على حدة، بمثل ما تقوم به هيئة واحدة مجتمعة، لديها كل الإمكانيات.

- **والاستثمارات العربية الخارجية**: تبلغ قيمتها ما يربو على ٨٠٠٠٠٠ مليون دولار وهى تمثل احتياطيات نقدية معظمها بالدولار، ثم استثمارات فى ودائع أو أذونات خزانة دولارية، أو عقارات أو استثمارات فى شركات، ولكن معظمها فى الولايات المتحدة. **وليس من المصلحة أن تكون هذه الاستثمارات فى عملة واحدة**، بل يجب أن تتنوع بين الدولار والمارك والين والإسترلينى والفرنك الفرنسى، وغيرها من العملات.

ثم لماذا لا يقوم بعضها فى عملات عربية قوية، كالريال السعودى ودرهم الإمارات، مع خلق أسواق مالية تستوعب جانباً منها، فالحكمة السياسية تقضى أن لا تكون هذه الأموال كلها بعملة دولة واحدة، وتكون معرضة لإجراءات المصادرة أو التجميد، أو ما إلى ذلك لأى سبب سياسى.

- ومن هنا بات من الضرورى **دراسة خلق فرص الاستثمار** فى بلاد مختلفة، وليس بلداً واحداً ويدخل فى ذلك الاستثمار البينى، أى بين الدول العربية والإسلامية، بالقدر المناسب والملائم، وتبعاً لإمكانية امتصاص السوق، وتوافر المناخ الملائم سياسياً واقتصادياً ومالياً، مع خلق المصالح المشتركة التى يستفيد

منها الطرفان: المستثمر والبلد المستثمر فيه الأموال.. مع تشجيع المنظمين العرب على الانتقال بأفكارهم، بين الدول وبعضها، بغية العمل على تنمية التكامل بين اقتصاديات البلدان العربية.

العلاقات التجارية:

يعتبر اللقاء الإنسانى فى إطار العمل التجارى والاقتصادى، ركن أساسى من أركان نجاح النشاط الاقتصادى.

ونجاح العلاقات التجارية فى تكوين الأعمال، والوصول إلى نتائج ملموسة فى النشاط الاقتصادى، من الأمور التى ينبغى أن تتهيأ لها أرضية مناسبة، **من وسائل التعارف والاتصال الحديثة بين رجال الأعمال**، فى المنطقة العربية والإسلامية. وقد كانت الشكوى تثار بين الحين والآخر، فى أنه لا توجد اتصالات كافية للتعارف التجارى، بين الدول العربية وبعضها البعض، وتعثر المؤسسات والهيئات دون تنسيق بينها، ولا يوجد دليل تجارى لكل دولة، يكفل تيسير سبل الاتصال، وتنمية العلاقات التجارية، بين البلدان العربية والإسلامية.

وقد حاول البنك الإسلامى للتنمية فى جدة، أن يشجع التعاون التجارى بين الدول الإسلامية، عن طريق التوسع فى الإقراض للدول التى تصدر إلى بعضها من الدول الإسلامية، وتشجيع التجارة الخارجية البينية. مما أدى إلى نمو الاتصال والتعارف بين هذه البلدان، ونمو شبكة التعاملات فى تناسب طبيعى مع حجم الأعمال.

والمطلوب فى هذا الإطار: **أن تتكامل الجهود للربط الإنسانى فى العلاقات التجارية**.. بتنمية التعارف بين مجتمعات الأعمال، فيما بين البلدان العربية الإسلامية وبعضها البعض. كذلك التوسع فى المعارض ولقاءات رجال الأعمال والصناعة، والتوسع أيضاً فى أن تصدر كل مجموعة من المراكز الصناعية كتالوج، يشمل بيان مصور بإنتاجها وأنواعه، وتنمية سبل تبادل المعلومات ووسائل التجارة، وأسلوب الشحن، وطريقة تسوية المعاملات، والخلفيات المتعلقة بالأعمال وما إلى ذلك.

مواجهة التحديات الاقتصادية:

إن التطورات والتغيرات التى طرأت على العالم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، تحتم على الدول العربية والإسلامية مجتمعة، أن تعمل على مواجهتها، لأنه لا سبيل فى هذا العصر، أن تتمكن دولة بمفردها، أو مؤسسة صغيرة وحدها، من مواجهة التحديات، التى أصبحت من القوة، بأنها تضعف من لا قدرة له على مواجهتها. ومن الضرورى أن تشارك المؤسسات الإقليمية: السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية، فى دراسة الخطط الواجب إنتاجها، لتحقق السلامة فى هذا الجو العاصف، وأن ترسم استراتيجية متكاملة تكفل تحقيق ذلك.

وما من شك أن الدول العربية والإسلامية تواجه صعوبة فى زيادة حجم التبادل التجارى فيما بينها للأسباب الآتية:

١- اختلاف النظم التجارية والنقدية بينها وبين بعضها، سواء من حيث انتقال السلع أو الخدمات، أو الأشخاص أو الأموال.

٢- أن نظمها النقدية بعيدة عن بعضها البعض.

٣- عدم توافر التعارف التجارى بينها، سواء مباشرة أو عن طريق الزيارات والمعارض والاجتماعات المشتركة، بين الغرف التجارية والزراعية والصناعية، مع بعضها البعض.

٤- أن المؤسسات والهيئات المختلفة لم تستوعب بعد طبيعة النظام الذى يسير العالم نحوه مجبراً، ومتأثراً بفعاليات الدول الكبرى، التى تحرص أولاً وأخيراً على صالحها المشترك. حتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بمصالح الدول الأخرى، وخاصة النامية.

٥- أن الدول العربية شأنها شأن الدول النامية، تفتقر التنسيق العلمى، والدراسات الصريحة، لما يجب أن تعد نفسها له فى السنوات التالية، وخاصة بعد إقرار اتفاقية الجات وغيرها، من الاتفاقيات المالية والمصرفية، التى تقودها الدول الأوروبية.

خطوات على طريق مواجهة التحديات:

- لم يعد الآن من الإمكان أن تظل **المؤسسات الوطنية** بمعزل عن التأثر بما يجرى فى العالم، اعتماداً على نظم أو دعم أو أفضليات خاصة، فقد انقضى هذا العهد. وعلى الدول أن تعد نفسها لمواجهة ذلك، عن طريق توسيع التجارة والتعاون الاقتصادى بين بعضها البعض، مع مراعاة أن الكساد والتضخم والركود، أصبحوا ظواهر تتسرب إلى الدول كأى سلعة، لانفتاح العالم وارتباطه ببعضه.
- كما أن **الاتفاقيات المختلفة بين الدول العربية** تحتاج إلى إعادة نظر. حتى لا تفرغ من مضمونها وتفقد فعاليتها: فمثلاً اتفاقية السوق المشتركة وتشجيع التجارة البينية وغيرها، كل هذه لا قيمة لها، لأن الدول العربية مازالت تستورد نفس السلع من خارج المنطقة، الأمر الذى لا حل له، إلا إذا توسع دور الاستثمار العربى داخل المنطقة، لكى يعمل على زيادة النمو والإنتاج الزراعى والصناعى والمنجمى، والخدمى (سياحة وتأمين وملاحة وبنوك وغيرها) وبالتالى يمكن حينئذ أن نتوقع إمكانية زيادة التجارة بين الدول العربية. ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة: فإن زيادة الاستثمار فى بلد، قد يؤدى إلى تأمين إنتاج القمح فى العالم العربى، ووقف استيراده من خارج المنطقة، وبالتالى زيادة التجارة الخارجية داخل المنطقة. وكذلك المنتجات البترولية والبتروكيماويات والأدوية والأسمدة وغيرها، إذا توسعنا فى إنتاجها فى دول الخليج المنتجة للبترول.

ولكى يتحقق ذلك لابد من دراسة أنسب البلاد لتحقيق ذلك بتعاون مشترك، يستفيد منه الجميع، وبذلك يمكن استغلال الموارد العربية أحسن استغلال، وتحقيق زيادة فى الإنتاج والعمالة، وتأمين الاستثمارات العربية داخل المنطقة. وهذا لا يجب أن يستمر داخل اتفاقيات حكومية، ولكن يمكن أن يعالج على مستوى السلع، أسوة بما بدأت به المصالحة داخل أوروبا بعد الحرب، فى أوائل القرن الحالى، بمشروع شرمان للحديد والصلب وغيره، حيث أن الدول الأوروبية التى كانت أعداء لبعضها البعض، تحولت إلى أصدقاء وذوى مصالح مشتركة. فالأمر يحتاج إلى دراسة على مستوى إنشاء شركات كبرى فى مجال

الحديد والصلب والأسمدة، واستزراع الأراضـى وإصلاحها، واستغلال المناجم وغيرها من مجالات، بما فى ذلك إنشاء بنوك عربية كبرى مشتركة وشركات سياحية، واستغلال بحرى وجوى، وما إلى ذلك. وسر النجاح يكون لا فى دراسة ذلك فى المسار الحكومى، ولكن تحويل ذلك إلى شركات مشتركة كما سبق أن أشرت، وهذا يتم بتشجيع اللقاءات بين الغرف التجارية الصناعية والزراعية، ورجال الأعمال ورجال البنوك.

- كما أن **الاتحادات والمؤسسات المختلفة**، لم تعمل على الاستفادة من بعضها البعض، للتعرف على أحسن فرص الاستثمار فى المجالات المختلفة، وتجميع المستثمرين كل على حدة، الذين يرغبون فى أنواع معينة من الاستثمار، والعمل على عقد اجتماعات بين من يرغبون فى المشاركة، واستكمال الدراسات الخاصة بالجدوى، وما إلى ذلك.

- كما أننا الآن فى **عصر المعلومات**. ومن أهم المقومات الأساسية لأى تعاون مشترك، ودعاية داخلية، وتعارف تجارى: العمل على توسيع نشاط المكتب المركزى العربى للإحصاء الملحق بجامعة الدول العربية، والعمل على تدعيمه إحصائيا وتكنولوجياً، ليصير منبعا مهما، للحصول على المعلومات الضرورية، لزيادة التعاون بين الدول العربية، ولدينا الآن مجلس الوحدة الاقتصادية، الذى يجب أن يتطور بما يلائم الظروف الجديدة، وبما يكفل له المشاركة فى تبصير المستثمرين والتجار ورجال الأعمال والصناعة، وإعداد الاجتماعات اللازمة لهذا الغرض، مع تدعيمه ليكون له المكان البارز والملائم، لتنفيذ الاستراتيجية التى يجب رسمها، لدفع عجلة التنمية والتجارة والشئون المالية، بين الدول العربية وبعضها.

- وقد اطلعت على بعض **الأفكار التى نادى بها مجلس الوحدة الاقتصادية**: من إنشاء منطقة تجارة حرة عربية كبرى، أو أكثر من منطقة، بعد دراسة جيدة، وإقامة شركة عربية للتسويق، ودراسة التوسع فى الصفقات المتكافئة، والتوسع فى التعارف التجارى والترويج لنقل السلع والخدمات بين الدول، وإنشاء شركة عربية مشتركة للشحن الجوى، وللتعبئة والتغليف، وإقامة أرصفة للشاحنات،

ودراسة إمكانية التوسع في إنشاء أسواق المال، في البلاد التي تتمتع بوجود سوق مال ناضج نسبياً، مع السماح بالتعامل في هذه الأسواق للدول المختلفة، لدفع حركة انتقال رؤوس الأموال للاستثمار في البلاد العربية، بدلاً من الدول الأخرى. ولكني أرى أن يتم ذلك كله لا في إطار الاجتماعات الحكومية، ولكن بمشاركة القطاع العام المختص.

◆ وهنا أيضاً تبرز أهمية **متابعة شروط التعامل مع الخارج دولياً**: فمثلاً التوحيد القياسي والمواصفات الدولية، والشروط الجديدة لمقومات التجارة الخارجية.. كل هذه أمور استجدت علينا، وكثير من الدول العربية، مازال بعض المنتجين فيها، ينقصهم معرفة هذه الشروط والأوضاع، والتي في حالة غيابها، تضيع أسواق التصدير من البلاد العربية، لأن مواصفات إنتاجها غير مقبولة في الدول الأوروبية. وهذا يحتاج إلى دراسة عميقة، وعمل تدريبات، وحلقات بحث فنية، لتبصير المنتجين.

التكتلات الاقتصادية وآثارها على الدول الإسلامية:

إن من أهم معالم وسمات التحولات الاقتصادية في التسعينات: هو التكتلات الاقتصادية الدولية، التي قادتها الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا.

فقد شهد العالم خلال هذا العام: توقيع اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا) لكي تصبح من أكبر الكتل التجارية العالمية. كما أن أوروبا اتفقت على إنشاء المنطقة التجارية الأوروبية. وسترتبط دول الاتحاد الأوروبي الإثنى عشر، مع خمس دول أخرى هي النمسا وفنلندا وأيسلندا والنرويج والسويد. أي تشمل كل دول العالم التي ستوقع عليها، لتنفذ في سنة ١٩٩٥. كما أن هناك تكتلات آسيوية يدور البحث بشأنها.

وأننا نود أولاً أن نشير إلى أهمية هذه التكتلات، التي أصبحت تحكم النظام الاقتصادي والتجاري العالمي، والتي يجب على الدول الإسلامية دراستها بتأني وعمق، للعمل على الاستفادة بما فيها، ومواجهة أخطارها، والاستعداد لكي نتجاوز هذه الموجة، التي ستؤثر حتماً على مستقبل التجارة.

سلبيات وإيجابيات اتفاقية الجات:

إن مواجهة التحديات التى خلقتها اتفاقية الجات، أثار ردود فعل واسعة، وعلى كافة المستويات.. فرغم الانفراجة الكبيرة فى إزالة الحواجز الجمركية والقيود الكمية والإجرائية، على حركة التجارة بين الدول، إلا أنه ألقى ببعض الظلال على الجانب الآخر. كذلك فمن المؤكد أن عام ١٩٩٤ وما بعدها سوف يشهد انطلاقة كبيرة فى مجال تحرير التجارة الدولية، وتحقيق قدر أكبر من الانسيابية والتوازن فى جودة المنتج، وتحقيق مستوى مجزى للأسعار، والحماية من الإغراق، والبحث عن سبل جديدة، لتنشيط حركة الواردات والصادرات بين الدول.

ولكن **نقطة الضعف الظاهرة** فى بنود اتفاقية الجات ١٩٩٤: تنصرف إلى اقتصاديات الدول النامية، ومدى مقدرتها على التكيف مع النظام الجديد، لتحرير التجارة الدولية، وعدم القدرة على المنافسة، أو كسر الاحتكارات، والدخول إلى أسواق جديدة، والحفاظ على أسعار حاصلاتها الأولية فى السوق الدولية.

وقد يبدو أن اتفاقية الجات ١٩٩٤ تحمى حرية التجارة، وتحافظ على مصداقية أطراف التبادل الدولى، وموقف الدول الغنية من مجريات التبادل الدولى، وسيولة وانسيابية التعامل على أسس تحمى نظام التجارة الدولى.

إلا أنه بالرغم من المزايا التى تحققها هذه الاتفاقية، إلا أن هناك من المحاذير ما سيؤثر على الدول النامية تأثيراً كبيراً، ما لم نتخذ من الإجراءات ما يمكننا من مواجهة أخطار هذه الاتفاقية على الوجه الآتى:

- أن العبء الذى يقع على عاتق الحكومات هو: تشجيع القطاع الخاص والارتقاء بقدراته وكفائته، ليتمكن من أن ينافس فى هذا الميدان الخطر، ثم العمل على حمايته من المنافسة غير المشروعة، من سياسة الإغواء، والإجراءات المستترة، التى بدأت تظهر تحت اسم الإجراءات البينية، ومتطلبات التغليف، وربط التجارة بحقوق الإنسان، والمعايير الدولية للعمالة وحقوق العمال. كما يجب تبصير القطاع الخاص بظروف المنافسة التى سيواجهها.

ويلاحظ أن أمريكا أعدت لهذه الاتفاقية من بضع سنوات، وأعدت لها بعد أن

هبط مستوى كفائتها الإنتاجية، وحقها من التجارة الدولية، وتقدم اليابان وألمانيا فى كثير من الميادين، وزيادة عجز ميزانها التجارى، وبدء ظهور الصين كقوة دولية، تضاف إلى النمور الآسيوية.

- وقد نجحت الولايات المتحدة إلى حد بعيد فى التأثير على الدول الأوروبية، لتحصل على ما وصلت إليه فى هذه الاتفاقية، خاصة بالتجارة فى الخدمات، واتفاقية حقوق الملكية الفكرية، واتفاقية الاستثمار، وتقاسمت الدول الكبرى المزايا، ووزعت على بعضها البعض الشروط والأوضاع، التى تكفل لها أن تحصل على حصة الأسد من التجارة العالمية.
- كما أنها قضت على ما كانت تحصل عليه الدول النامية من مميزات وأفضليات فى التجارة، كما أنها نجحت فى إدخال معايير دولية أكثر شدة، تستهدف حماية الملكية الفردية، دون اكتراث بحق الدول النامية فى التنمية، وحرمان شعوبها من الاستفادة من الاختراعات الحديثة، إلا بعد دفع الثمن الباهظ الذى لا تقوى عليه، وبذلك أصبح نقل التكنولوجيا الضرورية للعالم النامى، عبئاً ثقيلا على الدول النامية.
- ولقد تضمنت اتفاقية الجات عدة اتفاقيات فى منتهى الأهمية، وهى جزء لا يتجزأ منها.. والدولة الموقعة على الاتفاقية، تعتبر أنها قبلت كل نصوص الاتفاقية، ولا مفر لها من إمكان الإفلات منها حتى ولو جزئياً.

من تلك الاتفاقيات: هناك اتفاقية الزراعة – واتفاقية الملابس والمنسوجات واتفاقية الحواجز الفنية للتجارة – واتفاقية التجارة المرتبطة بالاستثمار – واتفاقية التفتيش قبل الشحن – وقواعد المنشأ – وإجراءات فتح تراخيص الاستيراد – وإجراءات مكافحة الإغراق – واتفاقية الخدمات، واتفاقية حقوق الملكية – واتفاقية المنازعات.

كيف نواجه تحديات اتفاقية الجات؟

- يتعين علينا أن ندرس هذه الاتفاقيات، وأن نشكل بنوك فكر على مستوى عربى رفيع، لدراسة كل اتفاقية على حدة، وأثرها وكيفية مواجهة ما بها من أمور،

سواء عن طريق استهلاك كل حقوقنا منها، أو إعداد كياننا الاقتصادى والتجارى ليرتفع إلى المستوى المطلوب. وليس أدل على ذلك من اتفاقية الملابس الجاهزة، التى هى مثار مفاوضات شاقة بين مصر والولايات المتحدة، التى تعمل على خفض حصة مصر.

- وعلينا أن ندرك الآن: **أن العالم يحكمه اقتصادياً ثلاث منظمات، ذات أهمية كبيرة، وتأثير خطير**، وهى: البنك الدولى للإنشاء والتعمير –وصندوق النقد الدولى– وأضف إليها الآن: المنظمة الجديدة للتجارة. والتى أصبح من شأنها التطرق إلى المشاركة فى السياسات الوطنية للدول، فى المجالات السابق الإشارة إليها، بل وإدماجها تحت عنوان البيئة الدولية، وغيرها من التعاريف.. فكما أن معيار حقوق الإنسان أصبح وسيلة للتدخل فى شئون كثير من الدول، بل ووضع عقوبات ضدها، فكذلك هناك من المعايير التجارية، والخاصة بحقوق الملكية والخدمات وغيرها، وسائل تكفل مثل هذا التدخل.
- كل ذلك يدعونا إلى ضرورة **فهم بوعى عميق هذه الاتفاقية**، وكيفية التعامل معها، حتى نستفيد منها إلى أقصى درجة، كلما أمكن ذلك، واتخاذ الإجراءات الداخلية، التى تكفل لإنتاجنا وسلوكنا، عدم الوقوع فى طائلة العقوبة، أو الخروج من السوق العالمى، والإضرار بتجارتنا الخارجية.
- من هنا يجب أن نركز على أهمية خلق **تكتل عربى**: مثلما هو حادث فى أمريكا وأوروبا وآسيا. يكفل دعم القوة الذاتية لهذه المنطقة، ويكفل لها السلامة، إزاء هذه التيارات الجارفة، التى لا تقوى الدول بمفردها على مجابهتها.. مع ملاحظة أن التكتلات الاقتصادية الإقليمية، لن تكون مجدية، إلا فى إطار التعاون الدولى، والانسجام مع معطيات المد الكبير للتعامل، على أساس الاتفاقية، وبما يدعم الحرية، ويقلص من الاتجاهات الحمائية، التى قد تصدر من أعضاء الاتفاقية من هنا أو هناك.. ولابد من التنسيق بين التكتلات الاقتصادية الإقليمية، والعمل العام المشترك على مستوى التحرير الكلى للتجارة الدولية.
- ويلاحظ أن قوة وفاعلية السلطات المحلية، **فى إعادة توجيه حركة التجارة**، لن تتأتى إلا بالتماسك والتعاون الدولى، على أرضية مشتركة من التفاهم وتبادل

المصالح، وحماية النظام العام للتجارة الدولية، وبما يحقق مجموع مصالح الدول الأعضاء. وهو الأمر الذى يلقى بكامل الدفة، فى يد حسن الإدارة للعلاقات الاقتصادية الدولية.

ولذلك لابد من معالجة هذه الصعاب بالآتى:

- **التدرج فى تطبيق اتفاقية الجات ١٩٩٤:** وطلب مهلة انتقالية مناسبة للتطبيق الكامل لاتفاقية الجات، أسوة بما يتبع مع كل من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى.. حيث أنه فى هذه الفترة الانتقالية: يمكن أن تتوحد الهياكل الإنتاجية، ونظم الاستيراد والتصدير، ونظام المدفوعات والمتحصلات، بشكل يضمن الاستقرار، ويحقق الفاعلية لاتفاقية الجات، ويضمن سلامة أداء الاقتصاد العربى والإسلامى، على أساس من الاستقرار ورعاية المصالح المتبادلة، والتكافؤ والندية فى التعامل مع العامل الخارجى.
- أنه من الممكن **التعامل مع نظام الحصص** التى أوردتها الاتفاقية للدول الأعضاء، فى مجالات السلع المختلفة، بحيث يمكن الاستفادة من التعامل مع الدول التى لها حصص لم تستغل، واستغلالها من الباطن، مقابل عمولة أو هامش متطوع من الحصة، بشكل يضمن كفاءة التخصيص للحصص فى التجارة الخارجية، ويزيد من كفاءة الصادرات العربية والإسلامية، والقدرة على زيادة الصادرات، وتعميق التعاون الدولى، فى مجال التجارة الخارجية، على أساس من تبادل المصالح والمنافع، على المستوى الدولى.
- **تطوير هياكل الإنتاج المحلى فى الزراعة والصناعة:** بشكل يتمشى ونظام تخصيص الحصص فى التجارة الدولية، على أساس اتفاقية الجات.. فعلى سبيل المثال: يمكن التوسع فى زراعة القمح وتحقيق الاكتفاء الذاتى منه، بدلاً من التخوف من زيادة أسعار القمح العالمية، ومصاعب الحصول على الاحتياجات من القمح من السوق الخارجى.. كذلك يمكن تطوير الهياكل الإنتاجية، بزيادة كفاءة التخصص فى السلع، التى تتمتع فيها بمزايا نسبية.. كرخص السعر، الجودة، وتواجد مستهلك خارجى (مستورد) ويحقق كفاءة فى التصدير فى إطار

الاتفاقية، وذلك بالتوسع في إنتاج هذه السلع، وزيادة الاستثمارات في مجال نشاطها، وفي نفس الوقت التوسع في الإنتاج المحلي، بغرض إشباع احتياجات السوق الداخلي، على أساس من المزايا النسبية التي يتمتع بها المنتج المحلي، والحفاظ على رخص أسعاره وجودته، بشكل يقوي المنتج المحلي، أمام المنافسة الأجنبية الشرقية.

- **تدعيم المناطق الحرة والتوسع فيها:** حيث أنها تتمتع بكامل الحرية في التصدير والاستيراد. ويمكن من خلالها زيادة الصادرات وتنميتها دون قيود. ومن الممكن زيادة المناطق الحرة، في المنطقة العربية والإسلامية، لتشمل أكبر قطاع ممكن، لتحرير المنتجين ورجال الأعمال، من قيود الصادرات المصاحبة للجات، ولتكون معبراً بين الاقتصاد المحلي والاقتصاد العالمي، بشكل يحقق مصالح المنتجين في المناطق الحرة.
- **تنمية الرأسمالية المحلية:** وزيادة فاعلية القطاع الخاص في التنمية، وتقديم كافة أشكال الدعم للقطاع الخاص، لارتياد أسواق جديدة، وتشجيع التصدير، وحمايته من مخاطر الإغراق من الشركات الكبرى، وقيام سياج آمن من الشعور بالمسئولية، لحماية الرأسمالية المحلية، لأنها أساس الإنتاج والاستيراد والاستثمار والاستهلاك والتصدير، لتتصدى بدورها للدور الوطني المنوط بها، لحماية الاقتصاد الوطني.
- **الإدارة الرشيدة للواردات العربية والإسلامية:** وليس في هذا المجال إشارة إلى الأخذ بنظام الحصص، أو فرض رسوم جمركية عالية على الواردات من السلع المختلفة، للحد من تزايد الواردات الغربية، لأن ذلك يخالف نصوص اتفاقية تحرير التجارة الخارجية.. ولكن يجب القول بأهمية التعاون بين الدولة ورجال الأعمال، من المستوردين ورجال التسويق في الداخل للاتفاق على حدود أدبية، لعدم التوسع في استيراد السلع الكمالية.. وفي واقع الأمر فإن الالتزام الأدبي سوف يكون أقوى من أي قوانين، إذا ما كان المنطق وسعة الأفق والكياسة، هي أساس عملية الإقناع للمستوردين، على المستوى غير الرسمي والرسمي. لاسيما وأنه ليس هناك فواصل كبيرة بين المستثمرين والمصدرين، ورجال الأعمال

العرب في المنطقة. ولعل أكبر مثل لذلك سوق اليابان، الذي لو أراد أن يمتنع عن استهلاك سلعة ما، لانتظم الجميع دون أي قرار أو قانون بحيث لا تجد هذه السلعة منفذاً إلى هذه البلاد.

- **تدعيم أسطول النقل الجوي والبحري:** ليأخذ حصته العادلة من حجم التجارة الخارجية العربية، والعمل على تقوية أسطول الناقلات العربية والإسلامية.. وكذلك الحال بالنسبة لأسطول النقل الجوي، الذي ينبغي أن يأخذ مكانه اللائق وسط الناقلين الجويين، للسلع العربية والإسلامية إلى الخارج . ويلاحظ أنه فيما يتعلق بالملاحة العربية، وصناعة النقل البحري، التي تتضمن صناعة السفن، وإنشاء الأرصفة في الموانى، وأرصفة الحاويات التي تعد، استكمالاً لنمو التجارة العربية مع العالم، تصديراً واستيراداً، فإن هذا أمر شديد الأهمية، لأن عالمنا العربي يحظى بمرافق في هذا المجال ذات أهمية استراتيجية كبيرة. خصوصاً وأن البلدان العربية قد قطعت شوطاً، لابد من استكماله بالتعاون مع الدول الكبرى، في إقامة صناعة السفن، وتدعيم أسطول النقل البحري العربي والإسلامي، والاتجاه إلى الاعتماد ذاتياً على الناقلين العرب..
- **فلابد أن تنمو صناعة السفن،** بما لا يتعارض واتجاهات النمو في أساليب تداول الحاويات، ووسائط النقل البحري ولابد أن تكون الموانى العربية والإسلامية على المستوى اللائق، والذي لا يجعلها متخلفة عن مثيلتها في الموانى العالمية. خصوصاً أن صناعة النقل البحري تواجه تحديات هائلة تتمثل في تركز ملاك السفن وأساطيل النقل البحري، في حفنة من الشركات الكبرى العملاقة، التي تتركز ملكياتها في الدول الكبرى، وتتحكم في أسعار وشروط نقل السلع والبضائع، عبر الموانى المختلفة.
- وأن أمامنا تحدى في **أسعار النقل البحري وشروطه**، وكفاءة الموانى وعمليات تداول الحاويات والسلع المختلفة، وتكنولوجيا الشحن والمناولة على الأرصفة، التي تتطور يوماً بعد يوم، ولابد من اللحاق بما يجري في الموانى العالمية الكبرى، مثل هامبورج وسنغافورة وهونج كونج وشنغهاي، وغيرها من الموانى العالمية.

- كما أنه لابد من **التوسع في إنشاء الموانى الجديدة**، وتطوير الموانى القائمة، وزيادة كفاءتها وتزويدها بالمرافق الحديثة المتطورة.. وقد شهدت مصر حركة تشييد في تطوير في موانيها، مثل ميناء بورسعيد والإسكندرية والسويس وغيرها، الأمر الذى يمثل استعداداً عربياً للنهوض بصناعة النقل البحرى.
- ومن الطبيعى أن يكون هناك اتجاه قوى **إلى إحياء السوق العربية المشتركة**، ووضعها على الطريق العملى، كمنفذ للعبور من قيود الجات، ومخرج للتعاون العربى، حيث اللا قيود. وبطبيعة الحال فإنه من الضرورى ونحن نطرق باب السوق العربية المشتركة، ألا يكون بنفس الرقابة والروح التى سادت فى الماضى، بل لابد من استلهام روح العصر، بمتغيراته وثوابته العديدة، حيث الأمل معقود على قيام منطقة تجارة عربية حرة، يتم من خلالها انتقال رؤوس الأموال والسلع والأفراد، دون أى قيود، رداً على التكتلات الاقتصادية الكبرى فى آسيا وأوربا وأمريكا.

وهكذا يتبين لنا أن التعامل مع اتفاقية الجات ١٩٩٤ ليس تعاملاً قانونياً بحتاً ذو بعد واحد، وإنما ينبغى إدارته على أساس شمولى، تجتمع فى طياته كافة الأدوات والسبل، لتحقيق صالح الاقتصاد العربى، على أساس من المصالح المتبادلة، والاجتهاد فى ارتياد المجالات الجديدة، وفق عملية الضمير الوطنى لمتخذى القرار، لصالح رفاهية الشعوب العربية والإسلامية، وحفز قدراتها على البقاء، وممارسة دورها على كافة المستويات.

مثال لدولة ناجحة:

لقد طرحنا بعض الملامح الخاصة بالتحديات التى تواجهها الدول العربية من الناحية الاقتصادية، وكيفية مواجهتها. ونرى أن نقدم مثالاً لدولة صغيرة، نجحت فى أن تبرز فى السوق العالمى، باتخاذ إجراءات يجب علينا أن ندرسها ونستفيد منها، وهى **هونج كونج:**

إن هونج كونج عدد سكانها ٦ مليون نسمة، وحجم صادراتها ١١٨ بليون دولار، تحتل المرتبة الأولى فى العالم، بالنسبة لتصدير: الملابس والحقائب والحلى

والساعات، ولعب الأطفال والإلكترونيات وغيرها.

الاستثمارات الأجنبية في هونج كونج ٣٦ مليار دولار. تحتل هونج كونج المركز الثالث في صناعة الخدمات (البنوك والتأمين والسياحة والنقل والفندقة والتخزين والاتصالات).. معدل النمو ٦٪ سنويا. متوسط دخل الفرد ١٧ ألف دولار. فائض الموازنة العامة السنوى ٥ مليار دولار. الاحتياطى النقدى بلغ ٣٢ مليار دولار. تمكنت هونج كونج من الوصول إلى كل ذلك خلال مدة عشرين سنة.

ويرجع ذلك إلى:

١- الحرية الاقتصادية الكاملة.

٢- استقرار المناخ الاجتماعي والسياسي.

٣- توفير بنية أساسية متقدمة.

٤- خدمات نقل متميزة، وميناء بأحدث المعدات، واتصالات دولية ممتازة.

٥- معدل الضرائب لديها لا يتعدى ١٧٪.

٦- الاهتمام بالعنصر البشرى وتنمية مهاراته.

٧- تشجيع الابتكار والاختراع، وتسهيل نقل التكنولوجيا.

٨- تنمية قدرات العمال وكفاءتهم.

٩- انخفاض الرسوم الجمركية ومعظم السلع معفاة.

١٠- التوسع فى الصناعات الصغيرة والمتخصصة، فى الصناعات الاستهلاكية وذلك بغرض التصدير.

ويلاحظ أن بهونج كونج حوالى ٤٦ ألف مؤسسة صناعية. يستخدم ٢٠ ألف منها، أقل من ٢٨ عامل ومستخدم.

١١- هناك مجلس لتنمية الصناعة، مكون من شخصيات صناعية، وممثلين للمنظمات التجارية والصناعية وقطاع التعليم. ومهمته تقديم المشورة والخدمات التكنولوجية للحكومة، حول سبل استجابة الصناعة للتطورات الدولية.

١٢- تقوم وزارة الصناعة بتقديم كافة المعلومات، عن الخدمات المعاونة للصناعة، إلى الصناع وفحص إنتاجهم.

١٣- التوسع فى المعاهد التعليمية الفنيـة، وتدريب القوى العاملة، وضمان جودة الإنتاج.

١٤- الترويج للاستثمار الأجنبى، وتوفير المعلومات، ومساعدة المستثمرين.

١٥- إنشاء مجلس الإنتاجية. ويوفر المجلس برامج تدريبية، واستشارات وخدمات دعم فنى، فى مجال الصناعة، وعمل دورات تدريبية فنية.

١٦- إنشاء شركة للتأمين على الصادرات. وهى تساعد فى تمويل المصدرين، والتأمين على صادراتهم، ومدى ما يتحملوه من خسائر.

وهناك بخلاف ذلك مؤسسات تجارية وصناعية مختلفة، تقوم بإزالة كل ما يعوق حركة التجارة وتشجيع المصدرين.

خاتمة:

فى واقع الأمر: إن ما سردناه إنما هو رؤية مستقبلية، لما ينبغى أن يأخذ به المسلمون من إجراءات، لمواجهة التحديات التى تواجههم فى شتى المجالات.

والأمر فى بديهية: واحدة يمثل الفعل ورد الفعل. فالغد يحمل فى طياته الكثير من ردود الأفعال، التى ينبغى الأخذ بأهدابها. والسؤال الذى نبدأ به هو **ماذا نحن فاعلون؟ وماذا يمكن أن نفعله لرد تلك التحديات، والسير فى دروب المواجهة، والسعى لاستعادة سلطات الأمة الإسلامية والعربية؟**

إن المواجهة أمر حتمى، لأنه صراع دائر لا ينتهى، ولابد من تصحيح مسارنا، ولابد من وقفه نسترجع خلالها نقاط القوة ونقاط الضعف، بكل ثقة وحزم.

وها قد حان الوقت لرؤية عالمية جديدة ترعى الآتى:

- مكانة لائقة لشعوب الأمة الإسلامية والعربية.
- تشجيع التعاون الإسلامى العربى البينى.
- رأب الصدع بين البلدان العربية والإسلامية، وتهدئة الصراعات الإقليمية فيما بينهما.
- معدل نمو مناسب للأقطار العربية والإسلامية.

- تنمية التجارة البينية العربية والإسلامية.
- تشجيع الاستثمار المشترك مع العالم العربي.
- تكوين بنك عربي إسلامي للتنمية، على غرار البنك الدولي للإنشاء والتعمير.
- وقف نزيف الصراعات في الوطن العربي والدول الإسلامية، وتحسين صورة الإسلام في الإعلام الغربي والدولي، على فترات متدرجة.
- تيسير انتقال التكنولوجيا المتقدمة، والعمل على تطويع التكنولوجيا، لتلائم البيئة العربية والإسلامية.
- تهيئة المناخ العام للتنمية، وتشجيع جهود الأمن والسلم الدوليين، بريادة الدول العربية والإسلامية، نحو حل المنازعات الإقليمية، وتحقيق الإخاء الإسلامي البناء على أسس مستقرة.
- تشجيع قيام مؤسسات التنمية الإقليمية ذات الأهداف الموضوعية المتوخاة.

وهكذا: قدمنا الخطوط العريضة التي تناولها أستاذنا الفاضل د. حسن عباس زكي، أثناء الندوة المنعقدة في المجمع الثقافي، فترة وجوده في "أبو ظبي".. أما النقاط التفصيلية، فقد تم استكمالها أثناء الأسئلة والاستفسارات التي تمت بعد الندوة.. ويكفينا هنا تلك الخطوط العريضة لتكون خطوة على طريق الباحثين والمصلحين.. مرددين قول الحق ﷻ:

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله﴾ (هود: ٨٨)

خريطة الاستثمارات فى الأمة العربية(1)

عقبات تعترض استثمار رؤوس الأموال العربية فى الخارج:

تتعرض الاستثمارات ورؤوس الأموال العربية فى الخارج، للعديد من المخاطر والتهديدات: فهى تارة تعانى من عدم الاستقرار السياسى، فى البلدان التى تتوطن بها، وتارة أخرى تعانى من مخاطر تقلبات سعر الصرف وارتفاع معدلات التضخم، ومناهضة أهل البلدان الأجنبية للاستثمارات العربية فى بلادهم.. أضف إلى ذلك المخاطر المعتادة عند أى خلاف، بالمصادرة والتجميد ووقف النشاط، إلى جانب ارتفاع شرائح الضرائب، وعدم استقرار اتفاقيات منع الازدواج الضريبى، فضلاً عن متاعب التحويلات، فيما بين البلدان والمراكز المالية المختلفة، وفيما بين العملات، وما تتعرض له رؤوس الأموال العربية فى الخارج من اغتراب، وتقلبات العوائد من الاستثمار فى المجالات المختلفة، فضلا عن تدنى المردود الاقتصادى والاجتماعى والسياسى للاستثمارات العربية، خارج الوطن العربى.

علاوة على الآثار التضخمية: فإن أموال العرب فى الخارج معرضة للتآكل والضياع، بفعل هيمنة القوى الكبرى على مقدراتها، فى البنوك وشركات الاستثمار والأوعية الاستثمارية والادخارية المختلفة، التى لا سلطان للعرب على مجريات إدارتها وتوظيفاتها، وتكنيكات عملها فى المجالات المختلفة. كما أن الدول الكبرى والتكتلات الدولية العملاقة، تضع نصب عينيها الأموال العربية، وتفرض شروطاً قاسية لتشغيلها، أو التحكم فى مجرياتها هنا أو هناك.

ونحمد الله أن الجانب الأكبر من كل هذه المشاكل، قد تخطتها مصر وكثير من البلاد العربية، وعلينا أن ندفع عجلة تحويل الأموال العربية إلى بلادها العربية.

ونتساءل: كيف تستقيم أن تذهب الأموال إلى الخارج، فى الوقت الذى تعانى فيه الاقتصاديات العربية من ندرة الموارد التمويلية، وتتطلع إلى الحاجة

---

(1) هذا الموضوع تناوله عالمنا الفاضل د. حسن عباس زكى فى ندوة الأهرام المنعقدة فى ١٢-١٤ أكتوبر ١٩٩٦.

للاستثمارات الخارجية، وتطلب مد يد العون من الخارج والدول الأجنبية، لدفع جهود الاستثمار والتنمية فى المنطقة العربية؟

بطريقة أخرى يكون السؤال هو: كيف يمكن أن نكون على مستوى المسئولية التاريخية، فى إدارة قضايا النمو والاستثمار، ونحن نراقب مسار الأموال والاستثمارات العربية، بين المجالات المختلفة، وبين الدول وبعضها البعض، وبين العرب والعرب؟

كيف نشجع تحول الأموال العربية إلى الوطن الأم؟

إن الأمر يبدو فى بديهية واحدة: أننا فى أشد الحاجة إلى حماية المستثمر العربى من أخطار الاغتراب، والاسترسال فى البحث عن دروب آمنة لتوظيف الأموال العربية، وحمايتها من المخاطر السياسية والتجارية، وكافة أنواع التهديدات التى تعوق توطن المال العربى وسط بيئته الطبيعية، والتى لابد وأن تعطيه الأمان والتلقائية والدفء الإنسانى، إلى جانب كفاءة الاستثمارات، وقدرتها على توليد عائد مناسب، يفوق ما تعطيه الاستثمارات خارج الوطن الأم.

نحن إذن أمام عدة مقولات لتوطن المال العربى فى البيئة والكيان العربى:

- المقولة الأولى:

أنه من الصعب تصور العرب فى حاجة إلى يد غير عربية، تعيد توجيه الفوائض والأموال العربية، إلى داخل المظلة العربية.

- المقولة الثانية:

أنه من الضرورى أن تتكاتف الجهود الرسمية وغير الرسمية، نحو تهيئة أفضل مناخ ممكن، لتوظيف المال العربى فى المنطقة العربية.

- المقولة الثالثة:

إن مصر كقلب للأمة العربية، تستجمع فى أياديها، وبحكم التراث الممتد فى التعامل مع الشرق والغرب، وتوليفة السلام الذى تعيشه الآن، وتصنعه لنفسها،

أو للدول العربية الأخرى، الأطراف فى النزاع العربى الإسرائيلى، نجد أن فى مصر مفاتيح إدارة العلاقات العربية، جنباً إلى جنب مع العلاقات العربية بالعالم الخارجى، وفق منظور استراتيجى بعيد المدى يحافظ على تناسب المصالح، وتوازن الأهداف الاستراتيجية والمستقبلية لكافة الأطراف فى المنطقة.

- **المقولة الرابعة:**

أنه من الصعب رسم أسواق، أو مناطق جديدة فى المنطقة العربية، بعيداً عن روح التضامن العربى، وأحلام الأمة العربية، فى الوحدة والمصير المشترك، والعمل العربى البناء، نحو إدارة المصالح العربية، برؤى وطنية خالصة، ترعى مصالح الأمة العربية، وكافة شعوب المنطقة، فى إطار سلام وانسجام المصالح، وعدم الافتئات أو تغليب مصلحة على مصالح أكبر وأعمق، بحكم عوامل الوحدة والتآلف العربى، والانسجام الوجدانى، واللغة والدين والعادات والتقاليد، وموروثات التاريخ المشترك.

- **المقولة الخامسة:**

إن علينا أن نعمل جاهدين لكسر الجمود، فى تحقيق انسيابية الموارد بين شعوب الأمة العربية جميعها، أو ما اصطلح على تسميته انسياب الموارد من دول الفائض إلى دول العجز.

- **المقولة السادسة:**

إن تنوع مجالات الاستثمار فى الوطن العربى، تجعل المناخ ملائم لجذب رؤوس الأموال العربية، للتوطن داخل المنطقة العربية، بكفاءة وفاعلية فى كافة الأنشطة، بين مختلف البلدان العربية، المضيفة للاستثمارات العربية.

- **المقولة السابعة:**

أنه رغم ركام الجليد الذى قد يشوب علاقات المنطقة العربية، وهذا التنافر البادى بين البعض، إلا أنه حين نتحدث بلغة المصالح والأرقام، فأنه من السهل تولد القناعة، بإمكانية عمل شيء ما، من أجل الإنسان العربى، وهو الفاعلية الأساسية للاستثمار، وتوطن رؤوس الأموال فى الأمة العربية.

- **المقولة الثامنة:**

تتجه إلى أن الحديث عن استثمار وتوطين الأمـوال العربيـة، فـى داخـل المنطقـة العربية، لا يعنى القطيعة مع العالم الخارجى، أو أننا بصدد المناداة بسحب كلـى للأموال والاستثمارات العربيـة، فـى الأسـواق الماليـة والنقديـة والمراكـز الماليـة العالمية، لتوجيهها إلى داخل المنطقة العربية.. بل على العكس فإن ما نـنـادى بـه هو التناسـب والقسمة الموضوعيـة، فـى توجهـات رأس المـال العربـى، مـا بيـن الاستثمار فى داخل الأمة العربية، والاتجاه إلى خـارج المظلـة العربيـة، لتحقيـق مصالح عربية.

علينا إذن أن نتسلح بالموضوعية، والاسترشاد بدروس الماضى القريب والبعيد، واستلهام الحكمة فى فطنة ووعى، بأهمية القضية التـى نبحثهـا المـرة تلـو الأخـرى، وفى كل جولة من جولات فكرنا، تلفنا روح جديدة، ومتغيرات سريعة متلاحقة، لا تعطينا حق الفرصة الملائمـة، لتدبر وقـع الأحداث والمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية، وتدبر المصالح والمعوقات التى تلف طريق الاستثمارات العربيـة الأمـس واليوم وغداً.

وفى حقيقة الأمر فإن عملية إعادة الأموال العربية إلى أوطانها، تعد قضيـة أمن قومى عربى، ينبغى تفهمه بحكمة وحرص، وتوخى الحذر فى التراخى فـى تناولـه، ويكفـى أن نشير أن قضيـة الأمـن العربـى مثـل الزكـاة فـى الإسـلام، فهـى واجـب مفروض علـى القـادر، تحجـب عنـه ويـلات كثـيرة، وتحميـه مـن الحقـد الطبقـى والصراع، وتوفر الطمأنينة والتوازن الاجتماعى، من كل النواحى.

إن السؤال الرئيسى الذى ينبغى أن نبحـث عن الإجابـة حولـه هـو مـاذا فعلنـا لتعود الاستثمارات العربية إلى وطنهـا الأم؟ ولمـاذا تذهـب الأمـوال والاسـتثمارات العربية بعيداً عن وطنها؟؟؟

ولعل الإجابة تـدور حـول المعوقات التـى تجابـه الاستثمارات العربيـة فـى الوطن العربـى وهى على وجه التحديد تدور حول الآتى:

١- القيود الروتينية والبيروقراطية التى تقابل المسـتثمر العربـى وتجعلـه محاطـاً

بسياج عالى من القيود والمعوقات، التى تشل حركة المستثمر العربى، وتجعله غير قادر على التمييز بين ما هو فى صالحه، وبين ما لا يعنيه من أمور. وكيف أن البيروقراطية تبتكر من صنوف المشكلات وسفاسف الأشياء، لتنغص حال المستثمر، وتجعله يفكر فى الرحيل، قبل أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام.

٢- **قوانين النقد**، وتقييد حركة رؤوس الأموال العربية.

٣- **الضرائب**: التى لا تقدم المزايا والحوافز الكافية، لجذب رؤوس الأموال من الخارج.

٤- **قوانين الجنسية**: وحرية تنقل الأفراد بين البلدان العربية.

٥- **الجمارك**: وكيف أنها تشكل عائقاً أمام استيراد الآلات والمعدات ومستلزمات الإنتاج للمشروعات العربية.

وفى هذا الصدد فإن خطوات كبيرة قد قطعتها البلدان العربية لتهيئة بلادها لتوطن وإقامة المستثمرين العرب، إلا أن هناك خطوات عديدة أخرى جديرة بالنظر نطرحها على الوجه التالى:

أ - ضرورة **تناول الاستثمارات العربية بمنظور شامل**: يأخذ فى الحسبان أنها رأس مال ومعايشة إنسانية كاملة، لخلق استثمارات جديدة، بغرض إقامة منشآت خدمية وإنتاجية، لخدمة البيئة العربية من ناحية، وتحقيق عائد مناسب للمستثمر العربى، من الناحية الثانية.

ب - العمل على **تنمية التعارف** بين رجال الأعمال العرب: وتنمية سبل التواصل بين المستثمرين فى البلدان العربية، من خلال جمعيات رجال الأعمال، وإقامة المؤتمرات، وطبع ونشر دليل عربى موحد للمستثمرين ورجال الأعمال العرب فى شتى البلدان، والعمل فى اتجاه موازى على خلق سبل التعارف الكامل، من خلال الاجتماعات المشتركة، التى ترعاها الجامعة العربية، وتضم الغرف التجارية والصناعية، والمستشارين التجاريين فى الوطن العربى.

جـ - الاهتمام **بضمان الاستثمارات العربية** من كافة المخاطر السياسية والتجارية:

بتشجيع قيام مؤسسات ضمان الاستثمارات العربيـة فـى المجـالات المختلفـة، جنبـاً إلى جنب مع تدعيم المؤسسات القائمة، حيث لا ينبغى أن يفوتنـا الجهد المتميز، والنجاح غير المسبوق، لمؤسسة ضمان الاستثمار العربية فى الكويت، وكيف أنها قد حققت معدلات ربحية عالية، بالإضافة إلى توافر العامل النفسى والمالى، للتعويضات التى تقدمها للمستثمرين وأصحاب الأعمال.. وهنـا لا يفوتنـا أن ندعو شركات التأمين العربية إلى التوحد، بشأن تقديم ضمانات الاستثمار، وتكوين شركة عملاقة لتأمين الاستثمارات المختلفة، ويجب العمل على زيادة رأس مال مؤسسات ضمان الاستثمار وتضاعفها، لأنها نجحت فى تحقيق هدفها.

د - **الاهتمام بالاستثمارات الإقليمية:** فـى مصـر والأردن وسـوريا والسـودان والمغرب وتونس والجزائر والأرض المحتلة، والعمل على تشجيع إقامة المشروعات ذات الجدوى الاقتصاديـة والماليـة، فـى الزراعـة والصناعـة والسياحة والاستثمار العقارى.

هـ - توفير **شبكة المعلومات** اللازمة للمستثمر العربى.

و - تشجيع **قيام المؤسسات غير الرسمية**، التى ترعى احتياجات المستثمر العربى فى مجالات النشاط المختلفة.

ز - أهمية إقامة **أسطول عربى** للنقل البحرى والجوى.

ح - تشجيع إقامة **المناطق الحرة العربية** فى الأقاليم الجغرافية، والعمل على إزكاء روح التنافس بينها، بتقديم المزايا والإعفاءات الضريبية والجمركيـة المناسبة، حيث أنها ستكون مناطق تتحرر مـن كافـة قيود الاستثمار والتجارة الدوليـة، لاسيما إذا نظرنا إلى اتفاقية الجات ١٩٩٤ وما تشكله من قيود علـى تجارة بلدان العالم الثالث، وتركيزها على جعل العـالم الثـالث مصدراً للمواد الخام، اللازمة للصناعة والتجارة العالمية وسوقا واسعة للمنتجات التى تفرزها صناعات الدول الكبرى.

ط - **توحيد التشريعات الضريبية والجمركية**، والقيود على انتقالات الأفراد والنقد، لخدمة انتقال رؤوس الأموال والمستثمرين والعمال العربية، فيما بين البلدان العربية.

ى - أنه من الأهمية بمكان أن **تتنوع العملات الأجنبية**، التـى توظـف فيهـا رؤوس

الأموال العربية، حتى لا تقع فريسة للتقلبات الحادة فى أسعار الصرف الأجنبى، ويجب فى هذا الصدد أن يكون للعملات العربية مكاناً بارزاً فى توظيفات الأرصدة العربية، حتى نعمل على تقوية هذه العملات، لكى تقف صادمة فى سوق العملات الأجنبية، وتعمل من جانب آخر، على توقى مخاطر الصرف الأجنبى، الذى لا يمكن التنبؤ بمساراته بين اليوم والليلة.

ك – من الضرورى أن تزداد **عدد الشركات العربية العملاقة** فى مجال تجارة السلع الدولية، لتشجيع التجارة البينية العربية، والتجارة مع العالم الخارجى، ويمكن فى هذا الخصوص: أن ندعم الشركات القائمة ونقويها ليكون هناك عدد لا بأس به من الشركات العربية العملاقة عالمياً وإقليمياً

ومن المهم أن نتناول أطروحاتنا حول الاستثمار العربى والقرن الحادى والعشرين: دور **المؤسسات التمويلية العربية**، وأهمية قيام نظام تمويلى عربى يضم المصارف التجارية عالية المستوى والتقنية، إلى جانب المصارف المتخصصة فى الزراعة والصناعة والعقارات وبنوك التنمية المحلية، وكذلك البورصات العربية ودورها فى تمويل التنمية العربية **وكيف يقوم الجهاز المصرفى العربى ومؤسسات المال العربية بدور ذى أهمية فى مجابهة وبحث المشكلات التالية:**

أولا: **أهمية قيام مصارف عربية قوية**: تخدم المستثمر العربى، وتلبى احتياجاته التمويلية المختلفة فى يسر واقتدار، وتستطيع أن تواجه المنافسة الأجنبية على الأرض العربية أو خارجها.

ثانيا: **كفاءة بنوك الاستثمار والأعمال العربية**: والمعوقات التى تقابلها فى سبيل قيامها بدورها المأمول فى المنطقة العربية على أسس راقية دون تقليد للمصارف الغربية، بل فى انسجام وتفاعل كامل مع احتياجات المستثمر العربى، من خدمات البحث عن فرص الاستثمار الملائمة، وإقامة الاستثمارات، ودراسة نظم الإنتاج، والجودة والتسويق المحلى والأجنبى، وإدارة العلاقات بين المستثمر العربى والبلد المضيف، على أساس من التفهم والاجتهاد، لخدمة مصالح المستثمرين العرب، وتهيئة سبل إقامة مشروعاتهم فى البلدان المضيفة، على أسس علمية وواقعية.

ثالثا: **تطوير أسواق المال العربية:** لتصبح قادرة على امتصاص فائض السيولة العربية، في تعاملات السوق الأولى (سوق الإصدار) والسوق الثانوية في الأسهم والسندات، وأهمية أن تتطور السوق المالية العربية بزيادة عرض الأوراق المالية، وابتكار أساليب جديدة لزيادة نوعيات الأسهم والسندات، وخلق أوعية ادخارية جديدة، تناسب المستثمر العربي وتحيطه بالأمان، والاستقرار التشريعي، وعدم تقليد الأسواق الخارجية وانتهاج ما يناسب المجتمع العربي من أساليب التمويل والاستثمار.

رابعا: إن اتفاقية الجات ١٩٩٤ فيما يخص الخدمات المالية والمصرفية **تجعل البنوك العربية في وضع تنافسي مع النظام المصرفي العالمي** حيث الأسواق مفتوحة للدخول والخروج.. نحن إذن أمام قادم جديد إلى السوق المصرفية العربية، ممثلاً في البنوك الأجنبية العملاقة، عالية المستوى، التي تدخل السوق العربية، بأهداف واستراتيجيات متباينة.

كذلك المجال العالمي مفتوح أمام المصارف العربية، لتنطلق إلى السوق العالمي، وبطبيعة الحال سوف يكون البقاء والريادة للأقوى والأقدر والأكفأ، وبطبيعة الأمور فقد فتحت الجات كل الأجواء على الانتقال والنفاذ للمصرفية العالمية، ولا ينبغي أن نخشى الجات، ونقف جامدين، فهي تحدى لمن يستطيع أن يبنى وجوده على أسس مصرفية وموضوعية سليمة.. وعلينا أن نستعد له بكل ما لدينا من إمكانيات وفق رؤية مصرفية عربية شاملة، فاتفاقية الجات ١٩٩٤ تمثل التحدي في المدى القريب، وحتى مطلع القرن الحادي والعشرين.

السوق العربية المشتركة ضرورة حياتية:

إن أهمية قيام السوق العربية المشتركة، أصبحت تتجاوز حيز الأحلام، بعد أن سبقتنا إلى خلق نماذج التوحد والتكتل، العديد من الدول والتجمعات الدولية، المتباينة في اللغة والعادات والثقافة، فضلاً عن قيام العديد من المشكلات المزمنة في هياكلها الاقتصادية والإنتاجية، التي تعوق التوحد، إلا أنه نجحت في تجاوز نقاط الخلاف، بينما بقيت الأمة العربية أسيرة

الشعارات لكبيرة، والعمل غير المتناسب، مع ضخامة الشعارات. وباتت أهدافنا الكبيرة التى نصبو إليها عقبة أمام انطلاق أحلامنا، وتبوئنا للمكانة اللائقة، في خريطة الصاعدين للقمة، في كل مجال.

وأجد لزاماً عليَّ وأنا أتحدث عن السوق العربية المشتركة أن أشير إلى نقطة بالغة الأهمية، وهى ألا نترك أهدافنا الاستراتيجية البعيدة المدى، نهباً للتوجسات والتباطؤ فى اتخاذ القرار المناسب، لمواجهة الآثار السلبية للجات.

وواقع الحال يشير: أننا ينبغى أن نفرد اهتمامنا بالمستقبل والإنسان العربى على بساط البحث، والتفاعل بواقعية لتحقيق أهدافنا العليا.

وهنا لابد وأن ندعو إلى التخلص من سلبيات كثيرة، تعوق تقدمنا نحو المستقبل، وذلك يتأتى عن طريق العمل العربى المشترك، بين أصحاب المصلحة، من اقتصاديين ورجال أعمال ومنتجين ورجال ثقافة واجتماع وعلماء، كل فى تخصصه، حتى نخرج من سلبيات الماضى وننطلق إلى الغد بروح فضفاضة، ورؤى لها شفافيتها واستشرافها للمستقبل القريب والبعيد، على أسس عملية.

ولا ينبغى كذلك أن يخيفنا طموحنا، عن الولوج فى الميادين التى نتمتع فيها بالسبق والتميز والقدرة على العمل الخلاق، وذلك عن طريق الاتجاه إلى تشكيل لجان نوعية، تتكون من رجال الأعمال والغرف التجارية والصناعية بدلاً من الحكومات، لتكون لها فاعلية، وعن طريقها يمكن أن نكمل ما تقوم به الجامعة العربية، أو تأخذ على عاتقها بداءة، اتخاذ اللازم لمواجهة سلبيات الجات، مثل تشجيع إنشاء المناطق الحرة، أو تكوين لجان سلعية تشترك فيها بعض الدول التى تتناول هذه السلع، مثل الألومونيوم الذى تنتج منه مصر والبحرين والإمارات ما لا يقل عن ٢٥٪ بالنسبة للعالم.

ولا ننسى فى هذا المقام: أن السوق العربية المشتركة فى الستينيات بدأت بعدد قليل من الدول العربية، ومن هنا فلا يصح أن ننتظر الإجماع على العمل العربى الدؤوب، بل يجب أن نواصل تحقيق أهدافنا بعملية وواقعية

واقتدار، ونستجمع مصادر قوتنا الذاتية فى معترك العمل العام، وليكن رائدنا دائماً هو الواقعية، وعدم الخوف من أحلامنا، طالما أن قدراتنا تسير وتنجح فى ميادين بعينها، وتحقق نجاحات يشد بعضها بعضاً.

أما تحديات القرن القادم فإنها تنصرف إلى الآتى:

- صياغة واقع مصرفى عربى، يعبر عن ثقل الأمة العربية فى المجال الدولى ويطرح رؤاه فى التنمية العربية بأبعادها المختلفة.
- أهمية الاندماج بين المصارف العربية، لتصبح قادرة على مواجهة المنافسة الأجنبية، والاضطلاع بمسئوليات النمو، وتلبية متطلبات المستثمر العربى، والعمل على إيجاد مصارف عملاقة يحكمها الصمود فى عالم المال.
- ابتداع أساليب مصرفية جديدة، لتقديم خدمات بنوك الاستثمار والأعمال العربية، بشكل يتمشى وواقع المستثمر العربى واحتياجاته الأساسية، من تدفقات مالية مناسبة، وتقنية متطورة، وإلحاح على أهمية التنمية والاستثمار، للجهاز المصرفى العربى ككل.
- ابتكار خدمات مصرفية عربية متميزة، تعبر عن ذاتية الجهاز المصرفى العربى، وتناشده البقاء والتطور، مع تطور النظام المصرفى العالمى والأخذ بمقتضيات التطور والإنماء.
- الذوبان فى النظام المصرفى العالمى أخذاً وعطاءاً، على أسس مستحدثة، ورؤى عربية متفردة، تهتم بفرضية أساسية، مؤداها أن أموال العرب فى أيدى العرب.
- تنمية التعاون مع المصارف العالمية، وضرورة الصمود أمام المنافسة المصرفية العالمية.
- حفز وتدريب وتأهيل الكوادر المصرفية العربية، والانتشار عالمياً وعدم التقوقع فى المنطقة العربية، دون احتكاك بالمصارف العالمية.

- تنمية البورصة العربية، لتصبح معبرة عن واقع له دلالاته من التنمية العربية واسعة الأبعاد والمجالات، تعكسه المعاملات على الأوراق المالية، للشركات المؤسسة في إطار النظام العربي.

خامسا: بحث أهمية قيام مصرف عربي دولي، للتنمية والاستثمار في المنطقة العربية برأسمال يتناسب وأهمية الاستثمار العربي، ومتطلبات التنمية في الوطن العربي، بأوضاعها الحالية والمستقبلة.

سادسا: الخروج من الإطار التقليدي للتعاون المصرفي العربي، ووضع الاستثمار العربي في موضع الصدارة، من توجهات النظام المصرفي العربي.

سابعا: أهمية التعارف والتواصل بين المصرفيين العرب، سواء في المنطقة العربية أو خارجها، عن طريق تبادل الزيارات والمؤتمرات والندوات من خلال أطر أكثر مرونة واتساعاً وشفافية.

ثامنا: نشر الوعي المصرفي والمالي لدى المستثمر العربي، وجعل المصارف العربية هي البيت الذي يعايش من خلاله المستثمر العربي لأعماله، ومتطلباته المالية والمصرفية.

تاسعا: فتح الأبواب أمام التعاون المصرفي العربي، لإقامة مصارف عربية مشتركة في بلدان الأمة العربية.

عاشرا: قيام المصارف العربية مجتمعة، بطبع دليل مبسط للاستثمار العربي في البلدان المضيفة، تعكس المزايا والحوافز، وأيسر الأساليب والتقنيات والإجراءات، لإنجاز الأعمال وإقامة المشروعات، في كل بلد على حدة.

ولعل ما فات يبدو كأطروحات، تستلزم البحث والتعمق من كافة المهتمين بقضايا النمو والاستثمار، والعمل المصرفي العربي.

مصر وتشجيع الاستثمار العربي:

استرشاداً بالتجربة المصرية في التعامل مع المستثمر العربي، فإننا نتساءل ما هي المجالات المفتوحة أمام المستثمر العربي؟ وكيف تغلبت مصر على معوقات الاستثمار العربي؟

ونجد أن السلطات المصرية قد فتحت الباب على مصراعيه أمام المستثمر العربى، حيث تعلن أن كافة مجالات النشاط الاقتصادى مفتوحة أمام المستثمرين العرب، فى إطار قانون الاستثمار رقم ٢٣٠ لسنة ١٩٨٩، والذى تدور حالياً المناقشات لتطويره، ليشمل كافة النشاطات المتعلقة بالاستثمارات فى إطار قانون موحد للاستثمارات، يعطى كافة المزايا والضمانات للمستثمرين العرب، ويزيل كافة مشكلات البيروقراطية والروتين، والتعامل مع الأجهزة الحكومية المختلفة، وتيسير إجراءات الاستثمار وتبسيطها، وتطوير الجهاز الإدارى المشرف على عملية الاستثمار.

ولا يقف الروتين فى مصر حجر عثرة أمام المستثمرين العرب، حيث يتولى رئيس الجمهورية رئاسة الهيئة العامة للاستثمار، كما أن لرئيس الهيئة التنفيذى صلاحيات واسعة للاتصال بالمستثمرين، وتذليل كافة الصعاب التى تواجههم.

ومجتمع الاستثمار والأعمال فى مصر أخذ يتطور تطوراً كبيراً: فهناك اتحاد الصناعات المصرية، وغرفة الصناعات المختلفة، واتحاد الغرف التجارية الذى يضم شعبة المستثمرين، وجمعية رجال الأعمال فى القاهرة والأقاليم وجمعيات المستثمرين فى المدن الجديدة.

وهذه جميعها تنظيمات تساعد على بلورة اتجاهات المستثمرين، والتعرف على مشاكلهم أولا بأول، وتوحيد كلمتهم، وتعبئة جهودهم لخدمة قضايا الاستثمار، والتخاطب مع الأجهزة الرسمية، بالإضافة إلى الرقابة البرلمانية وحرية الصحافة، وكلها عوامل تساعد على أن يصل صوت المستثمرين إلى متخذى القرار فى مصر.

على أن هذا وحده لا يكفى لجذب المستثمر العربى، فقد تم تزويد المدن الجديدة بالمرافق الأساسية، وزادت المقدرة الاستيعابية للموانى، وشبكات الكهرباء، والصرف الصحى، والمياه النقية، وخدمات الاتصالات. واصبح المناخ أكثر ملاءمة للاستثمارات العربية، إذ نجحت جهود الخصخصة. وكما يقولون ليس كافياً أن ندعو المستثمر العربى للاستثمار فى بلد ما، بل لابد وأن تتوافر البنية الأساسية للعملية الاستثمارية، وتتوحد القرارات، وسبل التعامل مع المستثمرين المحليين أولا، ثم ندعو المستثمر العربى بعد ذلك.

فتهيئة المناخ للاستثمار يعد الركيزة الأساسية لجذب الاستثمارات العربية وزيادة كفاءتها، وتحقيق الانسيابية لقدومها، سواء كانت منفردة أو بالمشاركة مع الرأسمالية المحلية المصرية.

وفى النهاية فإن خريطة الاستثمارات فى الأمة العربية ليست نمطاً ثابتاً لا يتغير، بل إنه فكر وعقل، وإنسان مفتوح يتطور يوماً بعد يوم، يعطى ويأخذ ويضيف من هنا وهناك، ويتفاعل مع كافة المتغيرات، من أجل تدعيم الاستثمار والإنسان العربى..

علاج الإنسان.. جسديا فقط أم جسد وروح؟!

د. حسن عباس والطب البديل:

لعل من الأمور التى لا يعرفها البعض عن عالمنا الفاضل د. حسن هو أنه له باع طويل فى الطب البديل، قد يتفوق به على علمائه المتخصصين فيه، أو اشتهروا بذيوع الصيت فى هذا اللون من ألوان الطب.

والسب فى رسوخ قدم أستاذنا (بحر العلوم د. حسن) فى هذا المجال: يرجع إلى عوامل عديدة، يصعب تمييز أيًا منها عن الآخر.

- **فهل نقول:** حبه الشديد للعلم، الذى يدفعه إلى ارتشاف رحيقه، فى كل روضة تصادفه؟
- **أم نقول:** روحه الوثابة المتطلعة إلى آفاق واسعة، لا تهدأ ولا تقنع بأى حقيقة دون الحقيقة الكبرى؟
- **أم نقول:** تلك الفيوضات الربَّانية، التى يفيض بها الله على عباده، من خزائن العلوم الاصطفائية؟
- **أم نقول:** إن مدارج روحه فى مجال العشق الإلهى، جعلته يبحث عن الله فى كل العلوم، وكل المخلوقات والكائنات بدءاً من الذرة إلى المجرة، وانتهاء بالعرش والكرسى والأفلاك؟
- **عموماً يمكن القول:** إن تلك الأسباب كلها تجتمع، لتكون نسيجاً متكاملاً، فى شخصية أستاذنا الفاضل، وتكون إجابة مقنعة حول سر تفوقه العلمى، فى جميع المجالات، وتوضح لنا سر استعلاء الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، وهو أن علماء الإسلام لا يبحثون فى سر المادة فقط، وإنما يبحثون أيضاً فى سر الروح الباعثة لتلك المادة، فتمدها بما يميزها من طاقة وفاعلية فى الحياة.

ومن هذا المنطلق: نعرض غَرفةً من بحار الطب البديل، التى تفوق فيها عالمنا العارف بالله د. حسن، والتى تبين فى نفس الوقت، سر تفوق علماء المسلمين، الذين

حققوا أعظم حضارة عرفها التاريخ، وهى الحضارة الإسلامية: حيث تتميز بشمول النظرة إلى الكائنات، وعمق أغوارها، حيث تشمل المادة والروح، الظاهر والباطن.. كما تتميز تلك الحضارة، بأنها تصل الأرض بالسماء، فى محاولة لتحقيق الرحمة لجميع المخلوقات.

ونحن إذ نعرض تلك الإطلالة على بحار الطب البديل: نعد القارئ، أن نعود إلى الغوص فى تلك البحار -بعون من الله وفضله- حتى نعيد للإنسانية وجهها المشرق، وكيانها الناقص الاكتمال، وسعادتها المسلوبة.. لأن علوم الطب البديل -بنظرة أستاذنا الفاضل د. حسن- تعنى عودة الروح إلى الجسد، وحماية الإنسان من معاناة ونفقات، هو فى غنى عنها، إن فقه روح تلك العلوم، واغترف من معينها العذب الفياض، من لدن حكيم خبير.

صور الإنسان المختلفة:

سيظل دوماً وأبداً ذلك الإنسان، هو اللغز المحير، والطلسم العجيب، الذى يحتار فيه الأطباء من كل صنف ولون، مهما تقدم العلم إلى أبعد مدى، ومهما برع كل طبيب فى تخصصه.. لماذا؟

يجيب على هذا السؤال عالمنا -الذى أفاض الله عليه من مدد رسوله الكريم- د. حسن عباس زكى فيقول:

إن الإنسان يعيش فى عالمين فى وقت واحد: **عالم مادى منظور**، تحكمه الأبعاد الثلاثة والماديات الملموسة.. **وعالم روحى غير منظور**، تحكمه ما وراء الطبيعة. أى أن الإنسان يعيش عالمي الغيب والشهادة، أو عالمي الملك والملكوت فى آن واحد.

ومن هنا أصبح للإنسان صور مختلفة، باختلاف الرائى المتفحص له:

- فهو **الجسد** الذى يفحصه علماء الطب البشرى.. وهم لا يسلّمون إلا بما يجسه المشرط، أو تكشف عنه الفحوصات والأشعات الطبية.
- وهو **الشعور** الذى يراقبه علماء النفس، وأساتذة العلوم الروحية.

- وهو **مجموعة المواد الكيماوية** التى تكون الأنسجة البدنية، وأمزجة الجسم.. ومجموعة **الخلايا والسوائل الغذائية** التى يدرسها علماء الفسيولوجيا.
- وهو **الكائن** الذى يتغذى بالنبات والحيوان، لكى لا تنقطع الأجهزة العاملة فى جسمه.
- وهو **النفس** التى تتلقى الوحى والإلهام أو الذكاء، تبعاً لمرتبتها.

ومن هنا اختلف العلماء فى تناول حقيقة الإنسان، تبعاً لتخصصاتهم: فمنهم من يختزله إلى مجموعة من الخلايا.. ومنهم من ينظر فقط إلى الناحية الروحية.. والكل يقف أمام هذا السر حائراً.

ومن هنا اختلف الأطباء أيضاً فى وسائل علاج هذا الإنسان، إذا اختل توازنه وكل ذلك يرجع إلى أن علوم المادة قد تقدمت بخطى سريعة، بينما علوم الكائنات الحية لم تتقدم بنفس السرعة.. ولا سبيل لحل هذه المشكلة إلا بمعرفة أنفسنا معرفة أعمق.. أما كيف نصل إلى تلك المعرفة، فهذا ما سنعرفه فى النقطة التالية:

مشاعر الإنسان وفكره أمواج تؤثر على الجسد:

يبين لنا د. حسن كيف أن الإنسان يموج بتفاعلات عديدة، ليس فقط على مستوى الروح أو النفس كما نظن، بل على مستوى المادة نفسها، حيث أثبت العلم الحديث أن المادة أمواج.. وبالتالى من يعالج الإنسان على أساس ثبات حاله، يقع فى خطأ جسيم.. فالكون كله فى حركة دائبة، والإنسان حلقة فى الكون، يتأثر جسده إلى حد كبير بتغيرات مشاعره، إلى جانب التغيرات الأخرى.

فماذا قال لنا أستاذنا الفاضل لشرح تلك النتائج العلمية الهامة؟

يقول: إن الإنسان ليس مجموعة من أشياء يمكن فصلها عن بعض. فلا نستطيع أن نقول إنه: مادة وشعور وجسم وعقل وروح، أو غير ذلك.. وإنما هو كل لا يتجزأ، تصدر عنه أوجه نشاط فيزيقية كيميائية، وفسيولوجية، وسيكولوجية، لا تنتهى. فتطور المادة فى جسم الإنسان على مراحل مختلفة، يخضع لظروف إلكترونية وذرية تشابه إلى حد ما، لما يحدث فى النبات.. ولكن ذلك التطور للمادة فى الإنسان يخضع أيضا لظروف الزمان والمكان والطاقة والكهرباء وغيرها

فالإنسان ليس مادة فقط، ولا روح فقط بل هو يجمع بينهما فى كل متناسق..

فإذا **نظرنا إلى المادة:** نجد أنها أصبحت فى العلم الحديث أمواج.. والكون كله مكون من أمواج أى طاقات.. فإذا تكثفت الطاقة، أصبحت مادة، وكل منهما يتحول للآخر.

وإذا **نظرنا إلى الروح:** نجد أن مشاعر الإنسان هى كذلك أمواج، أى طاقات، ممكن أن تتحول إلى مادة.. فالحسد والبغض والخوف: إذا اعتادها الإنسان، تحدث تغيرات عضوية، وأمراضاً حقيقية.. والهموم تضر الصحة.. والقلق من أكبر أسباب الانفعالات، ويؤدى إلى تغيرات مثيرة فى أنسجة وأمزجة الجسم، وفى عدد كرات الدم البيضاء.

ولذلك يلجأ الحكماء إلى الصلاة والتأمل والتركيز والذكر.. بحيث يحتوى الإنسان على نفسه، ويحقق ذاته بهدوء وبدون تشتت، مع شحذ الفكر فى نقطة واحدة، ويعيش فى لحظة تمتد فى الزمان والمكان.

وكما يتلقى **الجسم** من الطبيعة –عن طريق التنفس والأكل والرياضة –أشياء فيزيقية تقوى وتنمى جسده.. فكذلك **الفكر** يتلقى إيحاءات وإلهامات أثناء التأمل والذكر والتدين والصلاة، تزيد من قواه الروحية، وتبعث فى نفسه الأمن والسلام.. بل ويمكن طرحها على الغير، لكى يصلح المجتمع الذى يعيش فيه. فالفكر ينتقل من نقطة إلى أخرى خلال الفضاء، كالموجات الكهرومغنطيسية. وهو ينتشر فى الفضاء كالضوء.. وفى هذا امتداد للإنسان فى المكان والزمان.

تفاعل الإنسان مع المجالات الكهرومغناطيسية:

يواصل أستاذنا الفاضل د. حسن حديثه لتدعيم الفكرة التى شرحها، حيث أن جسد الإنسان يتأثر بالأمواج التى ترد إليه، سواء كانت تلك الأمواج من فكره، أو من الكون المحيط به بصفة عامة.. فيقول:

أوضحنا أن الإنسان يعيش فى مجالات مغناطيسية، كلها طاقات مشعة. وفى هذه المجالات يحدث فعل ورد فعل، بين الإنسان وغيره، وبين الإنسان والبيئة التى

يعيش فيها، وبين الإنسان والكون.. وكل فكرة أو إحساس أو مشاعر تنتاب الإنسان، تنطلق منه، وتظل سابحة فى المجال الكونى، وتؤثر على الإنسان وتتأثر به.. وفى هذا المجال يذكر د. Tiller[1]: أن الإنسان مكون من روح ونفس وجسم.. أى من طاقة موجبة، وطاقة متوازنة، وطاقة سالبة.. أى من عالم **عقلى** يقود التخيل (Mental) وعالم **عاطفى** يقود الإلهام (Emotional) وعام **مادى** يقود العقل.

فالروح تؤثر فى النفس. والنفس لكى تصل إلى عمق المادة، تصدر اهتزازاً، يخلق صورة ذهنية (فكرة) والفكر هو الذى يؤثر فى ذرات جسم الإنسان عن طريق الخلايا، كما يؤثر الضوء والصوت والكهرباء فيه.. ومن هنا نشأ العلاج بالإيحاء، ونجح فى كثير من الأحيان.

وبهذه المناسبة: أذكر أن مجلة Time قد نشرت تحقيقاً صحفياً واسعاً، عن العلاج البديل.. ذكرت فيه أن الشك فى هذا النوع من العلاج بدأ ينقشع، وأن كثيراً من وسائل العلاج هذه بدأت تلقى قبولاً.. وذكرت على سبيل التحديد، أن العلاج بالإبر ثبتت فائدته فى زوال الألم، وفى شفاء كثير من الأمراض.

وبالنسبة لـ Biofeed back فقد نجح فى علاج عدد واسع من الأمراض، وكذلك التنويم المغناطيسى، والخيال، وغيرها.

ثم أجرت استفتاء، كانت نتيجته أن ٣٠٪ من الأمريكان يلجأون إلى العلاج البديل بصوره المختلفة.. وأن ٦٢٪ من الذين لا يلجأون إليه، أبدوا أنهم مستعدون الآن للنظر فى استخدامه.. وأن ٨٥٪ ممن لجأوا إليه، سيستمرون فى الالتجاء إليه.

فإذا تساءل أحد عن سر الإقبال على العلاج البديل؟

فيجيبنا عالمنا العارف بالله د. حسن عن هذا السؤال، من وجهة النظر الإسلامية، فيقول: إن علوم الطب البديل، هى العلوم التى تفرضها المعرفة الإيمانية، وتطور العلوم العصرية، حيث تكشف الكثير عن المجاهيل التى تحيط بالإنسان، وأشار إليها القرآن فى إشارات، يكشفها الزمان مع تقدم العلوم والأجيال. فالطب

(١) أستاذ بجامعة ستانفورد، ومدير معهد ومؤسسة Psychosynthesis.

البديل معناه: الاستفادة بكل خصائص الإنسان الروحية والجسدية، ومحاولة التأثير فيها، لتحقيق أحسن النتائج الممكنة، والتى تساعد على الشفاء السريع للإنسان الذى هو وسط بين الخلية والكون: وهو يحتوى كل ما يحتويه الكون.. فمكونات الكون الأساسية هى الذرة، يقابلها الخلية فى جسم الإنسان. وكليهما يتكونان من نواة وإلكترونات وبروتونات.. ويحتوى جسم الإنسان على حديد ومواد مختلفة، وكهرباء (منها موجبة، ومنها سالبة).. والكرة الأرضية هى أصلح مكان خلق للإنسان.

ونظراً لأن العالم ملئ بذبذبات مختلفة، تجعل الإنسان يتذبذب فى أمواج من الحياة، فمن هنا يمكن التحدث عن الاتصال اللاسلكى، بين الإنسان وبين أى شىء فى الوجود.. فالمخ كالمحطة، والأثير هو حقل الاتصال، وقوة الفكر، أو الفكر الخلاق وصوره، هى التى تخلق هذا الإمكان المغناطيسى (المجال المغناطيسى أو المجال الحيوى).. ويمكن إثباته فى الإنسان وقياسه.

الكون فى ذاته وحدة متكاملة، ومتصلة ببعضها (كل شىء فى كل شىء).. وكل ما فى الوجود، موجود فى كل شىء.. وكيف أن كل الذرات التى فى الخلية متشابهة، ومع ذلك، خلق الله منها أشياء مختلفة: مخ، أظافر، عظام.. وهكذا الكون ذاته.. والكل يخضع لقانون واحد: "لا إله إلا الله".. ولذلك فهناك علاقات بين الأشياء، مثال القمر ودورته الشهرية والمد والجزر.

تلك العلاقات الواحدة بين الكون كله: جعلت كل فكر وكل كلمة لها اهتزازات وتأثير، ممكن التركيز فيها، فتزيد قوتها وتوجهها، فالقوى المستخدمة فى السحر، هى من أنواع التسخير فينا وبداخلنا وعن خارجنا.. إشعاعات الراديو والتليفزيون، وكل الأجهزة التى تصدر منها أشعة، ولكن لا نراها. وكذلك جميع الإشعاعات الروحية وغير الروحية، غير ملموسة، ولكن تؤثر فى الإنسان، حيث المخ بطارية تستقبل وترسل، وهدف الطب البديل هو الاستفادة من المخترعات الحديثة، للكشف عن مراكز الإحساس فى الإنسان، وعلاجه عن طريقها.. وهذا ما يعرضه لنا د. حسن فى النقطة القادمة.

التقدم العلمي يفتح مجالات واسعة للطب البديل:

إن اهتمام أستاذنا الفاضل بالطب البديل، يرجع إلى اهتمامه بإظهار عظمة القدرة الربانية، فيما أودعت في الإنسان من أسرار وقدرات، يستطيع بها مواجهة كل الصعاب والتحديات، التي تواجه وجوده على الأرض.

ويريد أن ينبهنا بشتى الطرق: أن التقدم العلمي، والاختراعات الحديثة، وكل ما يحققه الإنسان من سبق حضاري.. لن يزيد المؤمنين إلا مزيداً من اليقين بعظمة رب العالمين، وقدرته التي لا تحدها حدود، في إبداع الكون وتصاريفه فيه، وإلهاماته لعباده، التي تحفزهم لمزيد من الاختراعات، التي تكشف الستار عن الحقائق الغامضة عنا، وتساعدنا على فهم أكثر لأنفسنا، مما يخفف كثيراً من معاناتنا في الحياة، ويقربنا أكثر من جنات الرحمن.

فيقول عالمنا الدكتور حسن:

إن الإنسان يعيش الآن في عصر تتقدم فيه العلوم والابتكارات والاختراعات، بسرعة لم يسبق لها مثيل.. ومن مجالات هذا التقدم: اختراع أجهزة ومعدات علمية، كالليزر، وأجهزة الفحص Scanning، والمعدات العلمية المختلفة، التي تساعد على سبر غور كثير من الحقائق، التي ما كان يمكن التعرف عليها في الماضي.

ومن بين هذه الأجهزة الإلكترومغنطيسية: ما مكن الإنسان من عمل قياسات دقيقة للحقل المغنطيسي والمجال الحيوي للإنسان.. ولإدراك ذلك: نذكر التجارب المعملية التي كنا نجريها في دراستنا للمجال المغناطيسي، بأن نضع فوق المغناطيس ورقة، نرش عليها برادة حديد.. فما تلبث هذه البرادة أن تتشكل، وتكون صور لمجالات غير مرئية، مرسومة على الورقة بأشكال مختلفة، متجهة بين قطبي المغناطيس، تسمى بالمجال المغناطيسي، وتكشفه لنا، في حين أنه غير مرئي لنا.

فكذلك الإنسان: ثبت أن له هذا المجال، وأمكن للعلماء اختراع أجهزة تقيس مجاله، الذي سموه مجاله الحيوي life field.. ويتم هذا القياس عن طريق توصيل سلوك خارجية، من جهاز يسمى فولتومتر، بسبابتي يدي الشخص المراد قياس مجاله الحيوي.. وكذلك محلول ملحي متصل أيضا بجبهة نفس الشخص.

وعن طريق هذا الجهاز: أمكن التعرف على احتمال تعرض الإنسان لأمراض مستقبلية.. فمثلاً: أجريت تجربة على ضفدع، حيث عُمل قياس للضفدع، وأمكن عن طريق ذلك، معرفة المكان المستقبلي للبروتون القالب، الذى سيحدد شكل ومكان المجموعة العصبية للضفدع.

وأمكن استخدام هذا الجهاز أيضاً على النباتات والأشجار، والتعرف على تأثرها المستقبلي.. وقد أثبتت التجارب التى تمت فى هذا الصدد، على أن الإنسان الذى يعيش على هذا الكوكب، إنما هو جزء متصل به، ويتأثر ويؤثر فيه.. وكذلك كل ما هو على سطح الكوكب من نبات وحيوان.

دور المجال الحيوى فى الاحتفاظ ببصمة حياة الإنسان:

ولمزيد من إيضاح أن الكون كله مكون من أمواج، والإنسان يحتوى كل ما يحتويه الكون، وبالتالى فهو يتذبذب فى أمواج الحياة.. يواصل أستاذنا الفاضل د. حسن حديثه قائلاً:

لقد أثبت العلم الحديث هذه الحقائق بصورة أخرى، حينما تأكد أن المادة التى نراها أمامنا جامدة، ما هى إلا مجموعة من الذرات، المكونة من إلكترونات وبروتونات وبوزيترونات. تبدو لنا كأنها مادة.. وبذلك أصبح ما فى الوجود ما هو إلا طاقة: إما مكثفة نراها كمادة، أو محررة منطلقة، تأخذ شكل إشعاعات.

فمثلاً، أحد المواد التى يتكون منها جسم الإنسان هى: البروتينات.. وهذه تتغير تماماً كل ستة أشهر، أى تنعدم ويخلق غيرها.. فالإنسان الذى تراه الآن أمامك، حينما تقابله بعد بضعة أشهر، لا تكون هناك ذرة واحدة، من جزئيات وجهه، إلا وقد تغيرت، بينما هو يبدو كما هو.. والسر وراء بقاء هذا الشكل، هو القالب السرى غير المرئى كالباترون.. وهو ما نسميه **المجال الحيوى أو الجسم الأثيرى**، الذى يحتفظ ببصمة حياة الإنسان، ويغذى الجسم بالمعلومات الدقيقة المنقولة إليه منذ خُلق، والتى يفك أسرارها فى الوقت المناسب.. وهو ذاكرة الإنسان الكلية.. ولولا هذا الجهاز، لا نفرط عقد الإنسان وزال وجوده.

وهذا المجال الحيوى يصدر إشعاعات، ويطلق صوراً فكرية يخلقها العقل، ولها طاقة تعمل بقوة أو ضعف، تبعاً لقوة الخيال الخلاق الذى يصدره الإنسان، والذى يؤثر ويتأثر بما يلاقيه فى الحياة.. وهو الذى يؤثر فى الطفل الرضيع ويشفيه، ويبعث فيه الدفء الروحى من الأم.. وهو الذى قد يدمر بحقد أو غل أو حسد، يصدر بقوة من الشخص.

أما من حيث بناء الإنسان: فالجزئ الذى يختفى ليتجدد ويحل محله غيره، لابد له أن ينقل معلوماته وطبيعة وظيفته، إلى الذى يحل محله.. وهذا يتم عن طريق نقل المعلومات التى لديه إلى المجال الحيوى.. ولولا ذلك لما كان هناك النمو المتناسق، ولا هذه المنظومة المعجزة فى جسم الإنسان المتغير دائماً.

المجال الحيوى وأثره على التوازن الإشعاعى فى جسم الإنسان:

لقد تقدم الإنسان مرة أخرى، واخترع أجهزة للتعرف على المجالات الكهرومغنيطسية، التى تقيس نشاط المخ الكهربائى.. وذلك بخلاف قياسات المخ والقلب والأشعة الصوتية العادية.. وهذه تتكون من الإشعاعات الآتية:

١- مجال من ٤-٧ دورة (cycle) فى الثانية ويسمى Theta-delta- Rigthn وهو يحدث أثناء النوم والأحلام.

٢- مجال من ٧-١٤ دورة (cycle) فى الثانية ويسمى Alfa وهو يحدث أثناء الاسترخاء والتأمل.

٣- مجال من ١٤-٢٠٠ دورة (cycle) فى الثانية وهو فى المجال العادى Beta ويمثل نشاط الإنسان أثناء عمله.

ويمكن للإنسان أن ينتقل من مجال إلى آخر، ويراقب نفسه، للانتفاع بقدراته فى ذلك المجال، وبالأخص: المجال الثانى.. ويستفيد من ذلك للرقى الروحى، والتفكير الموجه، ولتعديل مسار حالته النفسية والجسمانية.

وهذه المجالات الحيوية العامة، تخرج منها مناطق ذات طاقة، لها مسارات فى جسم الإنسان، كما هو الحال فى خطوط الطول غير المرئية، التى تسير عبر جسم الإنسان، والتى تربط نقاط معينة، محددة معالمها، ويمكن قياسها بأجهزة معينة،

والتى لها تأثير على أعضاء جسم الإنسان، وتساعد على شفائه، والتى تستخدم فى العلاج بالإبر الصينية، والذى يستهدف إعادة التوازن الإشعاعى فى جسم الإنسان، بعد التعرف على طبيعة شحنة الإنسان الكهربية.

بل إن بعض الأطباء فى بريطانيا، **ابتدع طريقة لتنظيم التوازن الإلكتريكى لجسم الإنسان:** الذى يجعل الرأس موجباً، وآخر سلسلة الظهر سالباً، واليد اليمنى موجبة، واليد اليسرى سالبة.. وهكذا، فبوضع باطن اليد اليمنى على آخر سلسلة الظهر، وباطن اليد اليسرى خلف الرأس، ويستلقى الإنسان فترة.. فإذا عمل مقياس كهربائى للإنسان، يجده يتجه إلى التحسن، ويساعد على إعادة توازنه.. **لأن الفكرة تقوم على أساس أن:** صحة الإنسان تعتمد على الانسجام بين كل نماذج الطاقة، التى يتكون منها الجسم.. فدخول مادة غريبة ضارة، كميكروب أو بكتريا أو انفعال غير عادى، أو حتى تفكير سلبى.. فإن ذلك يؤثر على وعى خلايا الجسم، فكما أن لكل إنسان وعى، فكذلك لكل خلية وعى يخصها.. فإذا انتاب وعى الخلايا شىء يخرجها عن وظيفتها، يحدث المرض.

والعلاج يحتاج إلى إعادة التوازن، عن طريق تقوية الطاقات الطبيعية، أو القضاء على الإشعاعات الضارة، أو امتصاصها وإيجاد مخرج لها، أو تسليك مسارها وإزالة ما يعوقه من عقد أو تكتلات.

فإذا كنا قد نجحنا فى إخراج الطاقة من الذرة، واستخدمنا ذلك فى التدمير، فالأولى أن ننجح فى إخراجها من جسم الإنسان، الذى يحتوى على قوة خلاقة هائلة، واستخدامها فى التعمير والشفاء والصفاء والسعادة.

كيف يحقق الإنسان توازن جسمه بنفسه؟

بعد ما بين لنا أستاذنا الفاضل د. حسن، أحدث ما توصل إليه الإنسان من اختراع أجهزة، تفيد فى تحقيق التوازن الإشعاعى فى جسم الإنسان.. شرح لنا فى لمحة سريعة كيف يمكن لأى منا أن يزيد قدرته على العمل، وينجح فى تحقيق ذلك التوازن إلى حد كبير، فقال:

من الحقائق العلمية الثابتة الآن: أن النصف الأيمن من المخ له اختصاص غير الجزء الأيسر.. فالجزء الأيمن: ينشط بالنسبة للأحلام والتخيلات، والمسائل الميتافيزيقية والخيال.. أما الأيسر: فينشط أثناء الكلام والنطق والمسائل العلمية.. كذلك التنفس من فتحة الأنف اليمنى: يجعل النصف الأيسر من المخ هو الأكثر نشاطاً، والتنفس من اليسرى: يجعل النصف الأيمن هو الأكثر نشاطاً.. فإذا كان الإنسان يريد زيادة قدرته على العمل: فعليه أن يركز تنفسه على الناحية اليمنى من الأنف.. وإذا كان يريد الاسترخاء، فعليه أن يركز تنفسه على الناحية اليسرى من الأنف.

كما أن هناك تمارين ثبت أنها تعيد التوازن للجسم وتقوى مناعته، تنبع من حقيقة: أن الإنسان حينما يسترخى، ويهدأ تنفسه، تصبح يده جافة، وبالتالى يعقب ذلك أن تصبح اليد موصل ضعيف للحرارة.. وبالعكس: حينما يكون الإنسان عصبيا أو غاضبا أو قلقاً، تصبح اليد أكثر رطوبة، وبذلك تصبح موصل جيد للحرارة.. ومن هنا: فكر العلماء من الأطباء فى إجراء تجارب عكسية، بمعنى: أن يجعل الجلد موصل غير جيد، بأجهزة متخصصة لذلك الغرض، تفيد فى معرفة درجة توصيل الجلد للكهرباء.. وبالتالى يعرف الإنسان كيف يصل إلى الدرجة المطلوبة، من الاسترخاء والتنفس الهادئ، مما يساعده على شفائه من بعض الأمراض، التى يسببها التوتر العصبى.

وقد نجح الأطباء كثيراً فى علاج الصداع النصفى بهذه الطريقة، وكذلك ضغط الدم العالى.

على طريق تحقيق الانسجام التام للإنسان:

فى نهاية ذلك المقال الشيق: يشرح لنا عالمنا السابح فى بحر العلوم، كيف يمكن للإنسان أن يحقق الانسجام التام، لجميع لطائفه المعنوية، وأجهزته الحسية. وهو فى ذلك الشرح يجمع أيضاً بين العلوم الطبية والقيم الروحية، بحيث يبلور لنا الطب البديل من وجهة نظر إسلامية، تدعونا إلى الرجوع إلى أصل العلوم، وهى حضارتنا الإسلامية.. حتى يمكننا أن نعتبر الطب البديل، هو الطب الأصيل، مع الاستفادة بتطور الحضارة العصرية.. لأن أطباء المسلمين الأوائل برعوا فى الطب، لأنهم مزجوا بين الروح والمادة، فعالجوا جسد الإنسان، وفى نفس الوقت لم يغفلوا

متطلبات الروح، لهذا حصلوا على أعظم النتائج الطبية، مما أفادوا به البشرية.

يقول أستاذنا الفاضل د. حسن:

الإنسان مكون من:

١- المستوى المادى	Physical	معه العقل لا العاطفة	Intellect
٢- المستوى العاطفى	Emotional	ومعه الإلهام	Inspiration
٣- المستوى العقلى	Immagination	ومعه الخيال	mental
٤- المستوى الروحى	Spiritual	ومعه البديهة-الحدس	

ولاشك أن انسجام الإنسان مع نفسه، ثم أسرته، ثم مجتمعه، هو سر السعادة التى يتمناها كل أحد.. أما الآثام، والأخطاء النفسية، وارتكاب الحرام مع الأسرة الصغيرة والكبيرة.. فهذا كله يؤثر على الجسم المادى، لعلاقته الوثيقة بالنفس البشرية، كما سبق أن أوضحنا.. مما يؤدى إلى اختلال التوازن، وهذا يؤدى إلى الإخلال بما تفرزه الغدد، وبتوازن البروتين فى الجسم، واختلال نسبة الـ Tissue Salts ويسمون ذلك Blocking الذى يعوق سريان الطاقة فى جسم الإنسان.. فقد بينا أنه كما أن لكل إنسان وعى، فلكل خلية فى جسمه وعى كذلك.. والكل يعمل فى إطار متوازن، والاختلال يؤدى إلى المرض.

والعلاج يكون بتمكين هذه الأجهزة أن تعود إلى توازنها.. ويقوم الجسم نفسه -بقيادة الفكر والخيال الخلاق- بأداء هذه الوظيفة.. وهذا من إعجاز الله فى خلقه، وسر من الأسرار التى أودعها فى الكون.

وقد أضاع الإنسان قروناً عديدة، صرف معظم وقته وهمه وجهده فيها، إلى خارج جسمه، واكتشاف أسراره.. فانطلق إلى الفضاء، وقاس النجوم والمجرات والكواكب، وعبر الأجواء.. ولكنه لم يتقدم بنفس الهمة والنشاط للتعرف على داخل نفسه، وإدخال السعادة والسلام على المجتمع الذى يعيش فيه.. فهل آن الأوان لتحقيق الانسجام التام للإنسان، والانتفاع بأسرار الإيمان؟!

هذه مجرد لمحة وشعاع على الطريق الصحيح السليم، لكى يسير الإنسان على درب الإيمان والأمان، ويحقق لنفسه الصحة والطمأنينة والسلام.

العلاج بالبرانا

ما هى البرانا؟

المقصود بالبرانا: هـى الطاقـة الحيويـة الموجـودة فـى الكـون، والتـى يمكـن أن تستغل لتحقيق النشاط الحيوى للإنسان، بما يجعل الجسم المادى حياً وصحياً.

فكما شرحنا من قبل: فإن لكل إنسان جسم منظور وهـو المـادى، وجسـم أثيرى هو بيوبلازم، حيث يتخلل الجسم المادى المنظور، ويؤثر فيه تأثيراً بالغاً.

والبرانـا تسـمى فـى اللغـة اليونانيـة: **بنومـا**، وعنـد الهنـود تسـمى: **مانـا**، وعنـد المؤمنين تسمى: **الروح**، حيث تزداد قوة الإنسان، كلما ازدادت روح الإيمان داخله.

أما كيفية الحصول عليها:

فنحصـل عليهـا مـن ثـلاث جهـات: الشـمس، والهـواء، والأرض (وتلـك منـابع مباشرة).. **بالنسبة للشمس:** نحصل على البرانا منها بالتعرض للشمس مباشـرة، أو بشرب ماء تعرض للشمس فى زجاجات.. ولكن يجب أن لا نزيد مدة تعرض المـاء للشمس، حتى لا تضر.

بالنسبة للهـواء: نحصـل علـى البرانـا منـه عـن طـريـق التنفس، وعـن طـريـق **الشاكرا** وهى نقط أعصاب فى اليد تعتبر مصادر امتصاص الطاقة، حيث توجد فـى كل يد (فى وسط الكف) حوالـى بوصـة مربعـة مـن الشـاكرا، وكذلـك عند أطـراف الأصابع.. وكلما كان التنفس عميقاً وبطيئاً ومنتظماً، كلما أمكن الحصول على البرانا بصورة أفضل.

بالنسبة للأرض: فيمكن الحصول على البرانـا منهـا، عـن طـريـق المشـى حافيـاً على الأرض كل يوم فترة.

وهناك طرق غير مباشرة للحصول على البرانا.. منها:

- الماء الذى يشربه الإنسان، يمتص البرانا من الشمس والهـواء والأرض، وكذلـك النباتات التى يأكلها والحيوانات..

- يمكن أن تنتقل البرانا من إنسان يتميز بالطاقة والحيوية، إلى إنسان آخر لا يملك الكثير من النشاط الحيوى، لسبب أو لآخر.
- وهناك من الأشجار Pine والأشجار الكبيرة والمعمرة، ما يكون لديها برانا زائدة.. فيمكن للإنسان المريض، أن ينام بالقرب من هذه الشجرة، أو يستند إليها، لتمتص منه مرضه، ولتعطيه بعض البرانا التى تنقصه.

أهمية البرانا فى حياة الإنسان:

تعتبر البرانا هى مصدر الحيوية والنشاط والصحة للإنسان. فإذا علمنا أن تغيرات الجو تؤثر على البرانا، فإن الإنسان يكون فى أضعف أوقاته بالنسبة للبرانا، التى تقل عادة حوالى الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة صباحاً.

- ويلاحظ أنه كما أن للإنسان شرايين دموية، فهو له كذلك مسالك غير مرئية تسير فيها البرانا تسمى Nadis.. وهذه لها علم خاص وهو الـ acipunctun، ويقوم عليها علم العلاج بالإبر الصينية.

  فإذا كانت هذه الخطوط فيها انكماش، أو مغلقة فى ناحية معينة، بحيث تمنع سريان البرانا الطبيعى، فإن الإنسان يختل توازنه، ويمرض بالتالى.
- إذا استطعنا توجيه البرانا إلى الإنسان الذى يعانى منها نقصاً: فإنه يمكن بذلك معالجة كثير من أمراض الإنسان مثل: تخفيض حرارة المريض، وإزالة آلام الرأس أو المعدة أو الأعصاب أو العضلات.. وكذلك علاج الكحة والبرد فى يوم أو اثنين.. أما أمراض الكلى والكبد والقلب والعيون، فيمكن علاجها بعد جلسات، وقد تأخذ أسابيع.. ولكن يرى الأطباء المشتغلون بهذا النوع من العلاج أنها أكثر فاعلية فى تحقيق الشفاء، حيث تستغرق ثلث مدة العلاج العادى، مع التأكيد على الوصول إلى نتائج إيجابية.

كيف يتم العلاج بالبرانا؟

لكى نعرف طريقة العلاج، لابد أن نتعرف أولاً كيف يحدث المرض..

فالمرض –باختصار شديد– يحدث نتيجة اختلال الطاقة الحيوية لدى الإنسان، سواء بنقص الهالة أو زيادتها.. فما هى تلك الهالة؟

الهالة: هى الطاقة المضيئة حول جسم الإنسان. فكل إنسان له هالة حول جسمه كله، وهذه تسمى "الهالة الداخلية".

وعندما يمرض الإنسان، فمعنى ذلك أن البرانا قلت فى جسمه، وبالتالى فى الهالة.. وبذلك فإن الهالة الداخلية للجزء المصاب فى جسم الإنسان، تقل إلى ٢ بوصة أو أقل.. وكلما زاد المرض، كلما قلت الهالة الداخلية، حتى تصل إلى نصف بوصة، ويمكن معرفة ذلك عن طريق الفحص، الذى سنتكلم عنه فيما بعد.

وقد يمرض الإنسان، بسبب زيادة الهالة فى بعض أجزاء جسمه، وهذا يسمى Aurie congestion.

والعلاج يتم عن طريق امتصاص البرانا من الجو (بمعرفة المعالج) عن طريق كف يده اليسرى، ثم طرح البرانا (بمعرفة المعالج أيضاً) على المريض عن طريق كف اليد اليمنى.. وهذا يستلزم خبرة فى كيفية زيادة حساسية الأيدى، لتكون أكثر فعالية فى امتصاص البرانا، وطرحها على المريض، وهو ما نشرحه فيما يلى:

طريقة زيادة حساسية الأيدى:

هذه الطريقة من الأهمية بمكان، لكى يزيد شعور الإنسان بالـ Biplasm أى المجال النشاطى، وليمكن معرفة أى الأمكنة فى جسم الإنسان المصابة، بطريقة أكثر كفاءة.. وتتلخص هذه الطريقة فيما يلى[١]:

١- ضع يديك بالقرب من بعض، بحيث يكون الكفان فى مواجهة بعض، وعلى بعد ٣ بوصة من بعضهما، وتكون أنت مسترخياً.

٢- ركز تفكيرك على وسط الكفين، وحاول أن تشعر بتركيز على كفيك، ويستمر ذلك لمدة ١٠ دقائق.

٣- فى نفس الوقت خذ نفسك، واخرجه بهدوء وعمق.

٤- يمكنك أن تبدأ قبل عمل التمرين: بأن تضغط أصابعك على وسط كفك.

---

(١) هذا التمرين يُعمل لمدة أسبوعين.

وبالتركيز على وسط كفك بذهنك، فإن كفيك ينشطان الشاكرا، التى توجد فى وسط الكف.. وبذلك يمكن ليديك أن تشعرا بالطاقة الخفية، أو بالمادة الأثيرية.

٥- بعد فترة من التمرين عدة مرات.. غالباً نشعر بإحساس وحرارة، أو اهتزاز كالنبض بين الكفين، وهما قريبان من بعضهما.. بعد هذا الشعور، قم فوراً بعملية الفحص Scanning.

الفحص Scanning:

دائماً عند الفحص، ركز تفكيرك على كفيك.. فبالتركيز على باطن الكف، تحافظ الكف على حيويتها ونشاطها، وبذلك تصبح حساسة، لمعرفة الطاقة الحيوية للمريض، وتتبعها وفحصها.. وبدون ذلك ستجد صعوبة فى الفحص.

ويتناول الفحص عدة مجالات نوضحها فيما يلى:

١- فحص الهالة الخارجية:

- قف على بعد ١٢ قدم من المريض، ووجهك متجه إليه، وكذلك كفيك متجهتين إليه.
- اتجه إلى الشخص المريض ببطء، ثم حاول بكفيك أن تتحسس الهالة الخارجية له، وهى القريبة جداً من جسمه العادى.
- ركز ذهنك على باطن كفيك، وعند تحرك كفيك حول جسمه، قف عند المكان الذى تحس أن به حرارة، أو أنه يضغط على كفيك.. أو إذا أحسست باهتزاز، أو ما شابه ذلك، فهذا معناه أنك الآن تحس بالهالة.
- حاول أن تحس بحجم وشكل، هذه الهالة المحيطة بالجسم وسمكها، أى عمقها، من الرأس إلى الوسط إلى القدم.. ثم من الأمام إلى الظهر (أى الخلف).. وفى جميع الأحوال، ستحس بأنها مثل البيضة المقلوبة، أى الأعلى أوسع من الأسفل.. ومن المهم جداً التدرب على ذلك، وفى العادة فإن الهالة الخارجية يكون وسعها ٣ أقدام.

٢- فحص الهالة الصحية:

- بعد التعرف على الهالة الخارجية، اقترب أكثر وحاول أن تتحسس. قف عندما تشعر بان هناك حرارة أو اهتزاز أو ما شابه ذلك) مرة ثانيـة.. وقد تكون هذه المشاعر أكثر عمقاً، عندئذ تكون قد لمست الهالة الصحية.
- حاول أن تتعرف على حجمها وخواصها.. وهى عادة فى حدود ٢ قدم فى الوسع. وحينما يكون الشخص مريضاً، فإن الهالة الصحية تكون مائلة ومرتخية، كما تكون منكمشة فى الحجم، حتى تصل أحياناً إلى ١٢ بوصة أو أقل.

أما حينما تكون الحالة الصحية جيدة، فإن الهالة الصحية تكون كبيرة، وتصل إلى ٣٠ قدم أو أكثر، وهى تكون فى العادة أشبه باسطوانة كبيرة من فوق، وأصغر من تحت هكذا ←



٣- فحص الهالة الداخلية:

- حاول أن تتحسس الهالة الداخلية بكف واحد أو بالكفين.
- حرك كفيك إلى الخلف وإلى الأمام، بهدوء وببطء، حتى تشعر بها. وهى عادة تكون بسمك ٥ بوصات.. ودائماً ركز على باطن كفك وأنت تتحسس.
- افحص المريض من الرأس إلى القدم، ثم من الأمام إلى الخلف. افحص النصف الأيسر والنصف الأيمن.. مثلاً افحص الأذن اليسرى، ثم الأذن اليمنى. أو الرئة اليمنى ثم اليسرى.
- حينما تفحص الجانب الأيمن، والجانب الأيسر من الجسم، بالنسبة للهالة الداخلية، فإنك ستجد نفس السمك.. فإذا كان أحد الأجزاء أكبر من الجزء الآخر (الأيمن أو الأيسر) فمعنى ذلك: أن هناك خللا فى هذه المنطقة.
- إذا وجدت عند فحص الأذن: أن الهالة الداخلية للأذن اليسرى سمكها خمس بوصات، بينما الأذن اليمنى سمكها بوصتان فقط، فمعنى ذلك أن الأذن اليمنى ضعيفة أو مصابة.
- يجب أيضاً عند الفحص: الانتباه إلى السلسة الفقرية، والأعضاء المهمة، وكذلك الشاكرات الرئيسية.. ففى كثير من الأحوال، تجد أن جانباً من

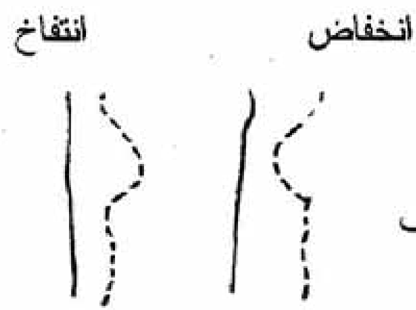
السلسلة الفقرية إما متضخم أو منكمش، بالرغم من أن المريض قد لا يشكو من شيء.

- وعند فحص الزور: يجب أن ترفع ذقن المريض إلى أعلى، لكى يكون الفحص دقيقاً.. كما أن فحص الرئة: يجب أن يكون من الأمام ومن الخلف والجانبين. كما يجب الاعتناء بفحص العصب الشمسى: Solar phascas.

ملاحظات هامة عند الفحص:

لاحظ عند الفحص أنك ستجد (أى ستشعر) أن هناك أحياناً انتفاخاً أو انخفاضاً.

- فإذا كان هناك انخفاض: فمعنى ذلك وجود هزال البرانا. أى أن البرانا أقل مما يجب، وأن خطوط القوة الحيوية المجاورة مسدود Blocked. وبذلك فهى تمنع البرانا الجديدة من السير، وأنها لا تمر بحرية. ففى حالة الضعف البرانى، فإن الشاكرا المصابة تكون أقل حيوية.



- وقد تكون الجهة التى تفحص متضخمة: أى أن البرانا أكثر من اللازم (منتفخة) وهذا معناه: أن البرانا لا تجد سبيلا للتحرك، وعلى ذلك فهى تفقد حيويتها، وتسد الخطوط الحيوية.
- وقد يحدث للعضو الواحد، كالكلى أو القلب، انخفاض فى جانب، وتضخم فى جانب آخر، وكلما صغرت الهالة الداخلية، كلما زاد الضعف.
- وأحياناً تجد هذه المسائل، ولكنها تكون موقوتة.. فمثلا الشخص الجالس لمدة طويلة نجد عند فحصه: تضخم فى الهالة الداخلية حول الإلية. ولكن حيث أن الخطوط الحيوية لم تتأثر، فإن التضخم يزول.

تنشيط البرانا بالجسم:

يتم تنشيط البرانا فى جسم الإنسان عن طريق **عملية التنظيف: Sweeping**

وهناك نوعان من عملية التنظيف هذه:

التنظيف العام: وهو يخص الجسم كله.

التنظيف الخاص: وهو التنظيف المحلى لجزء من الجسم.

ويتم التنظيف عادة باستخدام اليدين **بطريقتين:**

- إما استخدام الكفين وهما على شكل كأس لكل منهما.
- أو باستخدام الكفين والأصابع متفرقة.

والطريقة الأولى هى الأكثر تأثيراً، لاستبعاد الأجزاء المصابة.. أما الطريقة الثانية فهى الأكثر تأثيراً فى تمشيط الأشعة الصحية.

والغرض من التنظيف عموماً: إزالة المادة المنتفخة أو المصابة، وفتح الطريق أمام الطاقة لتسير طبيعياً، وتأخذ مجراها الطبيعى فى الجسم، بدلاً من أن تكون مسدودة.. وكذلك إزالة الجراثيم، والبيوبلازم الضار أو غير النظيف، وتقوية المناعة.. وإذا كانت هناك ثقوب فى الهالة الخارجية، فالتنظيف يسدها، ويحتفظ بالبرانا داخل الجسم.

كما أن التنظيف يستهدف إعادة توزيع البرانا، وزيادة النشاط البرانى، عن طريق استخدام فائض البرانا، من مكان إلى مكان آخر فى الشاكرات. فمثلاً يمكن شفاء الأرتريتس Arthritis الخفيفة فى بضع دقائق، بمجرد تنظيف الأصابع، وتوجيه البرانا الفائضة من شاكرا اليد إلى الأصابع. ويعتبر التنظيف طريقة علاج ناجحة، حيث يمكن شفاء كثير من الأمراض بمجرد عملية التنظيف.

طريقة التنظيف:

أولا: **التنظيف العام:** يتم عن طريق حركات من أعلى إلى أسفل، مبتدئا بالرأس حتى القدم.. ولا يستعمل التنظيف من أسفل إلى فوق أبداً، إلا فى حالة واحدة، وهى فى حالة إيقاظ المريض من النوم أو من الإغماء.

- كوّن من كفيك من كل يد شكل كأس، وابدأ من فوق الرأس بحوالى ٦ بوصات بدون أن تلمس جسم المريض.. وحافظ دائماً على أن تكون يداك على بعد بوصتين من جسم المريض.. انزل بيديك وهما مازالتا على شكل كأس cup

بهدوء من الرأس إلى القدمين، وابدأ من وسط الرأس إلى السرة إلى القدمين وهما متجاورتان.

- بعد أن تصل إلى القدمين، ارفع يديك إلى فوق، وبسرعة انثر ما علق بها من سيالات ضارة، حتى لا تضر نفسك أيضاً، وحتى لا تتسرب إليك.
- كرر هذه العملية بعد ذلك، وابدأ من وسط الرأس على اليمين قليلاً، وهكذا كما هو موضح بالرسم.. ثم كرر ذلك من خلف المريض. ومن المهم جداً أثناء عملك: أن تركز على إزالة الجزء المريض، وتوزيع البرانا.. المهم أن تركز بإرادتك وهمتك وخيالك معاً، لإزالة الأجزاء المريضة.
- قد يحدث بعد ذلك أن المريض يشعر بأنه في حاجة إلى النوم، أو يبدو عليه النعاس. وفي هذه الحالة، يمكن عمل بضع سحبات، من تحت إلى فوق لإيقاظه.
- ويلاحظ أنه لا يجب أبداً عمل السحبات العكسية (أي من تحت إلى فوق) إلا للإيقاظ فقط، وهي لا تتم أبداً إلا بعد عمل السحبات التنظيفية.

ثانيا: التنظيف المحلي:

- ضع يديك أو يد واحدة فوق الجهة المصابة وببطء. نظفها متجها إلى أسفل كالعادة، وكأنك تنظف بيدك شيئاً قذراً.. وفي هذه الحالة، يكون المريض جالساً، وأنت مركز ذهنك وخيالك، على تنظيف الجهة المشكو منها.
- بعد ذلك انثر يديك، لتطرح ما علق بها من قاذورات مريضة.
- وفي هذه الحالة المحلية، يمكن أن تعمل التنظيف من فوق إلى تحت، أو على شكل حرف L أفقيا أو بزاوية ↙

- ولاحظ أنه يحدث أحياناً أثناء التنظيف، أن ينتقل المرض أو الألم، من جهة لأخرى. وفي هذه الحالة، عالج الجهة الأخرى فوراً، حتى ينتهي المرض تماماً.
- أما عن عدد مرات التنظيف، فيمكن أن تكون أربع أو خمس مرات، بحيث تكون الطريقة هي أن تقوم بالتنظيف في اليوم الأول أربع مرات، ثم يقل بعد ذلك في الأيام الأخرى.. وكل ذلك يتوقف على طبيعة المرض وحجمه.
- ولاحظ أن يكون بجانبك شيء مثل قصرية الزرع، ويكون بها ماء وملح، لكي تقذف فيها الأشياء الضارة، عندما تنثر يديك، وترمي ما فيهما.

كيف تحصل على البرانا ثم تنقلها إلى الغير؟

- لاحظ أولا قبل أي عمل أن تتنفس بعمق، وتأخذ البرانا من الهواء، وتملأ بها صدرك، وتوحي إلى نفسك بأنك تحصل على طاقة حيوية إلهية، من الأشعة الكونية، وتحتفظ بها داخلك لاستعمالها.
- كما يجب أيضاً أن تفتح كفك اليسرى، لكي تحصل على البرانا، وتأخذ في ذهنك أن اليمنى ستعطي هذه البرانا، في الجهة التي تتجه إليها.

ويتم ذلك بالطريقة الآتية:

- اضغط بإصبع إبهام يدك اليمنى، على باطن كفك اليسرى، وتكون اليد اليسرى أفقية، والكف رأسيا.. وأهم شيء هو أن تركز بذهنك وخيالك على باطن الكف، التي ستستخدم لسحب البرانا من الهواء، وهي اليسرى لمدة حوالي ١٥ ثانية لتنشيط الكفين.
- بعد ذلك ضع اليد اليمنى بالقرب من الجزء المصاب، وعندئذ ركز ذهنك على كفك باطن اليسرى، لسحب البرانا من الخارج، واليمنى يوصلها إلى الجزء المصاب، وهي على بعد ٣ أو أربع بوصات من هذا الجزء.. وتعمل ذلك لمدة من خمس إلى خمس عشر دقيقة.

- ولاحظ دائماً أن تركز فكرك على ما تعمل، أي تنشيط الكفين، أو نقل البرانا إلى الجزء المصاب.. وأود أن أكرر أهمية أن يكون التركيز دائماً على الكفين (أي

الكف الذى يسحب البرانا، والكف الذى ينقلها) فى نفس الوقت.

- إذا شعر المعالج بتعب، فعليه فوراً أن ينثر ما علق بيديه من البيوبلازم، حتى لا يسرى فى جسمه.. ويمكن أن يستمر عدة مرات لعمل التنشيط، حتى يأخذ العضو المريض ما ينقصه من البرانا.. ويمكن مع الوقت معرفة ذلك: حيث تشعر عندما تقترب يدك اليمنى إلى الجزء المريض، فإنك تشعر بتنافر أو ابتعاد (عكس الجذب) وهذا يدل على أن العضو اكتفى بما حصل عليه من البرانا، أو أن تشعر بأن البرانا التى تسحبها بيدك اليسرى توقفت قليلاً.

ويمكن مراجعة ذلك بعمل فحص scanning للاطمئنان إلى تحسن الحالة.

- يلاحظ أيضا: أنه يمكن إرسال البرانا بالأصابع، بدلاً من باطن الكف.. وفى هذه الحالة تكون مركزة أكثر.
- ويلاحظ أنه لتقوية الحصول على البرانا من الهواء: ارفع يدك اليسرى إلى فوق، وتخيل أنك تحصل على البرانا من السماء، وتوجه يدك اليمنى إلى المريض.
- ولكى تمنع تسرب البرانا التى تحصل عليها، حتى لا تضيع.. فإن أحسن وسيلة لتثبيت البرانا، وتوصيلها للمريض: هى أنك أثناء سحب البرانا من السماء وتوجيهها إلى المريض باليد اليمنى، أن تتخيل أن ما يخرج من اليد اليمنى من برانا أزرق اللون، وتخيل موجة زرقاء تخرج من يدك، وأن البرانا زرقاء اللون.
- **ولكى تحقق أقصى كفاءة ممكنة**: يمكنك أن تعمل جدول لنفسك، لكى تكون مستعداً للعلاج، بأن تدرب نفسك على ذلك كالآتى:

– عمل التحسس sensitising saisitising للكفين لزيادة حساسيتهما، لاستقبال البرانا، تبدأ من ٥ إلى ١٠ دقائق كل يوم.

– **الفحص scanning**: من خمس إلى عشر دقائق كل يوم.

– **التنظيف**: ١٠ دقائق كل يوم.

– تنشيط البرانا: ١٠ دقائق كل يوم.

وذلك كله لمدة ١٠ أيام.

ملاحظات هامة فى العلاج بالبرانا:

١- يحسن أن لا تنشط العيون مباشرة لأنها حساسة. ويمكن تنشيط العيون من خلف الرأس، أو المنطقة بين الحواجب.. فهناك شاكرا فى كل من هاتين الجهتين. والطريق الأكثر أمناً، أن تنشط هاتين الشاكرتين.

٢- كذلك ليس من المستحب أن تنشط القلب لمدة طويلة، لأن زيادة تنشيطه قد يؤدى إلى ازدحام القلب بالبرانا.. ويمكن تنشيط القلب من الظهر، وهذا يقلل ضغط البرانا عليه.

٣- لا تعطى الأطفال كميات من البرانا أكثر من اللازم.

٤- إذا لاحظت أن مجموعة العصب الشمسى solar plerpas نشطت أكثر من اللازم، فإن ذلك يؤدى إلى أن يصبح وجه المريض شاحب، وتنفسه صعب، فإذا حدث ذلك، فاعمل التنظيف المحلى لأجزاء العضو.

خطوات العلاج بالبرانا:

١- استعراض حالة المريض بصفة عامة.

٢- اعمل فحص scanning للعمود الفقرى، والأعضاء الهامة، والشاكرات، والأجزاء المريضة.

٣- ابدأ بعمل تنظيف عام.

٤- اعمل تنظيف محلى للأجزاء المصابة.

٥- اعمل scanning مرة ثانية للأجزاء المصابة، للتأكد من أن ازدحام البرانا قد هبط، وأن القنوات الحيوية تطهرت وسلكت.

٦- اعمل تنشيط للأجزاء المصابة.

٧- اسأل المريض عن نتيجة أعمالك: فإذا اشتكى من بعض الآلام، فى مناطق معينة، فاعمل له إعادة فحص.

وإذا كانت إمكانياتك فى الفحص محدودة، أو لم تتقنها بعد، فيمكن تجاهلها، وتكتفى بالتنظيف والتنشيط.

غسل اليدين:

يجب غسل اليدين قبل وبعد العلاج، وذلك من أول الأصابع حتى الكوع، أى قبل العلاج، وبعد التنظيف، وبعد التنشيط.

ملحوظة للمريض:

بعد جلسة العلاج، لا يجوز للمريض أن يغسل الأجزاء المصابة، لمدة اثنى عشر ساعة.. وإذا كان المريض تعباناً، فيمكن مد المدة التى لا يجوز فيها الغسيل إلى ٢٤ ساعة، حيث لا يغسل ولا يستحم أثناءها.

ملابس المعالج:

يجب أثناء العلاج أن لا يلبس المعالج حرير أو مطاط.. وكذلك المريض. لأن ذلك يؤثر على انسياب البرانا.. وكذلك الأحذية والأحزمة، يحسن خلعها.

فى نهاية المطاف:

وهكذا نكون قد استعرضنا العلاج بالبرانا، كطريقة من طرق الطب البديل.. على أن يكون مفهوما أن البرانا التى يتم الحصول عليها بهذه الطريقة، إنما هى الطاقة الحيوية الموجودة فى الكون.. **ويمكن للمؤمنين أن يحصلوا على طاقات إضافية، بقوة الإيمان الذى يعمر قلوبهم**، ويتغلغل فى كيانهم، فتنتعش أرواحهم، وتمدهم بأقصى مجالات النشاط الحيوى، الذى يمكن أن يحققه إنسان، لأن الجسم الأثيرى للمؤمنين، يتأثر كثيراً بالإلهامات الفكرية الراقية، التى تفجرها بواعث الإيمان، فيؤثر بالتالى على جسدهم المادى، بما يحقق لهم القوة والحيوية المطلوبة، لينطلقوا فى الحياة بفاعلية وإيجابية.

فالإنسان جسد وروح، وكل منهما يؤثر ويتفاعل بالآخر، ليس هذا فقط، بل الإنسان فى مجموعه يتأثر بكل ما فى الكون من أمواج، وفى نفس الوقت يؤثر فيه.

وهنا تظهر عظمة الخالق فيما أودع فى الكون من أسرار وطاقات، تحقق بتفاعلها الانتظام المنشود فى الوجود.

﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن . بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ (الأنبياء-٤٢).

رؤية جديدة للوجود

العلم ومعرفة الله:

لعل من الأمور التى لا يعرفها البعض عن أستاذنا الفاضل د. حسن عباس زكى أنه متبحر إلى مدى بعيد فى علوم الفيزياء.. والسر وراء ذلك أن هذا الفرع من العلوم، هو أكثرها إجابة على تساؤلاته، حول أصل الإنسان وعلاقته بالكون؟ وما هى الأسرار التى أودعها الله فى ذلك الإنسان؟ وكيف يحقق الإنسان السمو الروحي؟ وكيف يزداد قرباً من ربه؟.. وتلك التساؤلات نشأت منذ دخوله طريق التصوف، الذى يعنى طريق الوصول إلى الله. والوصول يعنى المعرفة.. وتلك المعرفة لن يكتسبها الإنسان إلا بعد معارف كثيرة، تؤدى فى النهاية إلى معرفة الله حق المعرفة.

وإن بحر العلوم الذى نغترف منه، بعض مقالات أستاذنا العارف بالله د. حسن هو ترجمة فعلية لتلك الأبيات التى تعبر عن لسان حاله:

سرٌ سرى من جناب القدس أفنانى — لكن بذاك الفنا عنى قد أحيانى
وردنى للبقا حتى أعبر عن — جمال حضرته لكل هيمان
وطرت فى ملكوت من عجائبه — ما لم ألق غير وجود ماله ثان

وها هو أستاذنا العالم، يعلمنا كيف نرى عجائب الملكوت، برؤية جديدة، تتفق مع أحدث ما وصل إليه التطور العلمى، نحقق معها صفاء قلوبنا، ونضج عقولنا، وارتفاع وعينا، مما يجعلنا نتفاعل مع الوجود بحيوية وانسجام.

كيف يرتفع وعى الإنسان؟

يقول د. حسن: إن كل شىء فى الوجود يتمتع بنوع ما من الحياة.. فالشجر يتمتع بأن له حقل نشاط، أى مجال نشاط حيوى.. وكل شىء يحيط به هذا المجال الحيوى، فنحن نسبح ونعيش فى بحر من النشاط والطاقة. ولكن نتمكن من رؤية هذا المجال والتعامل معه، فيجب علينا أن ننتقل إلى حالة مرتفعة من الوعى.

ونعني بارتفاع الوعي: هو أن يعطي الإنسان نفسه فرصة ووقت، لكي يستمع إلى ذاته وأعماقها، مما يجعله يعيش الحياة بفاعلية وإيجابية أكبر.

ويمكن الارتقاء إلى مستوى عالي من الوعي: بأن نمزج أنفسنا بالأشياء المحيطة بنا.. فنحن كالشمعة المشتعلة، ذات النور.. فلا يجب أن ننظر إلى أنفسنا بمعزل عن الغير، كأننا الشمعة فقط، بل إننا أيضاً النور الخارج منها، حيث أثبت العلم أن هذا النور ينطلق إلى آفاق الكون كله، وليس محصوراً في محيط الشمعة وحدها، وهذا يجعلنا نشعر بامتزاج مع الكون، حيث أننا جزء منه، فأنوارنا تسرى إليه وأنواره تسرى إلينا.. وهذا الامتزاج يشعر بعظمة التوحيد وحتميته.

وليس هناك وسيلة معينة يتم بها ارتفاع الوعي: حيث يمكن أن يتم ذلك عن طريق التأمل والاسترخاء.. أو أثناء الجرى أو المشى أو الجلوس أمام الشاطئ والنظر إلى البحر والأمواج.. المهم في كل تلك الأحوال: أن يعرف الإنسان كيف يتأمل أعماق نفسه بوضوح.. كما أمر بذلك القرآن الكريم لاستنهاض الوعى الإنساني، والارتقاء به. فقال عزّ من قائل:

﴿أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾ (الروم: ٨).

لذلك يجب على الإنسان أن يخصص وقتاً، ليعيش فيه مع نفسه، ويكون وحيداً، ولا يفعل أكثر من أن يستمع إلى ما يدور بداخله، حتى يلتقط ما يرد إليه من إلهامات أو واردات أو رموز، بدون أن ينفعل أو يصطنع شيئاً.

وإذا تساءل أحد عن فائدة ارتفاع وعى الإنسان.. يجيب د. حسن عن ذلك بقوله: حينما يرتفع مستوى الوعي لدى الإنسان، فإنه يمكنه أن يتخاطب مع الغير بدون كلام، وأن يحس بأحاسيس غيره.. وإذا ركز على حالة شخص ما، أمكنه أن يتعرف عليها، سواء كانت مرضاً جسمانياً أم معنوياً.. وهذا مما يزيد طاقات الإنسان، ويزيد فاعليته في الحياة، بحيث يكون خليفة الله فى أرضه حقاً وصدقاً وعدلاً.

الإنسان طاقة:

يحرص أستاذنا العالم د. حسن فى كل كتاباته على بيان أن الإنسان ليس آلة جامدة، كما يظن الماديون، بل هو طاقة تشع بالحياة والمشاعر والمعانى والأفكار. وأن تلك الطاقة تتفاعل مع طاقات الكون بأسره، فإذا آمن الإنسان بالله، انصهرت كل الطاقات فى بوتقة وحدانية الله، وبالتالى استمد الإنسان طاقات هائلة، نتيجة توافقه مع الوجود كله، حيث الكل يعزف أنشودة الخلود القدسية "لا إله إلا الله".

فيقول د. حسن: إن العلم الحديث يصف لنا تكوين الإنسان، على أنه يتكون من جزئيات، وأيضاً مجالات ذات طاقة نشطة.. وقد أمكن للعلم أن يصنع أجهزة تتعرف على هذه الطاقات، بل وتقيسها أيضاً عن طريق التيارات الكهربائية. وقد أثبت بعض العلماء، بالنسبة لمجال النشاط الحيوى الإنسانى، أنه يوجد ما يسمى: بمجال نشاط بيوبلازمى.. يتكون من أيونات وبروتونات وإلكترونات حرة.. وبذلك تكون أحوال المادة الخمسة هى: المادية الجامدة، والسائلة، والغازية، والبلازمية، والبيوبلازمية..وبالتالى: فالإنسان ليس جسداً فقط، بل هو جسد وروح وتلك الروح تحتاج إلى المعانى السامية، لتجدد طاقاتها.

كيف نؤثر على بعضنا البعض عن بعد؟

ظللنا مدة طويلة ننظر إلى كل شىء، وإلى أنفسنا، على أننا أشياء جامدة.. ونعرف الكون على أنه مكون من جوامد.. حيث عالم نيوتن الذرى، مكون من أشياء جامدة: نواة – بروتون – نترون – وإلكترونات تدور حولها، كالأرض التى تدور حول الشمس.. وقد نجحت الفيزيقا النيوتونية فى وصف حركات الأفلاك والآلات بقوانين تعتبر أنها القوانين الطبيعية التى لا انفكاك عنها.. واعتبرت أن كل رد فعل مادى، يعتبر كنتيجة لسبب مادى، كالكرات التى تتصادم على المائدة.. وكانت تنظر إلى جسم الإنسان كآلة. وكانت تفسر تجارب الإنسان فى عالم ذى أبعاد ثلاثة، وزمان مستقيم Linear.

ولكن كان من الاكتشافات الهامة فى القرن التاسع عشر:

اكتشاف ظاهرة **الكهرومغناطيسية**، والتى أدت إلى إدراك **المجال**.. الذى عرفوه: بأنه حالة فى الفضاء لها إمكانية إنتاج قوة.. وقد أمكن **لفرداى** أن يستفيد من المجال، فقال: إن كل شحنة تخلق حالة أو اضطراب معين فى الفضاء حولها، وأن الشحنة الأخرى، إذا وجدت، تخلق قوى تتفاعل مع بعضها.

وعلى ذلك فإن إدراك عالم كونى Universe ملىء بالمجالات التى تخلق قوى تتفاعل مع بعضها، نشأ فى الفيزيقا الحديثة.. وبدأنا ندرك أنه يمكن أن نؤثر على بعضنا البعض عن بعد **بوسائل أخرى غير الكلام واللمس والرؤية.**

والدليل على ذلك: أنه كثيراً ما نسمع عن أم تدرك ما يحدث لطفلها وهو بعيد عنها.. أو أن شخصاً، عندما يدق التليفون، يشعر بالمتكلم قبل أن يستمع عليه.

وفى سنة ١٩٠٥ نشر البرت اينشتاين **نظرية النسبية**.. وقضى بها على كثير من مفاهيم ومبادئ نظريات نيوتن.. فطبقاً لنظرية النسبية: فإن الفضاء ليس ذى أبعاد ثلاثة وأن الزمان ليس شيئاً مستقلاً بذاته.. وأن الزمان والمكان مرتبطان ببعض ويكونان "الزمكان" وهو شىء ذو أبعاد ثلاثة.. وأصبح لا يمكن الكلام عن الزمان على حده، أو المكان على حده.. كما أن الزمان ليس مستقيماً، وليس مطلقا.. وأنه لا يوجد توالى عالمى للزمان، فالزمان نسبى.

وطبقاً لنظرية اينشتاين: فإنه يمكن للمراقبين أن يريا حادثتين فى وقت معكوس.. بمعنى أن المراقب أ قد يرى حادثة س قبل ص.. بينما المراقب ب يرى حادث ص قبل س.

كما أن الزمان الخاص بشخص معين، يختلف باختلاف الحالة التى هو عليها.. فالزمان التجريبى لا يقاس بالساعات، لأن الساعة مبنية على نظريات نيوتن الميكانيكية، التى لفظها قانون النسبية.. والنسبية تقول إن "الزمكان" يعنى أن الحوادث الزمنية التى تبدو مستقيمة زمنياً Linear تتوقف على المراقب Observer.

ونحن جميعاً نقبل أن ننظر إلى حياتنا، وماضينا يسير في زمن مستقيم، على أنها حدثت في الماضي، بالرغم من أن بعضنا قد يشعر بأن الزمن الذى انقضى منذ مدة، يبدو واضحاً في وقت ما، كأنه قريب.

المادة والطاقة وجهان لعملة واحدة:

إن ثبوت تلك الحقيقة من الأهمية بمكان، للرد على مزاعم الماديين، حيث تبين ضرورة الاهتمام بالنواحي الروحية للإنسان، على نفس مستوى النواحي الجسدية، ومن هنا يبرز الإيمان كضرورة حياتية للإنسان، حيث يحقق له التوازن الذى ينشده، ويحقق معه كل دواعي الأمن والسكينة والاطمئنان.

وعن تلك الحقيقة يقول أستاذنا الفاضل د. حسن:

أثبتت النظرية النسبية كذلك أن المادة والطاقة وجهان لعملة واحدة، ويمكن لكل منهما أن يتحول إلى الآخر.. فالمادة هي ببساطة طاقة مكثفة أو بطيئة السير، وأن أجسامنا كلها طاقة.

فمثلاً يمكن للإنسان، عن طريق التجربة، أن يثبت أن الضوء مكون من جزئيات Linear وأن ثمة تغيير في هذه التجربة، يثبت أن الضوء مكون من أمواج.

كما أن ماكس بلانك: اكتشف أن الطاقة الناتجة من إشعاع الحرارة، لا تشع وتصدر بصفة مستمرة، ولكن تظهر في شكل حزم من الطاقة تسمى Quanta.

وأثبت اينشتاين: أن كل أشكال الكهرومغناطيسية المشعة، يمكن أن تظهر، ليس فقط على شكل أمواج، بل وعلى شكل حزم أيضاً.. ومعنى ذلك أن الجزيء، وهو أدق وصف للشيء، هو عبارة عن طاقة.

وكلما تعمقنا أكثر في المادة، فإن الطبيعة لا تعطينا أى كتل معزولة من البناء، كما كانت نظرية نيوتن تقول.. فالبحث عن أصل المادة يجب أن نتجاهله، لأن التجارب الحديثة أثبتت لعلماء الطبيعة أن المادة في ذاتها متغيرة.. وأنه على المستوى الذرى، فإن المادة لا وجود لها يقيناً، ولكن كل ما يمكن أن يقال: هو وجود

احتمالى لها. وكل الجزيئات يمكن تحولها إلى جزيئات أخرى، ويمكن أن تخلق من طاقة، وقد تختفى متحولة إلى طاقة.. أما متى وكيف يتم ذلك؟ فهذا أمر لا يمكن الإجابة عليه بالتأكيد..

وهكذا.. فبعد نظرية اينشتاين وانهيار النظرية المادية، وثبات أن العالم ما هو إلا أمواج، سقطت نظرة العالم للإنسان أو الكون على أنه آلة، والجزيئات المختلفة أصبح يُنظر إليها على أنها نماذج للنشاط والطاقة. والإنسان وسط بين الخلية والكون، يتأثر ويتفاعل بكل ما يحدث فى الكون.

وبالتالى لم يعد المرض مجرد أداء شىء وظيفى لآلة الجسم.. بل هو نتيجة تفاعلات نفسية عديدة، تؤثر على الخلايا المادية فى جسم الإنسان.. وهذا ما سنعرضه فى النقطة القادمة لمزيد من التوضيح.

نظرة الإنسان للزمان تساعد على شفائه من بعض الأمراض:

ينقل لنا أستاذنا الفاضل د. حسن تجربة عملية لأحد الأطباء العلماء، الذين عندهم قناعة تامة: أن جانباً كبيراً من الأمراض، ترجع إلى تصور الإنسان إلى الزمان على أنه يسير فى خط مستقيم واتجاه واحد، حيث الحاضر الذى يمتد ولا يغيب، والزمن يعيش فى الإنسان.

قام هذا الطبيب العالم، بعلاج شخص من الصداع النصفى، عن طريق التأمل واستخدام جهاز "Biofeed back" لتخفيض الكهرباء من عضلات جسمه، حتى تصل إلى المستوى الذى تكون عليه أثناء النوم.. ثم بدأ يفكر فى الزمان على أنه نهر، ينظر إليه من ارتفاع عال، كأنه فى طائرة، والنهر يلتف وينساب.. وعلى سطح النهر الذى يتحرك متأثراً بالتيار، توجد برتقالة كبيرة جداً، تمثل الزمان T (Time) ينساب فى اتجاه واحد (الماضى والحاضر والمستقبل).

ويظل المريض يراقب الزمان، بدون التفكير فى أى شىء.. فقط مجرد مراقبة الزمان ينساب.. ثم فجأة يحدث شىء.. فالنهر يبدأ ببطء فى الانحناء على نفسه ويرجع من حيث بدأ مكملاً دائرة كاملة.. وبذلك حول النهر نفسه إلى نهر متحرك

دائرى.. وفى جميع الأحوال حاملاً البرتقالة التى تمثل الزمان (T).

بعد ذلك بدأ النهر الدائرى يتغير، بأن يفيض إلى الداخل.. وظل هذا الفيضان لا يتوقف، حتى خلق بحيرة كبيرة فى الداخل.. ثم تحول لون الماء وأصبح أزرق غامق.. وحينئذ توقف فيضان الماء، ثم هدأ، وأصبح سطح الماء هادئاً، وغير متحرك، وعاكساً كأنه مرآة.. وفى وسط البحيرة الزرقاء، توجد البرتقالة العملاقة عائمة وبدون أى حركة.. وبذلك أصبح الزمن T متوقفاً عن الانسياب. وحينئذ لا يوجد حاضر ولا ماضى ولا مستقبل.. حيث توقف الزمن، وأصبح لا حدود له. وهذا يملؤك بالثقة والأمان، ويجعلك تحس بهدوء البحيرة، فى أى وقت تشاء، ولأى مدة.

وبهذه الطريقة، واستخدام الـ "Biofeed back" تمكن المريض أن يشفى، ويتعلم كيف يوقف الزمان، أو أن يجعله يتباطأ.. وكانت هذه التجربة الرائعة وسيلة لا ضرر فيها على الإطلاق، ولكنها كانت ذات تأثير سحرى وفعال.

ثم بعد تجاربه مع مرضاه، بهذه الطريقة، أمكن استخدامها للعلاج، عن طريق فهم جديد للزمان.

فالتأمل وضبط النفس والاسترخاء: كل ذلك يساعد على تخفيض الكولسترول فى الدم بنسبة ٢٠٪.. كذلك ارتفاع ضغط الدم وسرعة التنفس وغيرها. وقد بحثت لجنة طبية فى ياساشوش عن أهم العوامل المؤثرة فى أمراض القلب، فخرجت بنتيجة: أنها ليست السجاير ولا ضغط الدم، ولا ارتفاع الكولسترول.. **ولكن القناعة الوظيفية**.. ويسميها د. حسن عباس زكى: **الرضا بما تجرى به الأقدار على مر الزمان.**

أما كيف أن السعادة والقناعة الوظيفية والتأمل تدخل فى الخلية؟ وكيف أن الأعمال النفسية تؤثر على الأشياء المادية؟ فهذا ما يلقى الضوء على العلاقة بين المادة والطاقة فى الإنسان.. وهو ما نحاول شرحه فيما يلى.

كيف يتفاعل الجسم والعقل والروح فى الإنسان؟

إن الجزع والقلق يرفع إفراز الأدرينـالين.. وهذه الكيماويـات لهـا تأثيرها علـى التكوين الجينى فى الإنسان.

صحيح أن الجينات genes تتغير وتجدد نفسها باستمرار، وعملياً فإنه فـى بضعة شهور، فإن كل التكوين الجينى يكون قد تغير كليـاً، أى أنه ليست هناك فـى جسمى الآن جينات، من التى كانت موجودة السنة الماضيـة.. لكن نموذج الجينـى pattern of genes يظل هو هو مئات السنوات. أما المتغير فهو المادة المكونـة للجين (كاربون – هيدروجيـن – أكسيجين.. وغيرها من الذرات) فهى فـى تغير مستمر.. بالرغم من كل ذلك فإننا مازلنا نحافظ على الـ أنا..

ويقال أن ٩٨٪ من ذرات الجسم وعددها $١٠^{٢٨}$ أى عشر وأمامها ٢٨ صفر، تتغير كل سنة، وكل هذه الذرات تعـود إلـى الأرض، وتستخدم فـى أجسام ونباتـات وكيانات أخرى.

وكذلك بالنسبة للتنفس: فإن كل مرة يتنفس فيهـا الإنسـان، ويـأخذ شـهيق، فإنـه يُدخل فى كيانه ما يوازى متوسطه ذرة واحدة من كل تنفس موجود فى الجو.. وكـل مرة يخرج شـهيق، فـإن الإنسـان يرجـع إلـى الجو، مـا متوسطه ذرة من كـل هـذه التنفسـات.. وكذلـك كـل موجـود علـى الأرض.. وهـذا التبـادل الـذى يتـم، يتكـرر ٢٠,٠٠٠ مرة فى اليوم، بالنسبة للخمسة بلايين نسمة، الذين يسكنون هذه الأرض. ومؤدى ذلك: أن كل نفس يقوم به الإنسان، فإنه يحتوى على $١٠^{١٥}$ ذرة، تنفس بهـا باقى سكان العالم، خلال البضع أسابيع الماضية.

أى أن الإنسان جزء من كل، يتأثر بكل ما يجرى فى الكون حولـه، من طاقـات وماديات، وفى نفس الوقت تتفاعل خلايـا جسده، بكل طاقاتـه النفسية واهتزازاتـه الفكريـة، بمـا يـؤدى إلـى التغيرات الجسدية، سواء الأمراض أو الشفاء من تلـك الأمراض، وتحقيق الصحة والعافية.

وبهذا نكون حققنا رؤية جديدة للوجود، بما فيه وجودنـا نحن.. تتناسب تلك الرؤية مع تعاليم ديننا بكل أبعادها، التى تدعو إلـى تفاعل الإنسـان مـع الكون كلـه

وفهم أسراره حتى يحقق الخلافة فى الأرض، وعبادة الله حق عبادته، لأن فى الإيمان طاقات خلاقة، تزيد من فاعلية الإنسان فى الحياة، وفى نفس الوقت تحقق له الانسجام التام مع جميع الكائنات.

ولا شك أن النظريات العلمية الحديثة، قد ساعدتنا على فهم أعمق للوجود، باستبعاد النظريات المادية، التى نظرت إلى الإنسان على أنه آلة، مكونة من أجزاء تشبه الساعة.. فجاءت نظرية النسبية لاينشتاين، وأثبتت أن العالم ما هو إلا أمواج.. **فعلى الإنسان الذى يريد السباحة فى تيار الحياة باقتدار، أن يسبح مع تيار الوحدانية.. حيث كل أمواج الكون تنبع وتصب عند مليك مقتدر.**

فما أعظمها من نعمة رزقنا بها الله: وهى نعمة الإيمان.. وكفى بها من نعمة!

سياحة في عالم التصوف

ماذا تعنى تلك السياحة؟

- إن تلك السياحة تعنى التحليق مع العارف بالله، العالم التقى الورع، أستاذنا الفاضل، ومعلمنا كيفية السبيل إلى أنوار العلى القدير: د. حسن عباس زكى.
- وتعنى أيضاً السُقيا من المنابع التى استقى منها أعذب الشراب، وأروع المشاعر، وأبهى الأنوار، حيث قضى العمر يتجول فى رياض الصالحين، طمعاً فى القرب من رب العالمين.
- وتعنى معرفة ملامح من أفكاره، وقبساً من أنواره، واغترافاً من خبراته فى طريق معراجه الروحى، بما يشرح صدورنا، وينير قلوبنا، ويجلى أبصارنا بنور الحق المبين، الذى أفاض به على عباده الصالحين، عن طريق رسوله الأمين، نبينا المصطفى، حبيب الإله العظيم.

ولا نقصد "بالسباحة" أنها سباحتنا نحن، فبحار التصوف عميقة الأغوار، ليس لها قرار أو شطئان، لأنها بحار الحقيقة العلية، لا نجيد نحن السباحة فيها، فهى لها غواصوها الذين اصطفاهم الله من خلقه، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، ويمن علينا بهم، بين الحين والآخر، يسلكون درب الرسول الكريم، ويستمدون من مدده الفياض، فينقذون البشرية مما تردت فيه من ظلمات، ويجددون صلة الأرض بالسماء، ويستخرجون أروع اللآلئ والأصداف، التى تنير القلوب والأبصار، بما يتلاءم مع نضج العقول، وتطور العصور.

وكل مهمتنا هى الجلوس على شاطئ تلك البحار، نستروح نسيمها وعبيرها، ونحاول التنعم والتفكر، فيما يخرجه لنا روادها من كنوزها.

فماذا يقول لنا عالمنا الجليل، عن هذا العالم العجيب، الذى ثارت حوله كثير من الشبهات والأقاويل؟

يقول: إن كتاباً كثيرين كتبوا عن التصوف وأصل نشأته، طمعاً فى معرفة

حقيقته. ولكنهم للأسف لم يتوصلوا إلى حقائق هذا العلم السنية، لأن مهمتهم كانت مجرد الاطلاع والدراسة، ولن يفهم إنسان حقيقة التصوف، إلا بعد تصفية القلب من الأغيار، ومجاهدة النفس عن الأهواء والشهوات، وسلوك الطريق القويم وهو طريق التصوف.. ويعرف لنا د. حسن ما هو التصوف، ولماذا لم يُسمع عنه فى صدر الإسلام؟ وما هو تاريخه الحقيقى؟ وما هى مذاقاته؟ ويجيب عن كثير من الأسئلة التى تراود العقول.. ونسجل ذلك فيما يلى:

حقائق عن التصوف:

- التصوف ما هو إلا تصفية القلب من أدران الأغيار، وتبصير الإنسان أنه ما خلق إلا لعبادة الله الواحد القهار، وتحقيق رسالته فى الأرض كخليفة، عليه أن يكتشف أسرار الكون.

- والتصوف علم، قال عنه الشيخ أحمد زروق: أنه يقصد به إصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه.. وصلاح الأعمال، وحفظ النظام.. وظهور الحكمة من الأحكام والأصول.. وتحلية الإيمان بالإيقان.. وهو بذلك كالطب للأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان.

- والتصوف منهاج، يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة الملوك، وتصفية الباطن من الرذائل.. وهو بذلك تدريب للنفس على العبودية الحقة.

- والتصوف هو السبيل لتحقيق مقام الإحسان: **فالإسلام** طاعة وعبادة، **والإيمان** نور وعقيدة، وقرت فى القلب، **والإحسان** مراقبة ومشاهدة، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

- والتصوف ليس بدعة مستحدثة، ولكنه مستنبط من سيرة الرسول ﷺ وحياة أصحابه، وهو التطبيق العملى للإسلام.. فالصوفية لا يكتفون بتعليم الناس أحكام الشرع وآدابه بمجرد الكلام، ولكنهم يضيفون إلى ذلك ترقية المريد فى مراحل سيره إلى الله، وتبصيره بما ينهض حاله، ويقوى همته، ويحسن نيته.. فالصوفية أصحاب أعمال لا مجرد أقوال.

- يقول حجة الإسلام الإمام الغزالى، بعد أن اختبر التصوف، وسلك طريقه، وذاق ثمرته: إن الدخول فى التصوف فرض عين، لمجاهدة النفوس وإصلاح عيوبها.. إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
- وقال الأستاذ أحمد الشرباصى عن التصوف: "... ماذا يكون من شأنك لو أن إنساناً أخبرك بوجود كنز فى مكان ما، ورسم لك الطريق إليه، وذكر لك كل ما تحتاجه الرحلة نحوه، من مجهود وتكاليف؟ ألا تحاول أن تبذل جهدك، وتستنفذ طاقتك، وتعمل وسعك، حتى تصل إلى هذا الكنز، الذى ستجد عنده جاه الدنيا وعز الآخرة؟ كذلك شأن التصوف يا صاح، إنه الدواء المخفى، والكنز المطوى، إنه الدواء الذى يحتاج إليه جسمك وفهمك وخلقك..".

وقال أيضاً: "إنه لا يعنينى أبداً أن تكون صوفياً أو لا تكون، ولا يهمنى كثيراً أن تكون من أعداء الصوفية أو من أوليائهم.. ولكن يهمنى أولاً وقبل كل شيء، أن تكون على بصيرة من أمرك، وأن لا تجهل شيئاً جليلاً، يطالبك دينك وعقلك بأن تعرفه.. ومن هنا يتحتم عليك أن تدرس التصوف لتفهمه وتتقنه، وبعد ذلك، تحكم له أو عليه.. فيا أبناء الإسلام: إن التصوف يحتل من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً، وقد ضيعتموه أزماناً طوالاً. فحسبكم ما كان، وأقبلوا على التصوف، ففيه غذاء ودواء، والله الهادى إلى سبيل السواء.

وبعد استعراض تلك الحقائق عن التصوف.. قد يثور فى ذهن البعض هذا السؤال:

لماذا لم يُسمع عن التصوف فى صدر الإسلام؟

ويجيبنا عن هذا السؤال، أستاذنا الفاضل د. حسن، إجابة واضحة ومقنعة.. **فيقول:** إن إنكار بعض الناس على لفظ الصوفية، بأنه لم يسمع فى عهد الصحابة والتابعين، مردود عليه.. إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة واستعملت، كالنحو والفقه.. كما أن السبب فى عدم انتشار التصوف فى صدر الإسلام: **أنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك فى وجود الرسول الأعظم ﷺ وصحابته، الذين كانوا القدوة والأسوة والشمس المضيئة..** فالمجتمع لم يكن يحتاج إلى نجوم، لأن أهل هذا العصر كانوا أهل تقوى وورع، وأرباب مجاهدة، بحكم قرب اتصالهم

برسول الله ﷺ، حيث كانوا يتبارون فى الإقتداء به.. لذلك لم يكن هناك ثمة سبب يدعو إلى تلقينهم علماً، أو شرحاً لطريق الوصول إلى الحق جلَّ وعلا، لأنهم قائمون بذلك فعلاً وحقاً.. مثلهم فى ذلك -كما قال الدكتور أحمد غلوش- كمثل العربى الذى يعرف اللغة العربية بالتوارث، حتى أنه ليعرض الشعر بالفطرة، دون أن يعلم قواعد اللغة.. فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو والبلاغة، ولكن قواعد النحو والبلاغة تكون ضرورية، عند تفشى اللحن وضعف التعبير.

فالصحابة والتابعون، وإن لم يتسموا باسم الصوفيين، إلا أنهم كانوا صوفيين فعلاً، لأن التصوف هو: أن يقبل المرء على الله بالروح والقلب، ظاهراً وباطناً فى كل الأوقات.. كما أن لفظ الصحابى أو التابعى، الذى ينم على الرابطة المضيئة بالرسول ﷺ لا يعلو عليه أى لفظ آخر كالصوفى مثلاً، إذ لا أفضلية فوق صحبة الرسول، ولا شرف بعدها، حيث يتلقون العلم غضاً طرياً من الوحى السماوى، ولهم فى رسول الله أسوة حسنة، لمن أسلم وجهه لله، وقال إننى من المحسنين.

وفى عصرنا الحالى: يقول الأئمة المرضيون: نحن من المتصوفين (أى المحسنين).

فالتصوف الحقيقى هو مقام الإحسان، الذى يعد أحد أركان الإسلام الثلاثة، حيث عدد الرسول ﷺ تلك الأركان بأنها الإسلام والإيمان والإحسان. حيث الإحسان أعلى المقامات، وتلك منزلة تحتاج الجهد والمثابرة والصبر، ولا يبلغها المرء إلا بعد تجلية القلب من الكدورات، فيصبح مرآة مجلوة قادرة على استقبال أنوار الحق.

وهنا يثور السؤال التالى:

متى إذن بدأ ظهور التصوف؟

ويجيب أيضاً د. حسن بقوله: لما تقادم العهد، ودخل فى حظيرة الإسلام أمم وأجناس مختلفة، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، واتسعت دائرة العلوم والمعارف، انحرفت بالناس المدنيات المختلفة، وأمور الدنيا، وتضاءل الشعور بالوعى الروحى،

وتناسوا الإقبال على الله بالقلب، لأنهم لم يجدوا القدوة الإسلامية الأصيلة، حيث قلَّ من يُقتدى بهم.. ولما بدأ كل فريق بتدوين الفن والعلم الذى يتقنه، مثل تدوين النحو والفقه والتوحيد والحديث والتفسير وغيرها.. حينئذ كان لابد من أن يعمل أرباب الرياضة والزهد إلى تدوين علم التصوف، وإبرازه كعلم له أصوله وقواعده، وذلك سداً للنقص، واستكمالاً لحاجة المجتمع الإسلامى فى مجاهدة التدنى، ومتابعة الترقى فى المعارج النورانية، والنفحات الإلهية، والقدوة المحمدية.

وأوضح هؤلاء العلماء الأتقياء، والأولياء الأحباء لله ورسوله: **أن أساس التصوف وطريقته هو: الوحى المحمدى الذى هو مقام الإحسان،** والذى قال عنه الرسول الحبيب صلوات ربى وسلامه عليه: إن هذا جبريل عليه السلام أتاكم ليعلمكم دينكم.

فماذا علم جبريل المؤمنين؟

- علمهم أن الإسلام يقوم على أركان خمسة تتطلب الطاعة والعبادة.
- وأن الإيمان نور يقذفه الله فى القلب بعد أن يجتهد المسلم فى الطاعة والعبادة.
- والإحسان: هو أعلى الدرجات التى يتدرج إليها الإنسان، حيث هو مقام المشاهدة والمراقبة، وهو المقام الذى يقول فيه: **﴿إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾** (الأنعام:١٦٣).

وهذا الهدف هو الذى يسعى إليه رجال التصوف، بعد عصر النبوة الأولى. وفى ذلك **يقول ابن خلدون فى مقدمته (عن التصوف):** "إن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة.. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين.. وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها.. فلما فشا الإقبال على الدنيا، فى القرن الثانى وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم "الصوفية".

وهكذا فإن الصوفية بدأت بعد عصر النبوة الأولى، كعنوان على المنهج الذى يهدف إلى إعادة الدين إلى منابعه الرقراقة العذبة..

أما تاريخ التصوف الحقيقي: فإن أول من أسس الطريقة فهي الوحي السماوي كما قال المحدث محمد صديق الغماري.

موقع التصوف من التكاليف الشرعية:

تثور أحياناً بعض الشبهات حول التصوف والمتصوفين، بأنهم يسقطون التكاليف الشرعية، أو على الأقل لا يلتزم بحرفيتها البعض، بحجة أن الله أسقطها عنهم، ويتذرع القائلون بتلك الشكوك والأوهام، ببعض الأقوال التي يقولها البعض في شطحاتهم، والتي يقصدون بها، غير ما فهمه أولئك المتشككون.

ويحدد لنا د. حسن القول الفصل في تلك القضية فيقول:

إن التكاليف الشرعية ترجع إلى قسمين:

أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة، وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة.

- **فالأولى:** أوامر ونواهي تتعلق ببدن الإنسان.. فالأوامر: كالصلاة والزكاة والصوم والحج.. والنواهي: كعدم شرب الخمر، أو قول الزور، أو القتل، أو الزنا، أو السرقة، أو...

- **والثانية:** أوامر ونواهي تتعلق بقلب الإنسان.. فالأوامر: كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والإيمان بالغيب، والإخلاص والرضا والصدق و.. والنواهي: كالكفر والفسق والنفاق والكبر والحق والحسد والرياء و...

ومن المسلم به أن القسم الثاني المتعلق بالأحوال القلبية هو الأهم عند الشارع، لأن الباطن أساس الظاهر، وما فرضت العبادات أصلاً إلا لصلاح أحوال القلب.. فالقلب إذا صلح، صلح الإنسان كله، وإذا فسد، فسد الإنسان كله..

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم وصوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم**».

وهذا القول لسيدنا رسول الله ينبع من الدستور الأساسي للمسلمين وهو القرآن الكريم.. حيث يقول الحق جل شأنه: ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ (الشعراء-٨٩).

لذا بات من الضرورى أن يهتم الإنسان بصلاح قلبه.. فتنقية القلب وتهذيب النفس، من أهم الفرائض.

والتصوف هو العلم الذى اختص بمعالجة الأمراض القلبية، وتزكية النفس، والتخلص من صفاتها الناقصة.. فالتصوف يربى الإنسان على تخلية القلب عن غير الله، وتحليته بالصفات الكاملة، كالتوبة والتقوى والرضا والذكر و... فالتصوف إذن ليس مجرد حلقات ذكر، وقراءة أوراد فحسب، بل هو أساس الطريق العملى الذى يوصل الإنسان المسلم، إلى أعلى درجات الكمال، فهو منهج كامل، يبدل الإنسان من شخصية منحرفة، إلى شخصية سوية مسلمة، تتحقق فيها الصفات الكمالية.. لذا فهو روح الإسلام وقلبه النابض، وما انحدر وانحط المسلمون، إلا لانحرافهم عن هذا الطريق، حيث فقدوا روح الإسلام وجوهره.

فإذا كان التصوف هو الذى اختص بمعالجة الأمراض القلبية، وتزكية النفوس، والتخلص من صفاتها الرديئة، فهو إذن قد اختص بأشرف ما يحتاجه الإنسان فى حياته الدنيوية والأخروية.. **حيث يقول الإمام الغزالى:** إن علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء والكبر فرض عين، (كما بين العلامة بن عابدين فى حاشيته) وإزالة تلك الأمراض فرض عين.. فكما لا يحسن بالإنسان أن يظهر أمام الناس بثياب ملطخة بالأقذار فإنه لا يليق به أن يظهر بعلل خفية، وهو محل نظر الحق سبحانه وتعالى.. علاوة على أن تلك العلل تمنعه أصلاً من دخول الجنة، كما قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه: **﴿لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر﴾**.

مذاقات التصوف:

يحدثنا أستاذنا الفاضل، السالك هذا الطريق السامى، منذ نعومة أظفاره، عن مذاقات التصوف، من باب "**من ذاق عرف**".. وهو فى حديثه إلينا، يوجز إلى أقصى حد، لأن تلك الأحاسيس لا توصف، ويحس بها كل مؤمن حسب درجة يقينه، وتطلعات روحه، وجلاء قلبه، وصفاء نفسه.. فإنها مذاقات لأنوار سرمدية، يفيض بها الحق على القلوب الإنسانية، كل حسب جهاده فى سبيل الحق، وتحرره من

أطماع الخلق، وقدرته على تلقى الأنوار الإلهية.

فماذا يقول لنا د. حسن عن تلك الأحاسيس السامية والمذاقات العالية؟

- يقول: إن للتصوف مذاقات تبهر العقول، وتشرح الصدور، وتنير القلوب، وتغمر الإنسان بالسكينة والاطمئنان، وتجعله يشعر بالأمن والسلام، لأنه عرف طريق الرحمن، واختصه الله بصحبة خير الأنام.

- وكان المتصوفة يقولون: "**نحن فى لذة، لو علمتها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف**".. وكيف لا يكون المتصوف فى لذة، وهو قد تحرر من شهوات نفسه الأمارة بالسوء، فنهى النفس عن الأهواء والأطماع، التى تكبلها وتقيد انطلاقها فى عالم الملكوت، حيث لا بين ولا أين ولا منتهى ولا قرار، بل أنوار الواحد القهار؟!

- وكيف لا يكون المتصوف فى لذة، وهو ينهج نهج السادة الأخيار، الصالحين الأبرار، فيفيضون عليه من أنوارهم وأنسهم المعنوى، فتتبدد كل معانى الغربة والوحشة من حياته، ويشعر بالأمان الذى يمتد مع الزمان، لأنه يوقن بوعد الرحمن، فى كل آيات القرآن، بالخلود فى الجنان؟!

- وكيف لا يكون المتصوف فى لذة، وهو قد تحرر من كل دواعى الخوف المادى والمعنوى، حيث الله هو الجليس والأنيس، وهو يده التى يبطش بها، وعينه التى يبصر بها وسمعه الذى يسمع به ورجله التى يمشى بها. وقد يصل إلى درجة ربانية يقول معها للشيء كن فيكون؟!

- وكيف لا يكون المتصوف فى لذة، وقد امتدت له الآفاق الزمانية والمكانية، فلم تعد الدنيا جلّ همه، بل الكون بأسره يشغله فى استنطاق أسراره، وأصبحت تطلعات روحه تنطلق إلى الخلود الأبدى، وصحبة الأحبة "محمد وصحبه" من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، حيث تفيض الوجوه بشراً وسروراً؟!

ويتوقف أستاذنا الفاضل، ليلفت نظرنا أن تلك المذاقات لا ينالها العبد إلا **بمعرفة**

الله.. ويشرح لنا الطريق إلى تلك المعرفة فيقول: لا ينال العبد معرفة اللـه تعـالى، حتى يعرف سيد الوجود عليه الصلاة والسلام، ولا يعرف سيد الوجود، حتى يعرف شيخه، ولا يعرف شيخه، حتى يموت الناس فى نظره، فلا يراقب ولا يعمل إلا للـه وباللـه، مخلصـاً فـى كـل حركاتـه، مطيعاً لمرشـده الـذى يرسم لـه الطريـق القويـم، للوصول إلى الإيمان الصحيح..

وهذا الإيمان الصحيح يعنى ما يلى:

- يعنى أنه لا يرى ضاراً ولا نافعاً ولا شافياً، ولا معطياً إلا الله.
- ويعنى أنه آخذ بالأسباب كخليفة للـه فـى الأرض، يمد يده بـالخير فـى الزراعـة والصناعة والأعمال الشرعية، بما يحقق له الكسب المشروع.
- ويعنى أنه يستوعب آفاق علوم العصر ، ويجد ويجتهد فـى تحقيـق التقدم لنفسـه ولبلده ولأمته الإسلامية، بحيث يستنفذ جهده ووسعه، فى سبيل بلوغ هذا الهدف.
- ويعنـى معرفتـه الحقيقيـة لـدور المـال فـى الإسـلام: حيـث يـؤدى واجـب الحـق والمجتمع من زكاة وصدقة وبر ، وتكافل فى الحروب والكوارث.. ولكنه فى كـل هذه الأحوال، واضعاً ماله فى جيبه وليس فى قلبه، لأن قلبـه مـع الحـق، ونظـره إلى الخلق.

تلك هى مواصفات الإيمان الصحيح، التى يسـاعد الشيخ مريـده علـى الوصـول إليها، وبها يصل إلى معرفة الله حق المعرفة.

ولكن نوازع الأنانية عند البعض، واغترارهم بأنفسهم، تجعلهم ينكرون ضـرورة الشيخ فى الطريق، بحجة أن الله لا يحتاج واسطة فى سبيل معرفتـه، وأنهـم يمكنهـم تحقيق مدارج الروح باتباع منهج الله ورسوله، بدون عون من أحد.

وينبرى عالمنا المبجل للرد على تلك المزاعم، ببيان أهمية الشيخ فـى الطريـق، وهو ما سنعرضه فيما يلى:

أهمية الشيخ فى الطريق:

يرى د. حسن أن المسلم يمكن أن يحقق بعضاً من مدارج الروح، باتباع منهج الله ورسوله، باجتهاده الشخصى، وسيره فى الطريق منفرداً.. ولكن ذلك الرقى الروحى سيكون محمود الأبعاد والآثار، ما لم يتتلمذ المريد بعد مرحلة معينة، على يد شيخ، عالم بأحكام الشريعة، عارف بالله تعالى، خبير بطرق تزكية النفوس، ومأذون له بالإرشاد. فكما أن لكل طريق مخاطر، فكذلك الطريق الروحى، تعترضه عقبات، يحتاج فيها المريد إلى مرشد، يوجهه ويؤنسه من وحشة الطريق.

ويضيف أستاذنا الفاضل: وقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ المريد شيخاً له، يرشده ويوجهه ويبصره ويطهره، ويدله على الطريق، ويزيل عنه الأخلاق المذمومة، ويحل محلها الأخلاق المحمودة، ويكون للمريد القدوة، والأسوة الحسنة والناصح الأمين، والأنيس وقت وحشة الطريق، ويكون له السقيا من منبع الأنوار المحمدية، حيث يعجز المريد بقدراته الروحية المحدودة، على التحليق فى تلك الآفاق العالية، فعليه أن يستعين بمن اصطفاه الله من خلقه، وحباه بالمواهب اللدنية، والصحبة المحمدية، فيكون عوناً للمريد على اجتياز المدارج العلية، واكتساب بعضاً من الأنوار السرمدية، التى تسبغ الطمأنينة والسكينة على النفوس البشرية، وتفيض على قلوبهم بالعلوم الملكوتية.. **وها هو سيدنا موسى عليه السلام -مع جلالة قدره- طلب لقاء الخضر عليه السلام، وسأله السبيل إلى ذلك قائلاً: ﴿هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا﴾** (الكهف: ٦٦). فالشيخ فى الطريق ضرورة لازمة، مهما بلغ علم المريد، كمن يحفظ كتاباً فى الطب، ولا يعرف عملياً كيفية الاستفادة به، والأسلوب العلمى لتطبيقه. فالشيخ يدل المريد على كيفية السلوك الإيمانى، لتحقيق معنى أن يعبد الله كأنه يراه.. ويذيقه معنى أن يعبد ربه على الحضور بين يديه تعالى.. فالشيخ يشعر إذا نظر إلى باطن المريد وقت العبادة، إن كان قلبه معمور بمشاهدة الحق، ومعزول عن شواغل الدنيا، أم لا؟. فإن رأى الشيخ أن قلب مريده مشغول بالدنيا غافل عن الله، فهذا معناه وجود ران على قلب المريد، يحتاج إلى إزالته.. حينئذ يأمره شيخه بما يجب عليه عمله: من دفع الشكوك والمشاغل، والتركيز الفكرى على معنى كلمة التوحيد، ويتخيل النور فى قلبه يشع على حواسه وعلى

كيانه، وأنه يتشرب منه، فى كل ذرة من جسمه.

ويستشهد عالمنا العارف بالله د. حسن عباس زكى على أهمية دور الشيخ من السنة بتلك الأحاديث النبوية الشريفة:

- روى الطبرانى أن عليا -كرم الله وجهه- سأل النبى ﷺ: دلنى على أقرب الطرق إلى الله، وأسهلها على عباده. فقال النبى ﷺ: ﴿**عليك بمداومة ذكر الله سرا وجهرا**﴾ فقال على: كل الناس ذاكرون، فخصنى بشىء. قال رسول الله ﷺ: ﴿**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله.. ولو أن السموات والأرضين فى كفة، ولا إله إلا الله فى كفة، لرجحت بهم**﴾ قال على: كيف أذكر؟ قال النبى ﷺ: ﴿**اغمض عينيك واسمع منى "لا إله إلا الله" ثلاث مرات.. ثم قلها ثلاثا، وأنا أسمع**﴾ ثم فعل ذلك برفع الصوت.
- وورد عن الطبرانى أيضاً: قال الشداد بن أوس ﷺ: كنا عند رسول الله فأمر بغلق الباب وقال: ﴿**ارفعوا أيديكم وقولوا: "لا إله إلا الله"**﴾ فرفعنا أيدينا وقلنا: "لا إله إلا الله" ثم قال: ﴿**الحمد لله. اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة، وأمرتنى بها، ووعدتنى عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد**﴾ ثم قال ﷺ: ألا أبشروا فإن الله غفر لكم.
- وأخرج البخارى فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿**بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف..**﴾ إلى آخر الحديث.

إن ما فعله الرسول ﷺ مع سيدنا على، ومع المؤمنين، هو ما يفعله الشيخ مع مريده فى بدء سلوك الطريق.. مما يؤكد أهمية الشيخ فى الطريق، ودوره كمرشد يتبع نهج المصطفى الحبيب، فى هداية المسلمين، إلى طريق الحق المبين، مما يضفى على هذا الدور أهمية بالغة فى إحياء روح الدين.

وهكذا فإن المرشدين على طريق التصوف: يجددون النشاط الإيمانى فى عصرهم، ويعيدون النور المحمدى إلى ضيائه وبريقه، رغم تطاول الزمن، وتعاقب القرون، وتغير العصور، مما يعتبر ضرورة حياتية للمسلمين.

الطريق إلى الله.. كيف السبيل إليه؟

يشرح لنا د. حسن عباس زكى طريق الوصول إلى الله تعالى: بأنه يحتاج إلى منهج علمى، اقتبسه السادة الصوفية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كالصحبة، والذكر، والخلوة، وسلوك المقامات القلبية، وكسب الصفات الخلقية كالصدق والإخلاص والصبر، التى يتحلى بها السالك، فتتجلى له الأنوار.

ويقول أستاذنا الفاضل: **المقصود بالوصول إلى الله -كما قال العلماء -هو الوصول إلى العلم به.** وإلا فجل الحق عن أن يتصل به شىء، أو يتصل هو بشىء.

والطريق إلى ذلك واحد فى حقيقته، مختلف باختلاف المناهج.. فعدد الطرائق بعدد أنفاس الخلائق.. وعلى السالك أن ينتبه لنصائح شيخه فى بيان عقبات الطريق، وأن يصبر على وحشة الطريق، فإنها لا دوام لها، ولكنها تجلى القلب، وتصقل النفس.

وثمرة الطريق: الفناء فى حب الله ورسوله ﷺ.. قال الله تعالى فى الحديث القدسى: **«وما تقرب عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها. ولئن سألنى لأعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنه»**.

وقد سئل ذو النون عن المحبة فقال: "أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وأن لا تخاف فى الله لومة لائم، مع العطف على المؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله ﷺ فى الدين.. ومن علامات المحبة لله: متابعة حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته".

آداب السائرين على طريق الرحمن:

إن الطريق إلى معرفة الله هى من أشرف الطرق وأقدسها.. ولذلك يجب أن يتحلى راغبو السلوك لهذا الطريق بآداب رفيعة، لا يشترط توافرها فى أى طريق آخر لطلب العلوم.. فالعلم بالله هو منزلة تتشوق إليها الأرواح السامية، التى خلقت من أنوار عالية، تجعلها تسعى دائماً إلى التعرف على الملأ الأعلى، ولا يهدأ لها قرار حتى تصل إلى

معرفة الحقيقة الكبرى، حيث تردد تلك الأرواح أنشودة التوحيد الخالدة:

هلى فى الوجود حقيقة إلا إله   الله ربى لا أريد سواه

وها هو عالمنا التقى الورع د. حسن عباس زكى: يذكر لنا بعضاً من تلك الآداب، التى تحتاج كثيراً من المجاهدات.. ومن طلب العلا يعلو إلى مدارج الأرواح.. ومن جد وجد حلاوة الأنوار.

فيقول أستاذنا الفاضل:

- **ينبغى أن تكون معرفة الله على الخوف التام منه ﷻ، خوفاً يمتزج فيه الخوف الباطنى بالخوف الظاهرى..** ويكون خوفاً متعلقاً بالرجاء فى رحمة الله، وليس اليأس من تلك الرحمة، لأن اليأس إحباط، ومعوق للمريد عن التدرج فى الطريق إلى الله.. فالخوف والرجاء هما جناحا المؤمن، للتحليق فى عالم الملكوت، لأنهما سلاحا المؤمن فى مجاهدة عروق الظلام النفسى، الذى ينشأ من الصفات الرديئة، كالكذب والكبر والحقد والرياء، وحب الدنيا والشهوات والأهواء.. فإذا جاهد تلك الصفات حق الجهاد، فإنه يرتقى فى سلم الطريق، إلى أن يصل إلى حالة المؤمن الصادق، الذى يعفو عمن ظلمه، ويصل من قطعه، ويعطى من منعه، وينفع من ضره.. وتلك صفات النفس المطمئنة التى تستحق أن تكون راضية مرضية، وتنعم بصحبة الأنوار المحمدية مع الأحبة، من النبيين، والأئمة المرضيين، وجميع عباد الله الصالحين.

- **ويجب أن تكون أفعال العبد السالك كلها خالصة لله:** فى أكله وشربه ومنامه وعمله وكلامه.. فكل فعل يفعله، يلزمه دخول النية عليه، حتى يكون خالصاً لوجه الله تعالى، لا يبتغى به المريد شهرة ولا جاهاً، ولا أى عرض من عوارض الدنيا الزائلة.. فإن لكل امرئ ما نوى: فإن كانت نيته التوجه إلى الملأ الأعلى، والصحبة الشريفة، والسقيا من منابع الأنوار السرمدية، فله ما نوى.. ومن كانت نيته الاستزادة من ماديات الدنيا الغرور، وحطامها الزائف، فله ما نوى.. وما ربك بظلام للعبيد، فهو لا يظلم الناس مثقال ذرة، وهو القائل ﷻ: ﴿**ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين**﴾ (آل عمران: ١٤٥).

فإذا أدرك العبد هذه الحقائق: بأنه لا يقدر على نفع نفسه، ولا غيره في الدنيا ولا الآخرة إلا بالله، وأنه لا يتحرك إلا بالله المنعم عليه، لأنه هو الضار والنافع، وهو المهيمن القهار.. إذا أدرك العبد ذلك، وأصبحت نيته كلها خالصة لله من أعمق الأعماق فإنه يصير مؤمناً حقاً، وفى نفس الوقت فإنه يثاب على أكله وشربه، وعلى لذاته الشرعية، وعلى زواجه وتربية أولاده، وكل مبلغ يصرفه على نفسه وعياله، فى إطار الإنفاق الشرعى.. وهكذا يصدق عليه قول القائل:

فهنيئا لمن عرفك إلهى   هو والله دهره مسرور

- **ويجب على المريد أن يتحلى بخصال المفتوح عليه، وأن يصطنع تواجدها فيه أثناء عبادته:** فمثلا حينما يقرأ أوراده، أو يقرأ القرآن الكريم، فعليه أن ينفعل عند قراءته، كأن كل ذرات جسمه تتشرب بمعانى القرآن، وعليه أن يعى ما يقرأ ويدعو الله حسب مناسبة الآيات التى يقرأها.. فإذا كانت آية عذاب، استغفر وتاب واستعاذ بالله.. وإذا كانت آية رحمة، رجا الله، ودعا أن تناله رحمات الرحمن الرحيم.. وإذا كانت أمر معين، أقر بالسمع والطاعة.

وعليه أن يتخيل: أن الأمواج الصوتية التى تخرج من ذاته، ناطقة بالقرآن الكريم، وكأنها نور وتجليات إلهية، تهتز بها ذرات جسمه، وتتجاوب معها، وتروى كل جزء، وكل ذرة من ذاته، فيكون كيانه كله: آذانا سامعة، وقلباً واعياً، غارقاً فى نور القرآن.. وكذلك بالنسبة للأوراد: فعليه أن يتدبر معناها، ويمررها على عقله وقلبه، لكى تؤثر فيه بمعانيها.. فمثلا: إذا قرأ كلمة "الجنة" فعليه أن يتخيل شكلها، كما وصفها الرسول ﷺ، وينشرح لها، ويتمنى أن يكون أهلاً لها، وأن تكون أعماله موصلة إليها.. وهكذا فى بقية الكلمات، مما يعلم المريد معنى الاستغراق، والتحليق فى أعلى السماوات، وصحبة أشرف الكائنات، سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات.

وبمناسبة ذكر الأوراد: فإن أستاذنا الفاضل د. حسن يشرح لنا أهميتها كدروس على طريق معرفة الله، وكمدد للأنوار، وكوسيلة لعلاج كثير من الأمراض النفسية التى تصيب بعض النفوس البشرية.. وهذا ما سنوضحه فى النقطة التالية.

الأوراد دروس وأنوار وعلاج من الأمراض:

يذكر لنا د. حسن بعض فيوضات الأوراد، التي يفيض بها الله على عباده الصالحين، وأوليائه المتقين، الذين يقرأون تلك الأوراد بتدبر وتضرع إلى المولى القدير. فيقول: إن الأوراد ذاتها دروس إيمانية، تدخل في قلب المريد، وتبصره بحقيقة العقيدة.. فمثلاً في الحزب الكبير لسيدى أبي الحسن الشاذلي: إذا أخذنا منه فقرات، ونظرنا إليها، لتحققنا من ذلك:

- فقوله: "يا الله يا عظيم يا علي يا كبير، نسألك الفقر مما سواك، والغنى بك، حتى لا نشهد إلا إياك".. أليس ذلك طريق لفهم معنى: "لا إله إلا الله".
- وقوله: "اللهم أنت الحميد، الرب المجيد، الفعال لما تريد، تعلم فرحنا بماذا ولماذا وعلى ماذا، وتعلم حزننا كذلك.. وقد أوجبت كون ما أردته فينا ومنا.. لا نسألك رفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد، بروح من عندك، فيما تريد، كما أيدت أنبياءك ورسلك، وخاصة الصديقين من خلقك.. إنك على كل شيء قدير".. أليس هذا تسليم مطلق لله، ورضاء بقضائه، ودعاء شرعي فيه الاستسلام لإرادة الحق؟
- وقوله: "هنيئا لمن عرفك فرضي بقضائك.. والويل لمن لم يعرفك.. بل الويل لمن أقر بوحدانيتك، ولم يرض بأحكامك".

  أليس في ذلك تذكير وتبصير وتعليم وتفسير لحقيقة الرضا بالقضاء؟
- في هذا الورد أيضاً: يتكلم عن عز الدنيا، ويفسره بأنه الإيمان والمعرفة.. ويفسر عز الآخرة: بأنه اللقاء والمشاهدة.. ويقول في ذلك: "اللهم رضِّنا بقضائك، وصبرنا على طاعتك، وعن معصيتك، وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك.. فهب لنا حقيقة الإيمان بك".. ويشرح حقيقة الإيمان هذه قائلاً: "حتى لا نخاف غيرك، ولا نرجو غيرك، ولا نحب غيرك، ولا نعبد شيئاً سواك".

ولاشك أن تكرار مثل هذه الكلمات، المليئة بالنور والمعاني التي تنير القلوب، هي من أسرار القلوب.

- وقال كذلك: "أسألك الإيمان بحفظك، إيماناً يسكن به قلبي من هم الرزق، وخوف الخلق، واقرب مني بقدرتك، قربا تمحق به عني كل حجاب، محقته عن إبراهيم

خليلك، فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك، وحجبته بذلك عن نار عدوه".

وهو بذلك يعظ المريد بأن يبعد عن نفسه هم الرزق، وخوف الخلق.. فهى أمور ضمنها الحق لعباده، وأقسم عليها.. فماذا يطمع الإنسان بعد ذلك من خالق الأكوان؟

ويزيدنا أستاذنا الفاضل د. حسن تأكيداً على أهمية الأوراد كدروس وأنوار.. فيقول:

ومن أذكار سيدى أبى الحسن الشاذلى: كنوز تشرح الصدر، وتنير الطريق، وفيها أدب لا نظير له فى الدعاء.. تساعد المريد على اجتياز عثرات الطريق، وتبديد وحشته.. ومن تلك الكنوز "اللهم إن حسناتى من عطائك، وسيئاتى من قضائك.. فجد الله بما أعطيت، على ما به قضيت، حتى تمحو ذلك بذلك. لا لمن أطاعك فيما أطاعك فيه له الشكر، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه له العذر. اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين، وأنت أجل وأعظم وأكرم، من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك، أو أن تعصى إلا بحكمك وقضائك.. إلهى ما أطعتك حتى رضيت، ولا عصيتك حتى قضيت، أطعتك بإرادتك، والمنة لك على، وعصيتك بتقديرك، والحجة لك على.. فبوجوب حجتك، وانقطاع حجتى، إلا ما رحمتنى.. وبفقرى إليك، وغناك عنى، إلا ما كفيتنى يا أرحم الراحمين".

إن تلك الأذكار: فيها الأدب الرفيع فى المناجاة، والتسليم المطلق لإرادة الحق، والرضا بالحكمة الإلهية.. وكل هذا مما يحتاجه المريد أشد الاحتياج، وهو فى معراجه الروحى، فى طريق الوصول إلى معرفة الله ﷻ.

ومن هنا تتضح أهمية الأوراد، كدروس لدعم العقيدة وصقلها، وأنوار على طريق الرحمن.

أما كيف تكون الأوراد علاجاً لبعض الأمراض؟

فهو ما يشرحه لنا د. حسن بقوله:

إن تكرار المريد اليومي -لما كلفه به شيخه من أوراد- يزيل الغفلة والأمراض التي تعترى النفس البشرية، لما يصيبها من كدورات وظلمات.

فنحن في عصرنا الحالي: نعالج بعض الأمراض بالإيحاء الذاتي، وتكرار معاني معينة، يتمسك بها الإنسان، ويمررها على عقله عدة مرات، لعلاجه نفسياً، أو إزالة بعض الأوصاف الرديئة، أو غير ذلك مما يمنع عن النفس صفائها واطمئنانها.

وهكذا فإن الذكر والقرآن والأوراد، التي يحددها الشيخ بفراسته، وفقاً لما يحتاجه المريد من علاج معنوي لنفسه، التي يعتريها بعض الظلمات.. كل هذا يساعد المريد بالتكرار (بعقله وقلبه وحواسه) على أن تنقله من ظلمات الجهل، إلى نور العلم.. ومن ظلمات عبادة الدنيا والمال وهوى النفس، إلى عبادة الله الواحد القهار.. ومن ظلمات الهوى والكبر والحسد والغل، إلى نور المحبة والإخلاص والتعاون على البر والتقوى.. وهكذا تتحرر النفس من جميع الأمراض المعنوية، الناتجة عن الأثرة والأنانية.. **وتصير ذات المريد راضية، مؤمنة بأن الفاعل لكل شأن، هو الحق جلّ وعلا**.. فهو خالق كل شيء، ولا مدبر غيره، مع أخذنا بالأسباب، والرضا بالنتائج بما قدره الله.

فالمريد يعمل وينتج ويكد، ويرضى بما قسم له.. أما من خلا قلبه من ربه، واستولت عليه الغفلة وسطوة المال، والشهوات والأهواء وحب الدنيا، فلا يرى الأفعال إلا أنها صادرة من نفسه، فيكله الله إلى تلك النفس الشقية.. **وهنا تنسد قنوات ذاته، بدلا من أن تسقى بالنور الإلهي**، فتنفر منه الملائكة، ويفتح على نفسه أبواب الشياطين، التي تزيده رهقاً وعسراً، وتظل نفسه قلقة معذبة، يشتكي من الأمراض النفسية، ويلجأ إلى العيادات الطبية، أو السحرة والمشعوذين.

ومن هنا تظهر أهمية الأوراد في علاج بعض الأمراض، لأنها تمد الإنسان بالأنوار، التي تزيل الكدورات، وتحقق للنفس السكينة والاطمئنان.

واستكمالا على مسيرة الطريق إلى الله: يحدثنا عالمنا المبجل د. حسن عن الخلوة، كمنزل من منازل ذلك الطريق المقدس، حيث تعتبر ضرورة حيوية، لاكتساب الأنوار المحمدية.. ومن لم يستطع تحقيق الخلوة بمعناها الشامل، فلا أقل

من أن يحققها بمعناها الجزئى، حيث ما لا يدرك كله لا يترك كله.. فما هى الخلوة؟ وكيف تتم؟ وما أهميتها؟.. هذا ما سنعرضه فيما يلى:

الخلوة.. ضرورة لتذوق الأنوار والأنس بالرحمن:

يقول عالمنا العارف بالله د. حسن: من المنازل التى يمر بها المتصوف فى طريقه إلى الله: "الخلوة".. وهى انقطاع عن الناس لفترة، تكون عادة أربعين يوماً، يترك فيها المريد الأعمال الدنيوية، ليتفرغ القلب من هموم الحياة، وتستريح الحواس من مشاهدة المشاغل الدنيوية اليومية.. يصحب ذلك الانقطاع: ذكر مستمر بقلب خاشع، وتفكر فى آلاء الله.

والخلوة مشروعة: اقتداء بسنة الرسول ﷺ حينما كان يخلو بغار حراء.

وفى ذلك يقول المحدث القسطلانى: "إن أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحى: الرؤيا الصالحة.. ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء".

فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحى.. وأيضاً لو لم تكن من الدين، لنُهى عنها، بل هى ذريعة لمجىء الحق وظهوره، مباركة عليه وعلى أمته تأسياً، وسلامة من المناكير وضررها.. ولها شروط مذكورة فى كتب القوم.

ومن غار حراء انبثق النور، وأطل الفجر، وانطلقت الشرارة الأولى من نور التصوف الإسلامى.. وما ترك الرسول ﷺ هذه الخلوة بعد أن خرج من الغار.. فكان بعدئذ يخلو فى العشر الأواخر من رمضان، وقد سماها الفقهاء **اعتكافاً**.

وقال المناوى: حبب إليه -عليه الصلاة والسلام- الخلاء والانفراد، والنفور من المخالطة، حتى فى الأهل والمال والعيال، بالكلية.. واستغرق فى بحر الأذكار العلية، فانقطع عن الأضداد، فاستشعر حصول المراد، وحصل له الأنس بالخلوة، فتذكر من أجل ذلك الجلوة.. ولم يزل الأنس يتضاعف، ومرآته تزداد من الصفاء، حتى بلغ أقصى درجات الكمال.

وللخلوة فوائد جليلة: لا يدرك تلك الفوائد إلا من ذاقها، وجنى ثمارها.. وقد قال عنها الإمام الغزالى: "إنه انكشف لى أثناء الخلوة أمور لا يمكن إحصاؤها ولا

استقصاؤها.. والقدر الذى أذكره لينتفع به: أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق.. ولو جمع عقل العقلاء، وحكمة العلماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً.. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، فى ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة.. وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض، نور يستضاء به".

وعن أهمية الخلوة.. ولو ساعة من الليل: ينقل لنا د. حسن قول الشيخ الإمام عماد الدين الواسطى، حيث يقول: ليكن لنا جميعاً من الليل، ساعة نخلو فيها بربنا جلَّ اسمه وتعالى قدسه.. نجمع بين يديه فى تلك الساعة همومنا، ونطرح أشغالنا عن قلوبنا، فنزهد فيما سوى الله ساعة من اليوم.. فبذلك يعرف الإنسان حاله من ربه: فمن كان له مع ربه حال، تحركت فى تلك الساعة عزائمه، وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره، وطالت إلى العلا زفراته.

وتلك الساعة أنموذج لحالة العبد فى قبره، حين خلوه عن ماله وولده.. **فمن لم يخل قلبه لله ساعة من يومه، لما احتوشته من الهموم الدنيوية، ذوات الأغيار، فليعلم أنه ليس له ثم رابطة علوية**، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبية، فليبك على نفسه.. وإذا خلوت لله تلك الساعة، أمكن إيقاع الصلوات الخمس على نمطها، من الحضور والخشية والهيبة، للرب العظيم فى السجود والركوع.

فلا ينبغى أن نبخل على أنفسنا فى اليوم والليلة (من أربع وعشرين ساعة) بساعة لله الواحد القهار عقيدة.. نعبده فيها حق عبادته.

وبعد تلك الجولة على طريق التصوف: ببيان بعض معالم الطريق، من أهمية صحبة شيخ لبيب عارف بالله، والآداب التى يجب أن يتحلى بها السالك إلى الله، وزاده من الأوراد والأذكار، والخلوة التى تزيده استزادة من الأنوار.. نقول: بعد تلك الجولة يقوم عالمنا الجليل وأستاذنا الفاضل: د. حسن –المتبحر بعمق فى بحار التصوف– بعرض بعض الحقائق، التى تنير الطريق، وتطوى المسافات للسالكين، حيث تزيدهم فهما بأبعاد العلم الذى يبغونه، مما يزيدهم معرفة بالله.. وها نحن

نعرض قبساً من تلك الأنوار، داعين الله أن يزيدنا أستاذنا العالم من بحار علمه، ما يقربنا من مولانا العظيم.

مقتطفات من حقائق تنير الطريق:

الكلام: لا يعطى الحقائق أصلاً، لأن مرتبة الكلام ظل الظل، لأن ظل الحقائق هو الخيال، وحضرة الكلام ظل الخيال.

الفهم: هيئة للنفس، بها تصور المعانى صوراً خيالية أو روحانية.

بعض الكلام لمزيد من الفهم على طريق المعرفة:

قال سيدنا على لكعب: اعلم أن الله فى كل شىء لا بمقارنة، وأنه يميز كل شىء لا بمزايلة، وأنه ليس فى الأشياء بوالج، ولا عنها بخارج.. إذ لو كان فيها والجا، لبطل حكم الظاهر، ولو كان عنها خارجاً، لبطل حكم الباطن، وهو الظاهر والباطن.. فاحذر أن تتهمه أو تتوهمه، فمن العرفان أن لا تتوهمه، ومن العدل أن لا تتهمه.

يا كعب: إذا تكلمت فى ذات الله، توعرت عليك الطرقات، وإذا عرفت الله تعالى، فلا تمنع المعرفة عن ذوى الاستحقاق، فإن الله بالمرصاد.

من صفات الله تعالى:

سأل سلمان الفارسى -ﷺ- سيدنا عليا (كرم الله وجهه): هل الله تعالى متجل علينا فى هذا الآن؟ فقال: يا سلمان إن العطا من الله تعالى لكل مستحق موهبة.. فاجعل نفسك حيث جعلك الله موضعاً، واستوهب منه معرفته فيها، تنال الرغايب الجليلة.. وكن أميناً على سره، وخازنا لعلمه.. ولاتشك أن الله تعالى متجل بنوره، ناطق بظهوره، باد بمشيئته، ظاهر بقدرته، باطن بحكمته، قاهر بعظمته، موجود فى كل موجود بعلمه، لا غايب ولا مفقود.. لا يفقده من عرفه، ولا يجده من وحده، ولا يجحد مواقع أنواره من عرف سراً من أسراره.. لا يُهتدى إليه إلا به، ظاهر فى بطونه، باطن فى ظهوره، لا يحيط به شيء، وهو بكل شىء محيط، إحاطة قدرة

وعظمـة.. الكبريـاء لباسـه، والعظمـة رداؤه، والعز سناه، والقدرة سيفه، والمشيئة عرشه، والعلم كرسيه.. كل ما تمثله الخواطر فهو خلافه، لا تدركه الأبصـار، وهـو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

أما كيف يكون "لا إله إلا الله" محققة مراد الحق منها؟ فهو ما يشرحه لنا عالمنـا العارف بالله بقوله: **كلمة "لا إله إلا الله" لازمة للحق:** بالاعتقاد لها قلباً، والاعتراف بها نطقاً، والوفاء بها فعلاً.

أما الاعتقاد: فهو نفى القدرة عن كل من يتوهم فيه النفع والضر غير الله الحق.

وأما الاعتراف: فهو أن ينطق بلسانه "لا إله إلا الله".

وأما الوفاء: فهو أن يكون له من الثقة فى باب الحوائج، ومن التوكل فـى بـاب الرزق، ومن القناعة فى باب المنالات، ومن الانقياد فى باب العبادات، ومن التسليم عند ورود المشتبهات.. ما يحفظه من أن يعصى الله بجارحة مـن جوارحـه، بسبب ولوجه فى شيء من هذه الأبواب.

ومن قال "لا إله إلا الله" بلسانه، دون مشاهدة قلبـه، كـان مفترياً، وشـاهد زور، لأنها لم تكن عن مشاهدة.. فالقلب للمشاهدة، واللسـان للتعبير عـن المشـاهدة.. فمن عبر عن غير مشاهدة، فهو شاهد زور.

الإرادة والمشيئة:

يشرح لنا عالمنا العارف بالله، أبعاد القضية التى تحـير الكثـيرين، وتقـف عثرة فى طريق السالكين وهى: **"هـل الإنسـان مسـير أم مخـير؟"**.. وهـو فـى شرحه هذا يعتبر أنه يتكلم مع أهل الطريق، الذيـن عندهم حد أدنـى مطلـوب مـن معرفـة اللـه، فيأخذ بيدهم على طريق المعرفة.. فعلم التصوف من العلوم التى تُسـمى: "المضنـون به على غير أهله".. لأن هذا العلم يلزمـه صفـاء القلـب، وانطلاقـة الـروح، وقدرتهـا على التحليق فى آفاق سرمدية، لا نهاية لها، ولا حدود لأبعادها.

يقول أستاذنا الفاضل د. حسن:

العلم يشتمل على المعلومات كلها. والإرادة ترتبها، وتقدم بعضها على بعض رتبة ووجوداً.. ولما كانت **المشيئة** من أخص لوازم الحياة، كان التجلي الوجودى الظاهر، من حيث أنه منشأ الكمالات أجمعها، ومظهرها فى القوابل بحسبها، لا يظهر إلا فى المشيئة.. لذا كانت المشيئة عرش الله تعالى.

العبد له كسب واختيار، وليس له خلق واختراع.. ولذلك فإن الفعل هو خروج صفة القدرة من الباطن إلى الظاهر، على مقدار إرادة المريد المطلق، وهو الله تعالى.

ومن هنا يتبين أن **التوكل قريب من التوحيد:** لأن من اتخذ الله تعالى وكيلاً فى جميع أموره، فلا يرى فعلاً من أفعاله لنفسه، بل لوكيله.. فحال الموكل قريب من حال الموحد، لأنهم يستقون من نبع قول الحق:

﴿والله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ (الزمر: ٣٩)

فالإنسان إذا عمل عملاً، فإن حاله لا يخلو من أمرين: إما أن ينسبه إلى الفاعل الحق، بصفته القيومية، وهى التى بها يقوم كل شيء، وهو أقرب إلى الشيء من نفسه.. وإما أن ينسبه إلى الوجود، وهى أشرف وأعلى مرتبة من الأولى، إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وأفعاله وصفاته.. وتلك الصفات ليست مغايرة لذاته، ولا زائدة عليها، إذ الموصوف الأحدى لا يغاير صفته، بل هو هى من حيث الوجود، ولا هى غيره من حيث الإيجاد.. أى هو هى لظهوره بها، ولا هى غيره لإبداعه إياها.

وصورة نسبة العمل إلى الله تعالى بصورة القيومية: أن يشهد العبد نفسه ثابتاً بالقيوم تعالى، فيكون علمه بما به شئت لا به.. ويلحظ أنه إنما ثبت فى التعين الخاص به، بالقيوم تعالى، لا بنفسه.. فيثبت لعينه العدم، بالموجود الحق، لا لصفة الحق، فإنه إذا ظهر له أن الوجود الحق (انمحى هو) فلا يثبت بصفة الحق لمحوه، ولا بصفته، إذ هو تعين، والتعين عدمى فى النظر إلى الحق المطابق للكشف، وهو المعبر عنه **بالفرق:** وهو ما تمتاز به الأشياء بعضها عن بعض، وتمتاز عنه تعالى.. ولكن يثبت لصفته، أى لصورته، وهى مجموع صور عدمية.

فالحق تعالى ما أظهر عبده إلا ليثبت لصفته بصفة الحق، وهى قيوميته تعالى.. فالعبد يثبت لصفاته بمولاه، ولا يثبت بصفاته، لأنه محو فى ذاته.

وتلخيص ذلك كله: أن الحق تعالى هو هو لهو، لا لك.. وأنت أنت لأنت، وله تعالى.. فأنت مرتبط به، وليس هو مرتبط بك.. فلو علمته لم يكن هو، ولوجهلك لم تكن أنت.. فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته.

الطاعة والمعصية.. وكيف يثاب أو يجازى الإنسان عليها؟

تعتبر تلك النقطة استكمالاً لما سبق فى بيان القضايا التى تشغل بال الخلق دائماً، وتثير كثيراً من البلبلة، والتى تحمل فى مجموعها اسم **"القضاء والقدر"** ويدخل تحتها تساؤلات كثيرة، ومدارج روحية لا نهائية، حسب درجة اليقين التى يصل إليها المريد، فى طريق معرفته لرب العالمين.

ويتناول عالمنا العارف بالله د. حسن عباس زكى تلك القضية الجوهرية بالشرح والتحليل قائلا:

الحقيقة فى اللغة: عبارة عن ما له ثبوت ووجود لازم، لا يقبل التغير والتبدل.

وفى الاصطلاح: عبارة عن ما يضاف إليه، ويقوم به جميع الصفات واللوازم والأعراض، بحيث تتحول هذه الصفات عليها، وهى ثابتة لا تتغير، ولكنها تنفصل، وهى فى التوابع أكثر من المتبوعات.

والموجودات كلها: كلمات الله، وهى تفصيل "كن" الإلهية.. وهى دلالة الكلام على المتكلم، كل كلمة بحسبها.. فتدل جميع الموجودات بذواتها، على الحقائق بجميع حقايقه ومعانيه.. وثم وقت تحقق فيه الحقائق كيفية، تقتضى وقوع أمر، هو المعبر عنه بالقيامة الكبرى، وتصير الموجودات فيه بحسبه، والكل أحكام الحقائق مما خرج عنها.

ولهذا قامت **الحجة لله تعالى** على عباده: إذ الأمر لهم فى مقتضيات حقائقهم، فما صدر منهم فهو منهم، وليس من الله تعالى إلا الوجود، المظهر للشيء على ما هو عليه.. فمن فعل طاعة: فهو فعلها بهذا اللسان، فيشكر عليها، ويجازى بالنعيم فى

داره.. وكذلك من فعل **معصية**: فهو فعلها بهذا اللسان، فيندم عليها، ويجازى بالعذاب فى داره.. فثبتت الحجة لله عليهم.

فلا يقول أحد: لو أراد الله تعالى لأطعت، فإن الله تعالى ما تعينت له إرادة من كونه لنفسه، إلا من حيث الحقائق.. فكل حقيقة قبلت الوجود، كان الوجود معها بحسبها، والوجود هو الحق، وكان الحق تابعاً لا متبوعاً.

فقبول الحقيقة للوجود قبولاً خاصاً: يسمى ذلك القبول إرادة لله تعالى، إذ لا رب غيره.. ثم ينسب –بطريق الأدب– ذلك إلى الله تعالى، وهو حقيقة، إذ ليس غيره تعالى موجوداً.. وكل حقيقة من أعيان الموجودات، هى وجود مقيد بمرتبة، وهى وهم.. فإذا فككت الوجود عن المرتبة الوهمية، صار الوجود نوراً وحده، وانعدمت المرتبة الوهمية، إذ أصلها ذلك، فعادت إلى الأصل، واتصل النور بالنور، واندرج الظهور فى الظهور.. فهذا طريق الإرادة، ولو أطلقت كلمة الإرادة منسوبة للعبد، صح ذلك.

وقد تبين أن فاعل الطاعة مشكور، وفاعل المعصية معذب، إن لم يرجع ويتوب، ويعمل بعمل أولى الطاعة.. ومن هنا يعرف **سر القدر**: فإن كل موجود هو كيفية واحدة، من حقائق مجتمعة ظهرت بالوجود، على حسب ما هى عليه، فلا تفعل إلا ما تقتضيه ذواتها.. فهو قدر الله تعالى فى خلقه، وكل تقدر.

والقضاء هو: حيثية انتساب هذا المجموع إلى الله تعالى، بطريق أنه الكل.

فالقدر: ترتيب الأشياء ترتيباً خاصاً، يجرى جرياً خاصاً، على حسب ما تقتضيه الحقائق.

والقضاء: نسبة كون الحق تعالى مقدره.. ومعنى ذلك: أى ليس سوى أنه اقتضاه لذاته.

والسر فى القضاء والقدر: هو رجوع فيما يتجدد ويوجد، إلى اقتضاء الحقائق ذلك بذواتها، والله تعالى مظهرها.. فإنها ما كانت موجودة ولا معدومة، بل ثابتة بالنظر إلى قبول الوجود لإظهارها أو لظهورها.. فبهذا القدر، حصل لها الثبوت.

والقابل والمقبول: ذات واحدة.. والمراتب: نسب وإضافات، تسمى أسماء عندنا، وصفات عند النظار، تقتضيها كمال الذات المقدسة.. وقد تبين القضاء والقدر وسرهما (وهو الرجوع المذكور) والموجودات مطالبون بالطاعة، وهى اتباع الشارع الكامل المكمل.

فالسعيد من أقيم فى مقام المساعدة والموافقة، والتسليم والتصديق، والرضا وعدم الاعتراض، وترك الاختيار لاختيار الله، فى جميع ما حكم الله عليه.

أفعال الله كلها كاملة الحسن:

يواصل أستاذنا الفاضل د. حسن حديثه الذى يحلق بنا فى آفاق عالية، حيث يزيد قضية "القضاء والقدر" وضوحاً وتبياناً، ليزداد المريد يقيناً بمعرفة الله وأفعاله، فلا تعوقه مجريات الأحداث، عن السعى الدءوب فى ذكر الله، والرضا بكل ابتلاءات الحياة.. وها نحن ننقل حديثه الشيق، الغنى بالعلم اللدنى، حيث يقول:

من آيات الحق جل شأنه فى قرآنه الكريم: ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما**﴾ (الفرقان: ٧٠).

ويعنى المولى بقوله: يُبدل الله سيئاتهم حسنات، أى أنه يريه عين ما كان يراه سيئة حسنة.. وقد كان حسنها غائباً عنه بحكم الشرع، فلما وصل إلى موضع ارتفاع الأحكام المشروعة، وهو الدار الآخرة، رأى حسن ما فى الأعمال كلها، لأنه ينكشف له أن الفاعل هو الله تعالى لا غيره.. فهى أعماله تعالى، وأعماله كلها كاملة الحسن، لا نقص فيها ولا قبح.. وأن السوء والقبح الذى كان ينسب إليها، إنما كان ذلك حكم الله، لا أعيانها.. وكل من كشف الغطاء عن بصيرته وبصره، رأى حكمة الله العظيمة فى كل أحداث الحياة، التى تجرى على البشر.

ومن الناس من يرى ذلك فى الدنيا: وهم القائلون بأن أفعال الله كلها حسنة، ولا فاعل إلا الله تعالى، وليس للعبد فعل، إلا الكسب المضاف إليه شرعاً، وهو عبارة عن ماله فى ذلك العمل من الاختيار، أما القدرة الحادثة، فلا أثر لها عندهم فى شيء، فإنها تتعدى محلها..

أما أهل الله: فإنهم لا يرون أن ثمة قدرة أصلاً، يكون عنها فعل من شيء، وإنما وقع التكليف من اسم إلهي، في محل كياني، يسمى ذلك العبد مكلفاً، وذلك الخطاب تكليفاً.. وأصل التكليف هو: طلب في وجود المكلف، من المكلف في العلم والمعرفة، وبما يمكن منه وجوده.

أما القائلون: بأن الأفعال للخلق، والأعيان للحق.. فبعد كشف الغطاء، يتبين لهم ما الأمر عليه.

كيف يحقق الإنسان الرضا بحكم القهار؟

يشرح لنا عالمنا الهمام، السابح في ملكوت الرحمن، كيف يحقق الإنسان أعلى درجات الإيمان، ويحقق معها السكينة والاطمئنان.. فيقول: **من أراد أن يزول عنه حكم القهر، فعليه أن يصحب الله تعالى بلا عرض وتشوف وإرادة،** بل ينظر كل ما يقع في العالم، وفي نفسه وفي غيره، فيجعله كالمراد له، ويلتذ به، ويتلقاه بالقبول والرضى.. فإذا حقق ذلك، أصبح مقيماً في النعيم الدائم، لا يتصل بالذلة، ولا يشعر بأنه مقهور، وما يصحب ذلك من ألم.. وهذا مقام عزيز جداً، وواجده أعز، وذلك لأن الإنسان لا يخلو قط من حالة يكون عليها، ويقوم فيها عن إرادة منه، أو عن كره، بأن يُقام فيها من غير إرادة.. فهو مرة صحيح، ومرة سقيم، ومرة فقير، ومرة غني، ومرة عزيز، ومرة ذليل، ومرة مقهور، ومرة منصور، ومرة مكروه، ومرة محبوب، ومرة في شدة، ومرة في رخاء، ومرة في قبض، ومرة في بسط..

فهو في جميع الأحوال متقلب في قبضتي سلطان عظيم، وبين إصبعي قهار رحيم، وتحت قدمي جبار كليم، ورب حكيم، لا يمنع منه حال إرادة له، ولا يمنع من حال إرادة به.. ولابد أن يحكم لتلك الحال حكم شرعي، فيقف عند الحكم الشرعي، ويريد ما أراده الشرع منه، فيتصف بالإرادة لما أراده الشرع خاصة، فلا يبقى له غرض في مراد معنى.. وهذا هو الفقر التام، وهو الذي لا يبقى لصاحبه حاجة معينة، ولا مطلب مخصوص، ويكون توجهه إلى الحق، على ما يعلم الحق نفسه، لا من حيثية خاصة، ولا على نحو مخصوص..

فقول القائل: ينبغي أن يكون العبد مع الله بلا إرادة أصلاً.. قول فيه نظر، إلا

إذا كان يقصد به العبد الحقيقي، الذي بلغ مقام الفقر الأتم، وهو المعبر عنه بمقام "أو أدنى" و "حضرة أحدية الجمع" وهو مختص بنبينا محمد ﷺ لا يشاركه فيه أحد، إلا بطريق الإرث أو التبعية.. وأما ما عداه، فينبغي أن لا يكون متعلق إرادته، ما يريد به مولاه، إذ لا يخلو عن إرادة ما، وحالة ما غير متعينة.

فمن طلب شيئاً عن أمر الله تعالى وبإذنه، فهو عبد ممتثل سيده.. ومن طلب شيئاً بنفسه، من غير أمر الله تعالى وإذنه، فلابد أن يتألم إذا لم يقع له ما تعلقت به إرادته، فهو الجاني على نفسه، فإن خالق الأشياء والمرادات، يحكم ولا يحكم عليه.. فليكن العبد معه على ما يريده، ليحقق لنفسه السكينة والاطمئنان، ويحظى برضى الرحمن.

مراد الله من الخلق:

استكمالاً لمسيرة القضاء والقدر، يكلمنا عالمنا العارف بالله د. حسن عباس زكي عن مراد الله من الخلق فيقول:

إن مراد الله من الخلق ما هم عليه، وإرادته تعالى تابعة له.. بل منهم من حصل له اسم المريد، بعد أن كان في حضرة غناه عن العالمين، لا اسم له ولا صفة.. فتعينت أسماؤه بالموجودات، فما نسب إلى الحق تعالى من التأثير والفعل، فإنما نسب إليه سبحانه من كونه هو عين الحقائق.. فما انتسب إليها، فقد انتسب إليه تعالى، لأن الحق تعالى، من كونه وجوداً، ما منه شيء غير الإظهار، فهو في حضرة غناه، ليس له اسم أو صفة أو حكم، تعالى الله عن ذلك.

ولهذا قال أكمل الكمل ﷺ: **«الشقي شقي في بطن أمه، والسعيد سعيد في بطن أمه»**.

وبطن الأم هنا كناية عن الأزل، والأزل كناية عن كينونة الأشياء، في مرتبتها العلمية الإلهية، قبل ظهورها بالوجود، وهي عبارة عن نفي المسبوقية، وهو أمر سلبي.. فالعالم كتاب مستور، في رق منشور، والإنسان فيه سطر مسطور.. فالرق هو الوجود، والمنشور ما ظهر لنا منه، ويقابله المطوي، وهو ما غاب عنا منه، فهذا هو الكتاب السابق.

وإذا كان الله هو عين الأشياء، وعلمه بها هو علمه بنفسه، ونفسه لم يتجدد لها حكم، فالأشياء لم يكن لها تجدد.. فالتجدد إنما هو عندنا وفى عقولنا، بالنسبة إلى عدم إدراكنا، والأمر على ما هو عليه.. فلا تجدد فى حق الحق المحيط، إلا أنه بكل شيء محيط، إحاطة تستغرق ما أحيط به، حتى إذا شهد الشاهد هذه الإحاطة، لم يجد للمحاط به وجوداً، غير وجود المحيط به.

وهكذا: **فإن أكثر النهى الشرعى، إنما هو عما يؤدى إلى تقليب جانب الظلمة الطبيعية، على جانب نور الروحانية..** فكل مأمور به: تجد فيه تغليب جانب الروحانية.. وكل منهى عنه: تجد فيه تغليب جانب رؤية الكثرة، والتركيب والحجاب.

فالنعيم الحقيقى فى الشهود.. والعذاب الحقيقى فى الحجاب.

فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه.. وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.. حتى نستقى بقدر طاقتنا من الأنوار الربانية، ونفوز بصحبة الذات المحمدية.. إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.. فأنت نعم المولى.. ونعم النصير.

وبذلك نكون وصلنا إلى نهاية مطافنا القصير، مع عالمنا القدير، فى سباحته فى عالم التصوف، حيث انتقى لنا من تلك البحار، المترامية الأطراف، بعض اللآلىء والأصداف، التى تساعدنا فى إنارة القلوب والأبصار.

مع دعاء من الأعماق، أن يجمعنا به المولى جلَّ شأنه، مرات ومرات، لتحلق أرواحنا معه فى أروع الآفاق..

القرآن نور ورحمة وهداية

عظمة القرآن في قلوب العارفين:

- إن القرآن بالنسبة للسالكين كشجرة وارفة الظلال، يستظلون في ظلها عندما يشتد عليهم قيظ الطريق، ويتمتعون بثمارها، التي تزودهم بجميع آفاق المعرفة التي تغنيهم، سواء في عالم الغيب والشهادة، أو في عالم الملك والملكوت، أو في الدنيا والآخرة.. في أنفسهم أو في خلق السماوات والأرض.
- والقرآن هو مأدبة الله التي يدعو إليها أولي الألباب، يغترفون من كل زاد، حسب جميع الأذواق، بما تطمئن به القلوب، وتهتدي به العقول، وتنشرح به الصدور، وتحقق به النفوس ما تنشده من أمن وسلام، وسكينة واطمئنان، بفضل معرفة رب الأنام.
- والقرآن هو النور الذي ينفذ إلى صدور المؤمنين، فيزيدها قرباً من رب العالمين، وهو الرحمة لبني الإنسان، التي تخرجهم من ظلمات الجاهلية، إلى نور الحق المبين، وهو الهداية على طريق الرشاد، التي تحقق لكل من كان له قلب أو ألقى السمع إليه وهو شهيد، أعلى درجات الكمال، وتحقق له كل آمال نفسه في الخلود المنشود في جنات الرحمن.

ومن أجل عظمة القرآن هذه، وجلاله في قلوب العارفين بالله.. فإن كلاً منهم، لابد أن يدلي بدلوه، للاغتراف من ذلك المنهل العذب، ليروي الظامئين المتعطشين إلى بعض قطرات الندى، التي تنزل على قلوبهم برداً وسلاماً، فتهدئ من شدة شوقهم إلى معرفة الله جلَّ جلاله.

فماذا قال لنا أستاذنا الفاضل العارف بالله د. حسن عن القرآن؟

لقد تكلم بإيجاز بليغ، يغني عن كل إسهاب، عن دور القرآن في حياة المؤمنين، وجهود العلماء في اكتشاف معانيه وأسراره، وعن الشروط التي وضعها الرسول الحبيب ﷺ لتفسير القرآن، وآداب تلاوة القرآن، ثم تكلم أخيراً عن تزايد احتياجنا للقرآن في عصرنا الحالي.

ونتناول كل نقطة من تلك النقاط فيما يلى:

دور القرآن الكريم فى حياة المؤمنين:

يقول د. حسن: إن أهمية القرآن فى حياتنا أجل من أن يسجلها قلم، أو يحصيها عد، أو تحوطها غايات وجود: فقد نزل بلسان عربى مبين، على عبده ورسوله وصفيه وحبيبه ﷺ ليكون للعالمين **نوراً ورحمة وهداية، ودالاً على الله،** وصراطاً مستقيماً، **وبرهاناً** قاطعاً على صدق الرسالة المحمدية.

- وهو **معجزة** تتحدى العظماء والبلغاء والعلماء، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
- وهو **شفاء** للقلوب والأبدان، وهدى ورحمة، لمن اتبعه دليلاً على وحدانية الله.
- وهو **مرشد** إلى المنهج القويم، بحيث يحقق سعادة الدنيا والآخرة.. إذ أودع فيه الحق جلّ وعلا من **فنون الحكم والعلوم**، ما أعجز الخلائق، وحير العلماء، وأنار الطريق، وبهر العقول، وشرح الصدور.
- ويحوى من **الأسرار** مفاتيح لما أغلق، تهدى إلى طريق الصواب، والحق والرشاد، وتنير قلوب العارفين، والسالكين على درب النبى الأمين.
- ولذلك فسيظل القرآن –بفضل من الله– هو المعجزة الخالدة، **والحجة البالغة** الدامغة، التى لا يحيط بها أحد، لأنها كلام الله وصفته..
- وسيظل هو **الواحة** التى يستفئ بظلها المؤمنون، من صحراء الحياة القاحلة بظلمات الجاهلية والعدم، وهو الأمن والأنيس والجليس، عندما تشتد وحشة الطريق.

وأحسن ما نتوج به كلامنا عن دور القرآن فى حياة المؤمنين هو قول الرسول الأمين صلوات ربى وسلامه عليه: **﴿إن هذا القرآن مأدبة الله، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم.. إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.. اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات. أما إنى لا أقول (آلم) حرف. ولكن ألف حرف، ولام حرف؛ وميم حرف.﴾** (رواه الحاكم عن ابن مسعود).

وقوله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره. فأحل حلاله، وحرم حرامه، أدخله الله به الجنة، وشفعه فى عشرة من أهل بيته، كلهم قد وجبت لهم النار» (رواه ابن ماجه والترمذي عن على بن أبى طالب ﷺ).

ومعنى استظهره: أى أجاد حفظه وأتقن أحكامه.

وإن المتتبع لأحاديث المصطفى الحبيب يوقن بأهمية القرآن فى حياة المؤمنين: حيث تجعلهم من أفضل الناس وأسماهم درجة فى مصاف العظماء، لأن من قرأ القرآن وتفهمه، فقد استدرج النبوة بين جنبيه، ويحاط بملائكة الرحمة، ولا يحزنه الفزع الأكبر، ونال درجة الملائكة الأبرار، وينجو من الشدائد، ويعصم من الزيغ، ويغبطه الصالحون، ويحشره الله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.. لأن الحرص على القرآن معناه الاستمساك بالعروة الوثقى، والغاية المثلى..

جهود العلماء فى اكتشاف معانى القرآن وإعجازه وأسراره:

نظراً لأن القرآن هو البحر الخضم، الذى يحوى اللآلئ والأصداف، التى تنير القلوب والعقول والأبصار.. لذا فإن جهود العلماء تتواصل للغوص فى أعماق تلك البحار، التى تغوص بكنوز الأسرار.. وهذا ما يحدثنا به أستاذنا الفاضل د. حسن، حيث يقول:

لقد توجهت همم العلماء لإيضاح معانى القرآن العظيم، وكشف أسراره، وإظهار لطائفه، واستنباط المسائل العلمية والفقهية، وما حواه من درر وعلوم ومناهج ربانية، تسطع بنورها على البشرية، فتخرجها من ظلمات الجهالة العمياء، إلى أنوار السماوات العاليات.

وقد سار كل عالم تبعاً لمشربه ومذهبه ومنهجه، وتبعاً للعصر الذى يعيش فيه، وبما فتح الله عليه به من علوم لدنيه، واسرار قرآنية.. فكل مفسر يجول فى بحر القرآن، ويغوص فيه، ويخرج من لآلئه ودرره، ما يتناسب مع فهمه وتخصصه، ومع ما فتح الله به عليه من دقائق الحقائق، ولطائف الأسرار.. فيستنبط أحكامه،

ويبين حلاله وحرامه، وأسباب نزول الآيات، وما تحويها من البلاغة والفصاحة والإعجاز.

ولذلك خرجت على العالم آلاف التفاسير الرائعة، مختلفة المشارب، تبعاً لما غلب على كل محقق من أفهام ومعارف.. ولكن كل هذه التفاسير في النهاية، تحمل روح الرسالة والمنهج الإسلامى الحنيف، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وهنا يثور السؤال التالى: **هل هناك تفسير استطاع أن يستوعب حقائق القرآن؟**

ويجيب على هذا السؤال أستاذنا الفاضل د. حسن بقوله:

إن القرآن الكريم كلام الله.. وكلام الله هو صفته، والصفة تدل على الموصوف، والموصوف هو الحق جلَّ وعلا.. وهو لا تدرك حقيقته، وكذلك صفته، لا يمكن أن نحيط بها علماً.

واللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم، هى من صنع الإنسان الحادث، الذى تحكمه مدركاته المحدودة.. **من هنا استحال أن يحيط الإنسان بالمعنى المحدد، لكل آية من آيات القرآن الكريم**.. فالله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، وأنَّى للحادث أن يعى كلام القديم جل شأنه؟!

من هنا كان القرآن حمالاً لوجوه متعددة من التفاسير، وإن كان لها أصول فى أسباب النزول، ومعانى الكلمات، طبقاً للغة العرب، وما جاء على لسان الرسول ﷺ من أحاديث شريفة، وأقوال الخلفاء الراشدين، والصحابة والتابعين، والمحققين من أولياء الله الصالحين.. ولذلك كثرت التفاسير.

فلا ينبغى أن نخضع القرآن الكريم للغة مقياسها العقل المحدود، اللهم إلا لكى ندرك إشارة من معناه، نبنى عليها ما يقع فى القلوب من تجليات ومشاهدات وإلهامات تؤيدها السنة الشريفة.. وننقل هنا بعض الروايات التى تدل على استحالة الإحاطة بحقائق القرآن كلها.. عن ابن عباس (ÇãååÚ ååáÇ iÕÑ): إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون.. لا تنقضى عجائبه، ولا تبلغ غايته.

وعن الحسن ﷺ: لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع.

وفى رواية أخرى: القرآن تحت العرش، له ظهر وبطن، ظاهره ما فسره العلماء، وباطنه يدل عل ما حققه أهل التحقيق من أهل الله وخاصته.. وقيل: ظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء.

ومن هنا كان المجال واسعاً فى فهم معانى القرآن، لا يعرفها إلا المحققون، الذين أشار إليهم الحديث القدسى: ﴿أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى﴾.

فهذا الحديث يشير إلى أهل الباطن من أرباب القلوب من المحققين.. بشرط أن يكون ما قالوه موافقاً للكتاب والسنة، يشهدان عليه بالحق.. لأن كل حقيقة لا يشهد عليها الكتاب والسنة، فهى إلحاد وزندقة.

ومن التفاسير الفاخرة التى جمعت بين الشريعة والحقيقة: "تفسير البحر المديد فى شرح القرآن المجيد" للعلامة الجليل، والصوفى الكبير، الشيخ المحقق: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى" وهو من العلماء الذين أفاض عليهم الله كثيراً من نعمه، وقد انتهج فى تفسيره سلوكاً قويماً: حيث فسر المعنى الظاهر وشرحه، ثم ذيَّل الآيات بما سماه "إشارة". أى أن المعنى الظاهر له معنى باطن يشير إليه، ومن الكمال: الجمع بين المعنيين.

شروط تفسير القرآن:

كما شرحنا سابقاً فإن القرآن هو كلام الله المجيد، ولا يمكن لأى عقل بشرى أن يستوعب تلك الآفاق الواسعة، التى لا تحدها حدود، ولا تقيدها قيود، حيث يموج بكل ذخائر الحقائق التى تمتد عبر الزمان والمكان، فى عالم الغيب والشهادة، فى أعمق أعماق النفوس وفى أعلى عليين، قبل خلق الإنسان، وبعد فناء الكون، إلى أبد الآباد، و..

ولذلك فإن لتفسير القرآن شروط معلومة، وحدود مرسومة، يعلمها المحققون والعارفون والفقهاء، حتى لا يقع أحد فى متاهات الضلالة العمياء، التى تصدر عن التعصب للآراء.. وهذا ما حذر منه المصطفى الحبيب أشد تحذير، حيث قال

صلوات ربى وسلامه عليه: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

والتفسير بالرأى كما يقول العلماء: هو الصادر عن العقل فقط، دون العرض على الأصول من آية محكمة، أو خبر متواتر، أو إجماع المحققين..

فالتفسير يحتاج عقل وقلب، ليجمع المفسر بين الظاهر والباطن، بين الشريعة والحقيقة، بين الأحكام والإشارات، التى تظهر دقائق الحقائق، ولطائف الأسرار، وقد سمع الصحابة رضوان الله عليهم من الرسول ﷺ إشارات لمعانى بعض الآيات وقال لابن عباس ﷺ بعد أن أعلن أحدهم إسلامه: «فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

وقال عزّ وجلّ: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ (النساء-٨٣).

فالتفسير يحتاج إلى فقه.. وكما قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً.. ولكن تلك الوجوه يجب أن تكون فى حدود الشرع أيضاً، موافقة لما في كتاب الله، وسنة رسوله الأمين.. والدليل على ذلك ما قاله سيدنا على ﷺ: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب.. وما منعه عن ذلك إلا أمر من رسول الله ﷺ: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم»..

فالسلف فسروا القرآن -بدليل أنهم دلوا على العمل به- وتفسيرهم هذا قام على أبلغ الاجتهاد، على حد قول الشيخ المفسر الجليل على المهايمى.. حيث التزموا آداب الشرع، وجمعوا بين القلب والعقل.. فجاء تفسيرهم قائماً على أصول الفقه، موفياً لحاجة العصر الذى يعيشون فيه.

آداب تلاوة القرآن:

ينتقل بنا أستاذنا الفاضل د. حسن عباس زكى إلى التحدث عن آداب تلاوة القرآن، حتى يحصل المؤمن على فضله العظيم، وخيره العميم، من مولاه الكريم.. فيقول: للقرآن آداب فى قراءته يجب الالتزام بها، **تشهد بذلك الأحاديث النبوية الشريفة:**

- يا أهل القرآن لا توسروا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وأفشوه

وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون.

- وروى سعد بن أبى وقاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا» (رواه ابن ماجه).
- وروى عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن، الذى إذا سمعتموه يقرأ، حسبتموه يخشى الله» (رواه ابن ماجه أيضا).

وقد كان للسلف فى قدر القراءة عادات:

- فمنهم من كان يختم القرآن فى اليوم والليلة ثمان ختمات: أربعاً فى الليل، وأربعا فى النهار.
- ومنهم من كان يختم فى اليوم والليلة أربعاً.. ومنهم من كان يتلو ختمه ختمة واحدة، وقد ذمت السيدة عائشة (رضى الله عنها) فى ذلك، وقالت: قرءوا ولم يقرءوا.

وأخرج أحمد وأبو عبيدة عن سعيد المنذر قال: قلت يا رسول الله: أقرأ القرآن فى ثلاث ليال؟ قال: نعم إن استطعت.

ويليه من ختم فى أربع، ثم فى خمس، أو ست، أو سبع.. وهذا أوسط الأمور وأحسنها.. وهو فعل الأكثرين من الصحابة (كما ورد فى الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى).

ويمكن إجمال السنن النبوية فى قراءة القرآن، حتى تشفع للإنسان يوم القيامة، فيما يلى:

- ينبغى على القارئ أن يجلس مستقبلاً القبلة، متحشما بسكينة ووقار، يستحضر فى نفسه أنه يناجى الله تعالى، ويشغل قلبه بالتفكر فى معنى الآيات التى يتلوها.
- ويستن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً للموضع الذى يخرج منه كلام الله.. أى ينظف فاه بالسواك.. وكذلك يكون طاهر الجسم والثوب والمكان.
- ويسن أن يبدأ بالاستعاذة قائلاً: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن يقرأ بسم الله

الرحمن الرحيم في أول كل سورة ما عدا براءة. وإذا أخل بذلك كان تاركاً لبعض الختمة والأدب.

- ويستحب الترتيل للتدبر، لأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيراً في القلب.. وما يساعد على ذلك: أن يجتنب الضحك واللغط والحديث خلال القراءة، إلا إذا كان مضطراً.. وكذلك يتجنب النظر إلى ما يلهى ويبدد الذهن..

- ويحسن رفع الصوت بالقراءة، لأن ذلك يوقظ القلب، ويجمع همه إلى التفكر في القرآن، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويبعث على النشاط.

- يكره أن يقول المسلم نسيت آية كذا، بل يقول أنسيتها.. فقد ثبت ذلك في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ.

- عليه أن يتدبر الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك.. فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر.. ويستحب إذا مر بآية رحمة: أن يستبشر ويسأل الله تعالى من فضله، وإذا مر بآية عذاب: أن يشفق منها، ويستعيذ بالله من الشر.. وإذا مر بآية تنزيه: أن ينزه ويعظم.. أو دعاء: تضرع وطلب.

أخرج الترمذي حديثاً عن رسول الله ﷺ: **«من قرأ "التين والزيتون".. فانتهى إلى آخرها، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.. ومن قرأ: "لا أقسم بيوم القيامة".. فانتهى إلى آخرها: "أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى" فليقل بلى.. ومن قرأ "المرسلات" فبلغ: "فبأي حديث بعده يؤمنون" فليقل: آمنا بالله»** .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** قال: **«سبحان ربي الأعلى»** .

- ويستحب البكاء عند قراءة القرآن، أو التباكي لمن لا يقدر على البكاء، ويستحب الحزن والخشوع، لكي يكون القلب أهلاً لتلقي أنوار الرحمن، وفيوضاته التي ترتفع بالمؤمن إلى الدرجات العلا.

- ويحسن الرجوع إلى التفسير، ما بين حين وآخر، كلما مر قارئ القرآن على كلمة ولم يفهم معناها، وكلما تكرر ذلك، كرر العودة، حتى تثبت معاني كلمات القرآن في ذهن القارئ.

◆ ويا حبذا لو تمعن عند القراءة: الانتباه إلى الحروف والكلمات بأشكالها، من أسماء وأفعال وغيرها، لأن ذلك من المهمات، التى تعين على كشف بعض أسرار القرآن، وإمكانية استنباط ما يحتويه من معان.

فمثلا ذكر السيوطى "فى الاتقان" عند قوله تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء**﴾.. الآية: عدل عن اللام فى الأربعة الأخيرة، إيذاناً إلى أنهم أكثر استحقاقاً للمتصدق عليهم، ممن سبق ذكره باللام.. لأن لفظ "فى" للوعاء.. فنبه باستعمالها، على أنهم أحقاء، مما يجعلهم مظنة لوضع الصدقات فيهم، كما يوضع الشيء فى وعاء مستقراً فيه.. وقال "وفى الرقاب" ولم يقل للرقاب، ليدل على أن العبد لا يملك.

وعن ابن عباس قال: الحمد لله أن قال تعالى: ﴿**عن صلاتهم ساهون**﴾ ولم يقل "وفى صلاتهم".. ونجد مثلاً كلمة "ظن" قال الزركشى (فى البرهان) أن ظن لها معنيان: بمعنى اليقين، وبمعنى الشك.. وضابط ذلك أنه حيث وجد الظن محموداً مثاباً عليه، فهو اليقين.. وحيث وجد مذموماً عليه العقاب، فهو الشك.. كما أن كل ظن يتصل بعده بكلمة "أن" المخففة فهو شك. نحو "بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول".. فكل ظن يتصل بأن المشددة فهو يقين. كقوله "إنى ظننت أنى ملاق حسابية".. "وظن أنه الفراق".

ولذلك فإن التمعن فى القراءة يفيد فى فهم أعمق لمراد الحق جلَّ وعلا.

وفى ختام جولتنا فى رياض القرآن الكريم، يبين لنا عالمنا العارف بالله د. حسن حتمية احتياجنا للقرآن، لنستعيد هويتنا، ونحقق سعادتنا، فى وسط طوفان المادية العصرية، التى كادت أن تغرق فيها الشعوب الإسلامية.. وهذا ما نتناوله فيما يلى:

تزايد احتياجنا للقرآن فى عصرنا الحالى:

يبين لنا أستاذنا الفاضل د. حسن شدة احتياجنا للقرآن فى عصرنا الحالى، عصر التطور العلمى، والحضارة المادية فيقول: نحن فى عصرنا هذا فى أشد الحاجة إلى أن نعيش مع القرآن.. فالقرآن نور يبدد جانب الظلمة، التى تبعثها

المدنية الحديثة بلهوها وسفهها.. والقرآن **رحمة** تنجينا من قسوة الأنانية، التى كادت تطغى على العالم، مما سبب الانعزالية، وتفضيل المصلحة الشخصية والسلبية، وحرمت البشرية من مشاعر الحب والتكافل والرأفة، التى يشيعها الإيمان فى القلوب.. والقرآن **هداية** وسط خضم الفلسفات المعاصرة والآراء المختلفة، النابعة من التعصب والأهواء، وتنصب علينا من كل حدب وصوب، حتى كدنا أن نفقد الحكمة الغالية، والمعانى السامية التى جاء بها القرآن، وتشعبت علينا السبل، ووقفنا حيارى تائهين.

لذلك فأرواحنا تئن أنيناً، من شدة الشوق إلى هدى القرآن، والعمل بما جاء به، والعودة إلى ما أمرنا به رسولنا الهادى الحبيب محمد ﷺ.. حيث تشتاق تلك الأرواح إلى نور القرآن وحكمته وحقائقه، لتشق طريقها إلى الهداية، وتحقق سعادتها الدنيوية والأبدية، بانطلاقها من الوهم، حيث تنطلق معها طاقة الإنسان للعمل البنَّاء، وتعيش معها النفس فى سكينة وسلام، بابتعادها عن زيف الماديات، وخلودها إلى مرفأ الحقيقة الكبرى حيث الطمأنينة والأمان. فقد ثبت العجز عن تحقيق السعادة للبشرية، بالرغم من التقدم الحضارى.. لأن السعادة ليست إشباع البطون، أو ضلال العقول، إنما **السعادة هى النور الذى يعمر القلوب، ويشع على العقول، فتخشع الجوارح والأحاسيس وجميع لطائف الإنسان**، فيكفيها القليل من المادة، فلا تكلف الإنسان من أمره عسراً، باللهث وراء كل بريق زائف زائل، لإخماد سعار الأهواء والشهوات، ولن تتحقق أى سعادة للإنسان، إلا بالاعتصام بالقرآن، واتباع سنة خير الأنام، حتى يحيا دائماً فى حال من الوعى الداخلى واليقظة الروحية، مما يجعله يحلق فى أعلى السماوات.

بل إن سعادة الأمة الإسلامية كلها، وخروجها من دائرة التخلف المهين التى تعيشها، ونجاتها من الفتن التى تحيط بها.. لن يكون ذلك كله إلا بالقرآن. وهذا ليس كلامنا، ولكنه كلام الصادق المعصوم، الرسول الأمين، هادينا إلى الصراط المستقيم.. فحينما سئل عن المخرج من الفتن، أجاب تلك الإجابة الشافية النافعة، على مر الزمان:

قال ﷺ: ﴿ *كتاب الله.. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم.. هو الفصل،*

ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره، أضله الله.. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.. هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه.. هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به﴾ .. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

ويختتم عالمنا العارف بالله د. حسن حديثه بهذا الدعاء:

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه.. وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه. اللهم ارزق أمة محمد حب القرآن، وتذوق حلاوته، والانتفاع بأسراره وعلومه وأنواره

اللهم اجعله لنا نورا ورحمة وهداية، ومنهاجا وشريعة، وأنيسا وشفيعا.. إنك بالإجابة جدير، وعلى كل شيء قدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير.

فى نهاية المطاف
دعاء من الأعماق بلقاء جديد

سبحان من هو الأول بلا بداية.. والآخر بلا نهاية.

فكل عمل نبدأه لابد له من نهاية.. وتلك النهاية كثيراً ما تحزننا، لأنها تعنى الفراق، والقلب يتألم من هذا الفراق، لأنه مخلوق أصلاً لعشق الأبد.

ولما كانت بغيتنا الأبد، فنحن نحرص دوماً -بفضل من الله وحمده- أن تكون أعمالنا متعلقة بالباقى، حيث تظل نتائجها فى أعماقنا، لا تزول أبداً بزوال أسبابها.

ونحن فى نهاية طوافنا فى تلك الروضة الزكية، التى تستمد أريجها من الأنوار الإلهية.. لا نملك إلا الدعاء من الأعماق، بأن يتيح لنا جولات وجولات، نستنشق فيها عبق الرسالة المحمدية، والعلوم الاصطفائية، من عالم سار على طريق الصوفية، وحقق فيها مدارج عالية.. وفى نفس الوقت تبوأ أعلى المناصب القيادية، فكانت حياته زاخرة بالمعانى السامية، والخبرات العالية.. وأثمرت لنا تلك الحياة علوماً نافعة، تستحق الاغتراف منها، والتزود بأنوارها، لأنها من عالم جمع بين أصالة علوم الدين، وبين متابعة حركة الفكر العالمى، فجاءت كتاباته مع أحدث تطور أساليب الفهم والاقتناع، والبحث المقارن المتطور.

وقد تجولنا فى رياض تلك العلوم، واقتطفنا من كل بستان زهرة، حتى نتعرف على إمكانيات عالمنا الفاضل، فى مجالات العلم الرحبة، ونعرف قدرة الله وعظمته التى يسبغها على من يصطفى من عباده، فيهب من يشاء علماً من لدنه، ويمنع من يشاء. فهو يقول وقوله الحق:

﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا﴾ (البقرة: ٢٦٩)

وقد عرف د. حسن عباس زكى لتلك الحكمة فضلها، فظل عمره يسعى إلى الاستزادة منها: بالعلم والتقوى والتواضع لله، والبحث الجاد الدعوب عن المعرفة فى كل مصادرها لأنه يؤمن بقول الحبيب المصطفى ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها».

وإن بحار العلوم التى سبح فيها عالمنا الفاضل، تزخر بـاللآلئ والجواهر، التـى تستحق منا البحث والتنقيب، لنعرف عظمة ديننا الحنيف.. ونعلم علم اليقين كيف تستعلى الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية فى كل العلوم والمجالات.

لأن حضارة الإسلام: حضـارة متكاملـة، تجمـع بيـن احتياجـات الإنسـان الماديـة والمعنوية، بين العقـل والـروح، بيـن القـوة والرحمـة.. ومـن يريـد معرفـة ذلـك حقـاً وصدقاً، فليتأمل عن قرب، ويقـارن بيـن أعظـم علمـاء أوروبـا حاليـا، وبيـن أستاذنا الفاضل د. حسن: سيشعر بنفسه، وبدون جهد كبير، الفارق العظيم بين الحضـارتين: حيث سيجد فى أستاذنا العالم: العلم الأعمق، والخشوع لله، والتواضع، وكـل معـانى الرحمة والأدب والإنسانية والإيثار، ممـا يفـرض عليـه مسئولية العبـارة، وخطـورة الإشارة، وأمانة الكلمة.

وسيجد فى عالم أوروبا: العلم المادى فقط، والاستعلاء، والأنانية والمنفعة، التـى قد تـؤدى بـه إلـى التحيز إلـى الهـوى، وشـطط الفكـر، والبعـد عـن البحـث المقـارن الموزون، وإعلاء كلمة الحق.

فنحمد الله أن اصطفانا بخير دين، وببعثة المصطفـى الأمين، وخلـق لنـا علمـاء وارثين لنور النبوة، يستقون النهج، ويسيرون على الدرب، ويجاهدون كل الجهد، فى سبيل إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فى كل عصر ووقت، فيكونون بحـق، مصابيح الهدى التى ترشد الحيارى والتائهين، وتهديهم إلى الطريق القويم..

﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (البقرة: ١٥١).

فاللهم زدنا ولا تنقصنا، واتمم لنا نورنا.. واغفر لنا ذنوبنا واجمعنا مع الأحبـة.. محمد وصحبه.. إنك على كل شيء قدير.. وبالإجابة جدير.. فأنت نعم المولى ونعـم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مشاهدات فى عالم الملك والملكوت

رحلة بحث عن الحقيقة الكبرى حيث عشت دوما أتشوق إلى الملأ الأعلى وأشعر أن هناك شيئا بداخلى يجذبنى بقوة نحوه ويشعل رغبتى نحو معرفة حقائقه ، فظللت أسعى بشغف إلى كل مايقربنى من ذلك الجمال السرمدى ، والنور الأزلى حتى أصبحت أغوص فى بحار الحب الإلهى ، والعشق النورانى وأصبحت أردد مع المحبين :

الله ربى لا أريد سواه
هل فى الوجود حقيقة إلاه

فما زادنى السعى فى طلب العلم ، إلا يقينا بعظمة الله وقدرته وتسليما بوحدانيته ، فكل العلوم ، وكل الحقائق ، تنبع من الحقيقة الكبرى ، وهى وجود الله جلت قدرته ، تلك الترنيمة القدسية والأنشودة العذبة « لا إله إلا الله » وعلمت علم اليقين كيف أن كل من يردد تلك الكلمات الخالدة ، بلسان الحال والمقال يجد نفسه سابحا فى الوجود يشعر بتجاوب الكائنات فى الأرض والسماء ، ويتمتع بأعذب الأحاسيس وألطف المعانى والمشاعر ، لأنه يحقق الإنسجام التام مع جميع المخلوقات ولذلك فمهما تكلمت عن مشاهداتى فى عالم الملك والملكوت ، فإننى لن أكون إلا كمن اغترف غرفة بيده ، يروى بها ظمأه وشوقه من بحار المعرفة الواسعة ، ثم يروى من بعده كل من يتشوق إلى تلك المعرفة النورانية ، وانطلاقا من فضل الله على ، واعترافا بخيره العميم وكرمه الجزيل ، فإننى أعرض بعضا من تلك الثمار لينتفع بها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، داعيا المولى عز وجل أن يجعلها كما أردنا من حيث تعميم النفع والفائدة للمسلمين .

د . حسن عباس زكى